

59

کتابی



الجزء الثاني

Looloo

www.dvd4arab.com

ملفوظات

المؤسسة العربية الحديثة

المسجد والكنيسة والقرية

[illegible]



چین ایسر

الجزء الثاني



Looloo

www.dadkarak.com

هكذا بدأت القصة

ملخص ما ورد في الجزء الأول

● كان أقصى ما تفتحت عليه عيناى - أنا (جين إير) - فى طفولتى هو أنتى كنت وحيدة فى الحياة ، بلا أسرة ، ولا مال ، ولا جمال !!
فقد مات والداى - أحدهما إثر الآخر ، فى مدى شهر واحد - وأنا بعد طفلة لا أكاد أعى شيئاً ، فكفنى بعدها خالى مسر (ريد) ، الذى كان يعيش فى رخاء ، فى قصر (جيتسهيد) ، ولكنه لم يلبث أن توفى وتركنى فى رعاية أرملة مسر (ريد) ..

ولم تكن حياتى فى قصر (جيتسهيد) نعيماً .. كان (جون) - ابن خالى - يجد متعة فى إيذائى ، وكانت شقيقته (جورجيانا) و (إليزا) تتعاليان على ، بينما حرصت أمهم مسر (ريد) على أن تعافينى بذنوبهم ، وأن تعمل على إذلالى .. كانت ترهقنى بالحرمان ، وتسومنى العذاب .. إلى أن أصبت بالمرض ذات مرة ، بعد أن حبستنى أرملة خالى فى غرفة مهجورة ، رهيبه ، استبدنى فيها القزع ، ودفعنى الحالة النفسية التى خلفنى فيها هذا الحادث ، إلى أن أروى للصبيلى - الذى عادنى وتولى علاجى - كل ما كنت ألاقه من عنت مسر (ريد) وأولادها وخدمها .. وحاول الرجل الطيب أن يساعدى فيتصل بأى أقارب لى كى يتقونى من الحياة فى قصر (جيتسهيد) ، ولكننى لم أكن أعرف أحداً من أقارب أبى .. أجل ، لم أكن أعرف عنهم سوى ما كانت تذكره مسر (ريد) من أنهم فقراء ، وضعيفون ..

ولم أكن من الشجاعة بحيث أشتري حريق بالفقر ..! ومن ثم اقترح الصيدلي على مسز (ريد) أن تلحقني بمدرسة داخلية . ووجدت السيدة في هذا الاقتراح وسيلة للتخلص مني ، فألحقتني بالفعل بمدرسة في (لووود) ، تبعد عن القصر بمئات الأميال .

على أنني ما لبثت أن علمت أن أرملة خالي لم تطوق عني بأى فضل ، إذ كانت المدرسة معهداً خيراً للتيات ..! وكان خير عزاء لي في حياتي الجديدة ، أن مالت ناظرة المدرسة - مس تمل - إلى فراحت تغمرني بعطفها ، وتشجعتني .

● وقضيت في المدرسة ثمانى سنوات : ستاً منها كتلميذة ، واثنين كعامة .. وأتقنت في تلك الأثناء العزف على (البيانو) ، والرسم ، كما أجدت اللغة الفرنسية ، ثم استبدت في الرغبة في مبارحة (لووود) بعد أن تزوجت نصيرتي (مس تمل) ، وغادرتها .. ومن ثم نشرت في إحدى الصحف إعلاناً أشهد العمل كعامة ومربية لأطفال إحدى الأسرات .. وسرعان ما تلقيت دعوة لأكون معلمة لتلميذة دون العاشرة من العمر ، لقاء ثلاثين جنيهاً في العام ..

وهكذا انتقلت إلى قصر (ثورنفيلد) بالقرب من مدينة تدعى (ميلكوت) .. ولم يكن في القصر سوى سيده مسنة تدعى (مسز فيرفاكس) - عرفت فيما بعد أنها المشرفة على القصر ، وليست ربه - وكانت تشرف أيضاً على رعاية تلميذتي (أديل فارنس) ، التي كانت في حوالى السابعة أو الثامنة من عمرها .. وكانت تحبها ، شاحبة ،

لطيفة ، ولدت في فرنسا ، وكفلها مستر (روشستر) - سيد القصر - فأحضرها إلى إنجلترا لتعيش في كنفه .

ولم تكن (أديل) تذكر عن أبيها شيئاً ، ولكنها كانت تذكر حنان أمها وعنايتها بأن تلقنها - منذ طفولتها - الشعر والإنقاء والرقص .. ولم ألتق أنا بالا إلى والدي تلميذتي ، فقد علمت أنني ماثا .. أما سيد القصر ، فقد عرفت من أحاديث مسز فيرفاكس وأديل أنه كان سيداً محترماً ، يملك معظم أراضي المنطقة ، ويعتبره مستأجرو هذه الأراضي مالكاً عادلاً متحرراً .. وكان كثير الأسفار والرحلات ، على شيء من الشاذ ، وصفته مسز فيرفاكس بقولها : « ليس من السهل وصف ذلك الشاذ ، وإن كنت تحببته عندما تتحدثين إليه ، فلا تدريين أهو يمزح أم يجحد ، أهو مسرور أو مستاء .. قصارى القول أنه لا يتسنى لك أن تفهميه جيداً ! » .. ولم أحفل بذلك كثيراً ، فقد كان السيد متغيباً ، وكان حنان مسز فيرفاكس ، وتعلق تلميذتي بي ، وأبهة القصر وفخامته وجمال المناظر المحيطة به .. كل هذه كانت تشغلني عن السيد الغائب !

■ ولم يكن في القصر عدانا سوى مربية فرنسية جاءت مع أديل من أوربا - وتدعى (صوفى) - وحوذى يدعى (جون) وزوجته ، وخادم لتنظيف الدار تدعى (لياه) .. ولم يكن هؤلاء ينامون في القصر وإنما كانوا يشغلون صفاً من الحجرات الصغيرة خلف القصر .

وكان ينجم على القصر طابع غريب - يبدو في أعلى صورة في الطابق

الثالث ، الذى كان مكنتظاً يقطع من الأثاث عريقة في القمام ، بل أثرية .. وأوحى إلى جوه بالأشباح ، فسألت مسز فيرفاكس عما إذا كانت تظهر في القصر أشباح ، فقالت : « لم أسمع عن وجود واحد منها .. ومع ذلك ، يقال إن أفراد أسرة روشستر كان يغلب عليهم - في الماضي - العنف ، ولعل هذا سر هداوهم الآن في قبورهم ! وفيما كانت مسز فيرفاكس تطوف في حجرات هذا الطابق ، سمعت وسط المدوء الشامل ضحكة عجيبة .. ضحكة واضحة ، متكلفة ، كثيفة !.. وتكررت الضحكة في جدلة صاخبة ، من وراء باب إحدى حجرات الطابق ، فقالت مسز فيرفاكس : « لعلها ضحكة الخادم جريس بول !.. فإني كثيراً ما أسمعها ترسل مثل هذه الضحكة إذا ما زارتها (لها) وهي منصرفة إلى الحياكة في إحدى الغرف !.. وأخذت الضحكة تتكرر بعد ذلك بشكل رهيب ، غير حليبي ، تعقبها همهمة !.. فصاحت مسز فيرفاكس : « جريس !.. وما لفت أن أقبلت من إحدى الغرف امرأة ربعة القوام ، بين الثلاثين والأربعين من عمرها ، حمراء الشعر ، جامدة الأسارير ، أقرب إلى أن تكون شبحاً خفيفاً !.. وأخذت مسز فيرفاكس تؤنبها على الضحك ، فاستنعت أنها الخادم الغريبة الأطوار !

وأصبحت أسمع - في خلواتي - هذه الضحكة الغريبة ، الرهيبة ، تجلجل ، ثم تعقبها نغمة شاذة : « كنت أرى (جريس) - في بعض الأحيان - تغادر غرفتها وهي تحمل حوضاً أو صحناً أو صينية ، تهبط بها إلى المطبخ ، ثم تعود حاملة وعاء مليئاً بالطعام .. وكان مظهرها

يخالف تصرفاتها الصوتية الشاذة ، فقد كانت قسماًها الخادة تم عن رصانة .. وكثيراً ما حاولت استدراجها إلى الحديث ، فكانت تهدي زهداً فيه ، وتجنب باقتضاب يقطع على المرء أى أمل !

■ وفي عصر أحد أيام شهر يناير - وكنت قد قضيت ثلاثة أشهر في القصر - خرجت أسعى على قدمي إلى قرية (هاى) التي كانت تبعد بمسافة لا تتجاوز ميلين .. وعندما بلغت طريقاً ضيقاً على سفح التل المتقضى إلى القرية ، استبدتني الخوف ، إذ فوجئت بكلب ضخم يبرز من بين الأحراش .. ثم أعقبه سيد على ظهر جواد .. ولكن الجواد لم يلبث أن انزلق على الصخور المكسوة بالجليد ، فوقع الفارس والتوت قدمه ، وخفت إلى مساعدته ، فتقبل المساعدة في جفاء وخشونة .. وكان طويل القامة ، عريض المنكبين ، أسمر البشرة ، ذا قممات جادة وحاجبين غريزين يلتقيان فوق عينيه .

● ثم انطلق الفارس في طريقه ، بينما تابعت سيرى إلى القرية التي كنت أقصدها .. وعندما عدت إلى القصر وقد هبط الليل ، وجدت حجرة المائدة الكبيرة مضاعة ، والنيران تلتظي في مدقاتها .. وعلمت أن مستر (روشستر) سيد القصر قد عاد : وأنه أرسل في استدعاء طبيب لأن جواده قد انزلق به في الطريق فالتوت قدمه ! والآن ، تستطيع أن تتابع قراءة هذه القصة الرائعة !

الفصل الثالث عشر

■ أوى مستر روشستر إلى فراشه مبكراً في تلك الليلة بأمر الطبيب - في الغالب - كما أنه لم يستيقظ مبكراً في الصباح التالي .. ولم يهبط من الطابق العلوي إلا ليأثر أعماله ، لأن وكيله وبعض مستأجرى أرضه كانوا قد وصلوا وراحوا ينتظرونه ليتحدثوا إليه . واضطرت أنا و (أديل) إلى أن نخلي حجرة المكتبة ، لأن الحاجة كانت تدعو إلى استعمالها كغرفة لاستقبال الزوار ، ومن ثم أشعلت ناراً في حجرة أخرى بالطابق العلوي حملت إليها كتبنا ، وأعددتها لتكون في المستقبل غرفة للدراسة . وتبينت خلال الصباح أن قصر (ثورنفلد هول) قد أصبح شيئاً آخر مغايراً لما كان عليه من قبل .. فلم يعد ساكناً سكّون الكنيسة ، بل كانت تتردد في أرجائه - كل ساعة أو اثنتين - طرقات على أحد الأبواب أو رنين من أحد الأجراس ثم كثرت الأقدام التي تدور للبهو ، وارتفعت في الطابق الأعلى أصوات جديدة متباينة الإيقاع ، وكان نهراً من العالم الخارجي قد فاض خلال القصر بعد أن عاد إليه سيده .. على أي ابتهاج من ناحيتي لذلك ! أما (أديل) فلم يكن من السهل تلقيها الدرس في ذلك اليوم ، إذ أنها لم تقو على المواظبة عليه ، بل ظلت تجرى إلى الباب وتطل من أعلى (الدرازين) لترى هل تستطيع الظفر بنظرة خاطفة إلى مستر روشستر ! ثم أخذت تنتحل المعاذير للهبوط إلى الطابق الأسفل لتسعى - فيما حسبت - إلى المكتبة ، حيث لم يكن أحد في حاجة إليها ! .. وكنت ، إذا تولاني بعض الغضب وأكرهتها على الجلوس والإنصات للدرس ،

أجلدها تحول إلى الحديث بلا انقطاع عن « عزيزها مسيو إدوار فيرفاكس دي روشستر » ، كما كانت تلقب سيد القصر ! .. ولم أكن قد سمعت بألقابه هذه من قبل — كما مضت تخدش أية هدايا جاء بها ، بعد أن قال في الليلة الماضية إن بين متاعه القادم من (ميلكوت) حقيبة صغيرة ستجد في بعض محتوياتها ما يهمها . وأخذت تقول بالفرنسية : « معنى ذلك أن الصندوق يضم هدية لي . وربما لك كذلك يا آنسة .. فقد تحدث السيد عنك ، وسألني عن اسم (معلمتي) ، وعما إذا كانت صغيرة الجسم ناعلة ، شاحبة بعض الشيء .. فرددت عليه بالإيجاب . لأن هذا هو الواقع . أليس كذلك يا آنسة ؟ »

وتفليت مع تلميذتي كالعادة في حجرة مسز فيرفاكس .. وجاء العصر عاصفاً كثير الثلوج ، فقضيت في حجرة الدراسة .. حتى إذا هبط الظلام ، سمحت لأديبل بأن تقصى كتبها وتكف عن عملها ، لتيسر بالمهبط إلى الطابق الأرضي .. بعد أن حادت من السكون النسبي الذي ساد ، ومن انقطاع زئير الجرس ، أن مستر (روشستر) قد فرغ من زواره . ووجدتني أدخل إلى نفسي ، قضيت إلى النافذة « غير أنني لم أستطع رؤية شيء خلالها ، لأن الغسق وندف الثلج ، تضافرا معاً على زيادة كثافة الهواء وإخفاء شجيرات المروج .. فأنزلت الستار ، وعدت إلى جانب المدفأة ، ورجت أن رسم في جنوات النار المتوهجة منظرأ يشبه صورة أذكر أنني رأيتها لقلعة (هيدلبرج) على ضفاف (الراين) .. وما لبثت مسز فيرفاكس أن قبلت لتقطع بدخولها حبل تصوراتي ، وتبدد الخواطر الثقيلة التي بدأت تتراح على

في وحدتي . وقالت : « مسر روشستر أن تتناول وتلميذتك الشاي معه في حجرة الاستقبال هذا المساء ، فقد شغلته أعماله طوال النهار عن طلب مقابلتك قبل الآن .. فسألها : « ومتى يتناول الشاي ؟ » . — في السادسة ، فهو يراعى التكبير في الريف . ويحتمل بك أن تغيري ثوبك الآن ، وسأذهب معك لأعاونك .. ها هي ذى الشمعة . — وهل من الضروري أن أغير ثوبي ؟

— نعم .. بحسن ذلك ، فلنني أترين دائماً في المساء متى كان مستر روشستر هنا !

وبدا لي هذا الحرص على المظاهر ضرباً من الأبهة والشفخفة ، فذهبت إلى حجرتي واستبدلت بثوبي — بمعونة مسز فيرفاكس — ثوباً من الحرير الأسود كان خير ما أملك ، فيها عدا ثوب رمادي كنت — فيها درجت عليه من آراء في الزينة عندما كنت في (لووود) — أرى أنه أبدع من أن أرتديه في غير المناسبات الفريدة !

وقالت مسز فيرفاكس : « أنت في حاجة إلى بروش » .. وكان لدى ديموس واحد ذو رصيلة (بروش) ، كانت مسز تمبل قد منحتني إياه كتذكار ، عندما اقترقنا . ومن ثم ترينت وهبطنا المارج . ولما كنت غير معتادة على مقابلة الأغراب ، فقد بدا استدعائي — بهذا الشكل الرسمي — إلى حضرة مستر روشستر ، بمثابة امتحان لي ، ولذلك تركت مسز فيرفاكس تتقدمني إلى حجرة المائدة ، ولأزمت ظهري إلى أن اجتازنا تلك الحجرة ، ثم مررنا تحت القوس المبدلة الستائر ، ودلفنا إلى الحجرة الأنيقة التي كانت خلفها . وكانت ثمة شمعان على المائدة ،

وأخبرني على المدفأة ، وقد رقد (بابلوت) - الكلب - يصطلي في ضياء الموقد وحرارته ، وإلى جانبه ركعت أدبل . وكان مستر روشستر مضطجعاً على أريكة ، وقد بسط قدميه على وسادة ، وراح يتأمل أدبل والكلب ، ووهج النار يتعكس على وجهه . وتبينت فيه نفس المسافر الذي صادفته في الطريق .. عرفته بحاجبيه البارزين ، وجهيته العريض ، الذي ضاعف من عرضه شعره الأسود المنسحق إلى الخلف . كما ميزته بأنفه الذي كان ينم عن خلق حاسم أكثر مما كان ينطق بالجلال ! وبقمه وذقنه وفكه ، وكلها تدل على الصلابة .. أجل ، كانت هذه القصات الثلاث جلد متجهمة بلا ريب . أما قوامه ، فقد رأيته - بعد أن خلع معطفه - منسجماً مع قصات وجهه .. كان قواماً رياضياً ، عريض الصدر ، نحيل الخصر ، ولكنه لم يكن فارح الطول أو ممشوقاً .

ولا شك أن مستر روشستر قد فطن إلى دخول مسز فيرفاكس ودخول ، ولكنه لم يكن متنبهاً للنظر إلينا - على ما بدا - لأنه لم يرفع رأسه قط عندما اقتربنا منه . وقالت مسز فيرفاكس بطريقها المادئة : « ها هي ذي الآنسة إير ياسيدي .. وعندئذ أحنى السيد رأسه - دون أن يرفع عينيه عن الكلب والطفلة - وقال : « دعي الآنسة تجلس » .

وكان في انحناء رأسه المتكلفة الجافة ، وفي الالهجة الرسمية النافذة الصبر ، ما ينطق برغبته في القول : « ما الذي يعينني يا الله من وجود الآنسة إير أو عدمه ؟ .. لست الآن راغباً في التحدث إليها ؟ » .

وجلس دون أن يساورني شيء من الارتباك ، بل لعلني كنت أرتبك لو أنه استقبلني بأدب جم ، فما كنت إذ ذاك لأعرف كيف أرد

عليه ، في تلطف ولباقة . أما هذا الجفاء الفظ ، فلم يكن يفرض على أن ألترم مسلماً متكلماً ، بل إن الأمر كان على النقيض ، إذ أتاح لي الصمت والارتقاب فرصة مواتية . فقد كانت البداية الشاذة مثيرة ، فرغبت في أن أرى كيف سيسعى السيد في مسلكه !

وظل في جلسته كالثقال ، لا يتكلم ولا يتحرك . ويبدو أن مسز فيرفاكس رأت أن من الواجب أن يكون أحدها ظريفاً ، فبدأت تتحدث حديثاً رقيقاً كالعادة « مبتذلاً لكثرة استعماله كالعادة ، فراحت تبدي إشفافها عليه من كثرة أعماله التي استغرقت النهار بأكمله ، ومن الآلام التي كانت تسببها له قدمه المتوترة ، ثم أخذت تثني على صبره ومثابرته ، بيد أنها لم تلق جزاء على ذلك سوى قوله : « لاني أرغب ياسيادتي في تناول الشاي » .. فأسرعت تدق الجرس ، ولما جاءت الصبيبة ، أخذت ترتب الأقذاح والملاعق وغيرها ، بجدة ورشاقة ، بينما مضيت أنا وأدبل إلى المائدة . ولكن السيد لم يغادر مكانه .

وقالت لي مسز فيرفاكس : « أرجو أن تقدمي لمستر روشستر قدمه ، خشية أن يريقه أدبل » .. ففعلت ما طلبته .. وفيما كان يتناول القادح من يدي ، رأت أدبل القرصة مواتية تخدمني فصاحت : « أليست هناك هدية للآنسة إير في حقبتك الصغيرة ياسيدي ؟ » . فأجاب بخشونة وفظاظة : « من هذا الذي يتحدث عن الهدايا ؟ أكنت تتوقعين هدية يامن إير ؟ هل أنت مغرمة بالهدايا ؟ » .

وراح يتأمل وجهي بعينين - رأيتهما - سوداوين غاضبتين نفاذتين .. وقلت : « لا أعرف تماماً ياسيدي ، فإن خبرني بالهدايا

ضائلة ، ولكنها تعد بصفة عامة من الأشياء الشائفة ! .

— تعد بصفة عامة ! وماذا تعديها أنت ؟ !

— إننى فى حاجة إلى بعض الوقت قبل أن أعطيك جواباً تقبله :

إن للهدية وجوهاً كثيرة ، أليس كذلك ؟ وعلى الإنسان أن يدرسها كلها قبل أن يبدل برأيه فى ماهيتها !

— إنك لست ساذجة نزقة مثل أدبل التى تطالب فى ضجة وحجب بالهدايا بمجرد أن تراه ، ولكنتك تجسبن النبض أولاً !

— لأننى أقل من أدبل ثقة باستحقاقى ، لذلك فى تقضى بمعرفتها السابقة بك ، وبحقها عليك ، ثم بحكم العادة .. إذ تقول إنك اعتدت دائماً أن تعطىها لعباً .. أما أنا فقد يتولانى الارتباك لأننى غريبة ، ولأننى لم أقبل ما يؤهلنى لترقب المكافأة !

— أوه .. لا تبالغى فى الأدب والتواضع . لقد اخترت أدبل ولمست ما عانيت أنت معها .. إنها ليست ذكية : وابست موهوبة ، ولكنها تقدمت فى فترة وجيزة تقدماً محسوساً .

— إنك ياسيدى بهذا قد قدمت فى هديتى ، وفى لشاكرة لأن أشهى ما يسعى إليه المعلمون هو إطراء تقدم تلايمدهم !
فشرب الشاي فى صمت ، حتى إذا رفعت الصينية قال : « اقتربنى من الموقف ! » :

■ وكانت مسز فيرفاكس قد التزمت ركناً ، وانهمكت فى أشغال الإبرة ، بينما كانت أدبل تمسك بيدي وتغوف فى الحجرة لتخرجنى على

الكتب الجميلة والزخارف التى تعلو المناضد . وصعدت بالأمر : وأرادت أدبل أن تجلس على ركبتي ، ولكنه أمرها بأن تنهض مع (بايلوت) ، ثم سألتى : « هل أقمت فى منزلى ثلاثة أشهر ؟ » :
— نعم ياسيدى .

— وجئت من .. ؟

— من مدرسة (لووود) فى مقاطعة ...

— آه .. مؤسسة خيرية .. كم قضيت هناك ؟

— ثمانى سنوات .

— ثمانى سنوات ! لا بد أنك متشبثة بالحياة . كنت أحسب أن نصف هذه المدة كاف للقضاء على أية بنية ، فلا عجب أن تكونى كمن يعيش فى عالم آخر غير عالمنا . ولقد تساءلت من أين لك هذا الوجه .. عندما شاهدتك فى طريق هاى فى الليلة الماضية — ووجدتني أفكر فى القصص الخرافية ، وكدت أسألك هل سحرت لى جوادى ؟ : وإن كنت ما أزال فى ريب من ذلك . من هم أهلك ؟

— ليس لى أحد !

— وأحسب أن لم يكن لك أحد من قبل .. أتذكرين والديك !

— كلا .

— هذا ما حدث . ولذلك كنت تنتظرين قومك عندما رأيتك

تجلسين فوق حجر ناصية الدرب .

— أنتظر من يا سيدى ؟

— ذوى الثياب الخضراء ! كان ضوء القمر مائلاً فى ذلك المساء

لظهورهم ! ترى هل اخترقت أنا أحد الطلامم التي كنت تنثرها فوق ذلك الجليد اللعين على الجسر ؟

فهزرت رأسي وقلت متظاهرة مثله بالجد : « إن ذوى الثياب الخضراء قد هجروا إنجلترا منذ مائة سنة ، ولن تجد أثرًا لهم في طريق (هاى) ولا فيما حوله من حقول ، كما أعتقد أن القمر - سواء في الصيف أو الشتاء أو موسم الحصاد - سيضئ ضياءه مرة أخرى على حفلاتهم الصاخبة وقصفهم المرح ، الذى ورد في الأساطير .. فتركت مسر فيرفاكس الشغل الذى كانت تطرزه ، ورفعت حاجبيها ، وكأنها تتساءل أى نوع من الحديث هذا . واسترسل مستر روشستر يقول : « حسنًا .. إذا كنت بلا والدين ، فلا بد أن لك أقارب : أعمام أو عمات ؟ »

— كلا .. لم أر واحدًا منهم !

— ومثلك ؟

— ليس لي منزل !

— وأين يعيش إخوتك وأخواتك ؟

— لا إخوة لي ولا أخوات !

— من زكى يجيئك إلى هنا ؟

— نشرت إعلانًا ردت عليه مسر فيرفاكس !

فقالَت السيدة الطيبة التي عرفت الآن موضوع حديثنا : « نعم ، وأنا أحد الله في كل يوم على أن وفقتني العناية إلى هذا الاختيار ، لأن الآتية إير غدت لي رفيقة لا سبيل إلى تقدير قيمتها ، ومعلمة شفيقة شديدة العناية بأدبيل . فرد مستر روشستر قائلاً : « لا تعجب نفسك في

امتداح أخلاقها ، فإن الشتاء لا يجئني على الخبايا ، وسوف أحكم عليها بنفسى بعد أن بدأت بإسقاط جوادى »

فهضمت مسر فيرفاكس مشدودة : « سيدى ! »

— ويجب أن أشكرها على هذا الالتواء !

فتجلت الحيرة على الأرملة ، ولكنه استرسل يسألنى : « هل عشت من قبل في إحدى المدن يا آنسة ؟ »

— كلا ياسيدى .

— وهل اختلطت كثيرًا بالمجتمع ؟

— لم أختلط بغير التلميذات والمعلمات في (لورود) .. ثم بأهل (ثورنفلد) !

— هل قرأت كثيرًا ؟

— لم أقرأ سوى ما صادفنى - في حياتى المحدودة - من الكتب .

وهي ليست متعددة ولا تحترق جانبًا كبيرًا من الثقافة !

— لقد عشت مثل حياة الراهبة ، فأنت بلا ريب ذات خبرة

واسعة بأسور الدين . (إن بروكلهيرست) - الذى يدير (لورود)

فيما أعتقد - قسيس أو راعى كنيسة . أليس كذلك ؟

— نعم ياسيدى .

— إذن فعلت البنات كن يعبدنه ، كما يعبد الدبر الزاخر بالمتدينات

مديره ؟

— أوه . كلا !

— یالك من باردة الطبع ! كيف لا تعبد راحية قسيسها ؟ إن هذا يبدو نوعاً من التجديف !!

— لقد كنت أكره مستر بروكلهيرست . ولم أكن الوحيدة التي يساورها هذا الإحساس ، لأنه رجل فظ ، مغرور ومتطفل معاً .. أمر بقص شعرنا ، وبدافع من الاقتصاد اشترى لنا إبراً وخيطاً يتعذر الحياكة والتطريز بها .

وعادت مسز فيرفاكس تستولى على دفة الحديث . قائلة : « كان اقتصاداً رائعاً ! » .. فتساءل مستر روشستر : « هل هذا كل ما أحتفكن عليه ؟ » .

— لقد ضورنا جوعاً عندما كان يتولى الإشراف على شئون القوم قبل تأليف الخبنة . كما كان يضايقنا بمحاضراته الطويلة في كل أسبوع ، وبقراءات مسائية في كتب من تأليفه ، عن الموت المفاجئ والتقصاض .

كما كان يجعلنا نخشى الذهاب إلى أسرتنا !

.. كم كان عمرك عندما ذهبت إلى لووود ؟

.. نحو عشرة أعوام .

— وقد مكثت هناك ثمان سنوات . فأنت الآن إذن في الثامنة

عشرة ؟

فرددت بالإيجاب . وإذا ذاك : قال : « هأتدري ترين فائدة الحساب فلولاها ما استطعت تقدير سنك : لأنه يصعب أن يقطع الإنسان بما إذا كانت قسبات الوجه والأسارير لا تتفق مع حقيقة السن كما هو الحال معك . والآن .. ماذا تعلمت في (لووود) ؟ هل تستطيعين العزف ؟ » .

— قليلاً ..

— بالطبع .. هذا هو الرد الأكيد ! اذهبي إلى المكتبة .. أعني إذا سمحت ! .. ومعدرة على لطيفي الأمرة ، لأنني أعدت أن أقول « افعل هذا » ، فإذا هو مفعول ! .. اذهبي إلى المكتبة : وخذي شمعة معك ، واركعي الباب مفتوحاً ، ثم اجلسي إلى البيانو واعزفي لحناً .

فذهبت إطاعة لأوامره ولكنه ما لبث بعد دقائق أن صاح : « كئي ! إنك تعزفين كآية تنميذة إنجليزية . وقد تكونين أكثر إجادة من غيرك ولكنه عزف أقل مما ينبغي » .. فأغلقت البيانو . وقفلت راجعة ، فاسترسل يقول : « إن أدبل أرتقي صباح اليوم بعض رسومات تخطيطية قالت إنها من رسمك . وإن كنت لا أدري إذا كانت كلها من عملك أو أن أستاذاً ساعدك فيها ؟ » . فاعترضت قائلة : « كلا . إنها في الواقع من عملي ! » :

— آه ، هذا عس كبيراءك ! .. إذن ، أريني ما عندك إذا كنت تصرين على أنه من رسمك حقاً . ولكن لا تقسمي إلا إذا كنت متأكدة ، لأنني أستطيع أن أميز من الأعمال ماهو زائف أو متحل .

— إذن فلن أقول شيئاً حتى تحكم بنفسك ياسيدي !

وأحسرت حافطتي من المكتبة . فقال : « قربي المنضدة ! » .. فدفعتها إلى مكتبته . واقتربت أدبل ومسر فيرفاكس لمشاهدة الصور ، فقال : « لا أريد تراحاً : هذا الرسومات من يدى متى فرغت منها ، ولكن لا تدفعا وجهي كما نحو وجهي ! » .. وأخذ يطل النظر والتمن في كل رسم ، ثم وضع ثلاثة منها جانباً :

الرسم الأخرى، طرح بها بعيداً عنه وقال : « احملها يا مسز فيرفاكس إلى المنضدة الأخرى ، وتطلعي أنت وأديل إليها »

وبعد ذلك رنا إلى : « ثم استطرد قائلاً : « عودي إلى مقعدك وأنجيبي عن أسألتني : أرى أن تلك الصور رسمتها يد واحدة .. فهل هي يدك ؟ » .. قلت : « نعم » .

— ومتى وجدت وقتاً لرسمها ؟ لقد استغرقت وقتاً طويلاً وبعض التفكير !

— رسمتها أثناء الأجازات بين الآخرين في (لورود) عندما لم يكن لدى عمل آخر .

— ومن أين جئت بالناذج ؟

— من رأسي !

— هذا الرأس الذي أراه الآن بين كتفيك ؟ !

— نعم ياسيدي !

— وهل به ريش من الطراز الذي رسمته في الصور الأخرى ؟

— أظن ذلك .. بل أرجو أن يكون به ما هو خير من ذلك وأبدع !

فبسط الصور أمامه وراح يتفحصها عدة مرات . وفيها هو منهك

في ذلك ، سأخبر القارئ بما كانت تحويه . ويجب أولاً أن أسهل بآنها

لم تكن رائعة بمحال ، وأن موضوعاتها نبئت زاهية في رأسي ، وكانت

عندما رأيتهما بعين الخيال -- قبل أن أجسمها -- أخاذة رائعة ، غير أن

يدي لم تقو على معاونة خيالي . فجاءت صورة باهتة لما تخيلته من قبل ! :

وكانت الصور الثلاث مرسومة بالألوان المائية ، وتمثل أولاهـا

صباحاً قريبة زرقاء تتدرج فوق بحر خضم . وقد ظهرت نهاية الصورة من بعيد — كقدمها القريب — غارقة في الظلام والأمواج ، إذ أن الصورة كانت خالية تماماً من كل أرض . ولم يكن يهتك ذلك الظلام سوى خيط من الضياء يكشف عن شراع غارق لنصفه . وقد جثم عليه غراب من غرابان البحر ينسجه الماكن وجناحيه المرصعين بالزبد ، بينما أمسك بمقارء سواراً من ذهب تزينه أسجار كريمة استعنت في رسمها بكل ما كان لدى من ألوان ، وجلوت تألقها بكل ما في قلبي الرصاص من قوة ! .. ونحت الطائر والشراع — بين المياه الخضراء — طقت جثة غارقة لا يظهر منها سوى الذراع التي سقط منها السوار !

أما الصورة الثانية . فكان جزؤها الأمامي لا يخوي سوى قبة تل معتم ، تكسوه حشائش وأوراق مالت مع النسيم . وعلى مبعدة من التل وفوق هامته . تنبسط سماء واسعة زرقاء بضوء الغسق ، بينما ترتفع نحو السماء صورة نصفية لامرأة يأتلق على جبينها نجم . وتبدو قسماها شاحبة ، وكأنيها ملفوفة بضباب من البخار : عينا سوداوان تألقان ، وشعر ينساب كالظلال ، أو كسحابة قائمة مزقتها يد الأنواء أو مستها كهرباء ، وعنق ينعكس عليه ضياء باهت كنور القمر !

أما الصورة الثالثة . فكانت تمثل جبلا من جبال الثلج الشاخفة ، وهو يناطح السماء في شتاء المتقطعة القطعية . كما تمثل حشداً من أضواء الشمال شرعت وماحيها الدائكة في الأفق إلى مسافات بعيدة ، بينما ظهر في صدر الصورة رأس يعتمد على يدين ، ويغطيهِ خمار رقيق تظهر من خلقه عين غائرة خالية من كل معنى سوى اليأس والتفكير . وكانت

على الرأس عمامة سوداء يتألق بين طياتها هلال يرصعه شرار كالحلزون ، يتل في مجموعه تاجاً !
وفجأة ، سألتني مستر روشستر : هل كنت تشعرين بسعادة وأنت ترسمين هذه الصور ؟ ..

.. كانت تستغرقني بإسدي ، وكنت سعيدة بها ! وقصاري القول ، وجدت في رسمها أعظم أسباب السعادة التي عرفتها في حياتي !
.. ليس في هذا القول مبالغة ، إذ يبدو أن أمياب سعادتك - كما يؤخذ من أقوالك - كانت محدودة ، ولكنني أظنك كنت تعيشين في عالم من أحلام الفنانين وأنت تترجين وترتئين هذه الألوان العجيبة . هل كنت تجلسين أمامها طويلاً في كل يوم ؟
.. لم يكن لدى شيء آخر يشغلي ، لأنني كنت في عطلة . فأخذت أجلس إليها من الصباح حتى الظهر ، ثم من بعد الظهر حتى الليل . وكان طول النهار في أيام الصيف معيناً لي على إشباع ميولي .

- وهل ارتاحت نفسك لنتيجة هذه الجهود الجبارة ؟
- كلا .. لم تروح على الإطلاق ، إذ كان يعذبني الفارق الكبير بين ما يرسم في ذهني ، وما تصنعه يدي . وكنت في كل مرة أتصور شيئاً لا أقوى على إبرازه .

- ليس هذا بالتعبير الصحيح ، فقد كنت متمكنة من الفكرة التي راودت خيالك ، ولكنك لم تثبت من العلم والمهارة التقنية ما يجعل رسمك صورة حية كاملة . ومع ذلك ، فإن هذه الصورة معجبية بالنسبة لتلميذة ! .. أما عن الأفكار ، ففي خرافة .. ولعلك شاهدت في

الحلم عيني المرأة السوداءين تألقان ، لأن الكوكب الذي يضيء الصورة ويعملها كثيرين بأن يبدد تألقهما ! ثم ما معنى ظهور العين غائرة ؟ ومن الذي علمك تصوير الرياح حتى ترسمي رياحاً هوجاء عالية في السماء فوق قم التلال ؟ !

وما كدت أحزم حافظتي أوراقي ، حتى تطلع إلى ساعته وقال في غلظة واقضاب : « الساعة التاسعة ! كيف تتركين أدبيل جالسة في انتظارك طوال هذا الوقت ؟ امضي بها إلى فراشها .. فانهبت أدبيل تقبله قبل أن تغادر الحجرة ، واحتمل هو مجاملتها ، وإن لم يتذوقها بأكثر مما لو كان كلبه (بابلوت) هو الذي فعل ذلك .. ثم أشار إلى الباب إشارة من ملء حنجرتنا ورغب في إقصائنا ، وقال : « طابت ليلتك ! » فتناولت حقيقتي وانحنيت له في أدب ، ولكنه رد علينا بإيماء جافة . وهكذا انسحبنا ، حتى إذا لحقت بسمر فيرفاكس في حجرتها بعد أن أسلمت أدبيل إلى فراشها ، قلت لها : « لقد أخبرني أن مستر روشستر ليس على جانب ملحوظ من الشذوذ .. »

- نعم .. أليس هو كذلك ؟
- أظنه غاية في القلب والفظافة ؟
- هكذا يبدو للغريب عنه ، ولكنني تعودت طباعه ولم أعد أعجب منها قط ! ومع ذلك .. إذا كان في طباعه شذوذ فيجب أن نتجاوز عنه !
- لماذا ؟

- لأن هذه طبيعته من جهة ، فليس لنا حول ولا قوة في ذلك ، ولأن لديه ، من جهة أخرى ، أفكاراً مؤلة تنكذ عليه بشذوذه وتعيب روحه !

— أية أفكار ؟

— إن له متاعه العائلية ... من ناحية ؟

— ولكنه بلا عائلة ؟!

— ليست له أسرة الآن ، ولكن .. كان له بعض أقارب على

الأقل .. وقد فقد أخاه الأكبر منذ سنوات قلائل .

— أخاه الأكبر ؟

— نعم . فإن مستر روشستر الحال لم يظل عهده يتولى شئون هذه

الممتلكات ، إنما آلت إليه منذ حوالي تسع سنوات فقط .

— إن تسع سنوات مدة معقولة . فهل كان شديد المعلق بأخيه

بحيث يظل إلى الآن غير قادر على احتمال فقد ؟

— كلا .. ربما كلا ، فلنني أعتقد أنه قد نشب بينهما سوء تفاه

نتيجة لأن مستر رولاند روشستر لم يكن منصفاً مع أخيه مستر إدوارد

وربما كان قد أوغر عليه صابر والده ، إذ كان السيد الكبير يحب المال ،

كما كان راغباً في أن تظل أملك الأسرة وحدة واحدة . فلم يشأ أن يبددها

بالتقسيم ، ومع ذلك فإنه كان شديد الرغبة في أن يصيب مستر إدوارد

ثروة ، هو الآخر ، ليحافظ على كرامة اسمه . ولكن ما أن بلغ مستر

إدوارد سن الرشد ، حتى اتخذت بعض إجراءات لم تكن عادلة ، بل

أنزلت به كثيراً من الضرر .. ثم اتخذ مستر روشستر الكبير مع مستر

رولاند على أن يضعا إدوارد في مركز اعتبره هو مؤلماً . وإن كنت

لا أدري إلى الآن طبيعة هذا المركز بالضبط ، ولكنه لم يشأ أن يصفح

عنهما ، فقاطع أسرته .. ومنذ ذلك الحين — منذ سنوات عديدة — وهو

يعيش حياة غير مستقرة ، ولا أحسبه أقام في (ثورنفلد) مرة لأكثر

من أسبوعين كاملين ، لأن وفاة أخيه بلا وصية جعلته مالكا للمقاطعة ،

ولا عجب في الحقيقة إذا كان يعرض عن المكان القديم .

— ولماذا يعرض عنه ؟

— لعله يراه مقيضاً للنفس !

وكان الرد ينطوى على مراوغة ، في حين أنني كنت أطمع في أن

يكون أكثر صراحة ووضوحاً ، ولكن الظاهر أن مسز فيرفاكس

لم تكن تملك ما يمكنها من الإفصاح ، أو أنها لم تشأ أن تدلي إلى بمعلومات

أكثر صراحة عن أصل وطبيعة الحزن التي كان مستر روشستر يعيش

فيها . وقد أكدت لي أن في الأمر سرأ لم تكن تعلمه ، وإن ما نعرفه كان

من باب الحدس والتخمين . وكان واضحاً جلياً أنها ترغب في أن نستط

هذا الموضوع من حسابنا . ففعلت بناء على رغبتها !

الفصل الرابع عشر

● لم أر مستر روشستر في بضعة الأيام التالية إلا لماماً .. فقد كان

يبدو في الصباح جلد مشغول بأعماله ، أما بعد الظهر فكان بعض السادة

من (ميلكوت) أو البقاع الجاورة يزورونه ويمكنون أحياناً حتى

يتعشوا معه . وعندما تحسن التواء قدمه وبات في وسعه امتطاء جواده ،

راح يكثر من الخروج به ، ولعله كان يرد هذه الزيارات ، لأنه لم يكن

يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل .

وفي تلك الأثناء ، كان ينذر أن يدعوا أحدنا إلى

حضرته : كما أن مقابلاتي له لم تعد حدود اللقاء العابر في الدرجة ،
أو على الدرج . أو في القاعة الكبرى : فكان يمر في أحياناً في تعاضف
وبرود دون أن يعبر وجودي أكثر من إيماءة عن كسب : أو نظرة
فائرة : أو انحناء . أو ابتسامة - في بعض الأحيان - كما يفعل السادة
إذا تطففوا ! .. ولم تكن هذه التغيرات في مزاجه تكدر صفوى : لأنني
لم أكن أرى لنفسى يداً في تقلباتها . بل كان مدها وجزرها يرجعان
إلى أسباب لا تمت إلى بأية صلة !

و ذات يوم . دعا السيد جماعة للعشاء . وأرسل في طلب حافلة
أوراق لكي يستعرض محتوياتها بلا ريب . ثم خرج السادة بعد ذلك
مبكرين لحضور اجتماع عام في (ميكوت) ، كما بلغني من مسر
فيرفاكس . ولما كانت الليلة مطيرة قاسية . فإن مسر روشتر لم
يخرج في رفقته . فما إن رحلوا ، حتى دق الجرس وجاءتني دعوة
لكي أنزل مع أديل إلى الطابق الأرضي . فقسفت لها شعرها وهدمت
ملابسها . وبعد أن استوثقت من أنني قد ارتديت ثوباً مناسباً لا يحتاج
إلى إصلاح .. ثوباً غاية في الانقسام واليساعة ، نزلنا معاً . وأديل
تتساءل إذا كان الصندوق الصغير قد جاء - أخيراً - بعد أن تأخر
حضوره بسبب بعض الأخطاء ؟! .. وعندما دخلنا حجرة الطعام
أرضاه أن شاهدت غلبه من الورق المتقوى على المائدة . ويبدو أنها
أدركت أنها بغيتها بغريزتها ، إذ صاحت وهي تجري إلى المائدة :
« صندوق ! صندوق ! » :

فقال مسر روشتر بصوته العميق الساخر . وهو مضطجع في

مقعد كبير بجوار الموقد : « حذار أن تضايقني بأسئلتك عن تفاصيل
عملية تشريح الدمية أو عن حال أحشائها ! .. شرحها بنفسك في صمت
والزى السكون يا طفلي .. »

ويبدو أن (أديل) لم تكن في حاجة إلى هذا التحذير ، إذ سرعان
ما انسحبت بكتفها إلى إحدى الأرائك ، وانهمكت في حل (الدوابة)
التي كانت تربط الغطاء . حتى إذا أزال ذلك العائق ورفعت بعض أغلفة
فضية من ورق (السوفان) صاحت بالفرنسية : « أوه .. يا السماء !
كم هي جميلة ! .. » ولم تزد ، بل مكثت غارقة في تأملاتها الذاتية .
وعندئذ قال السيد وهو ينفض قليلاً عن مقعده ليتطلع إلى الباب الذي
كنت ما أزال واقفة بجانبه : « هل الآتية إير هنالك ؟ آه .. حسناً ،
تقدمي .. اجلسي هنا ! .. » ثم جر مقعداً إلى جوار مقعده وقال :

- إنني لا أحب لثررة الأطفال ، فأنا كأعزب عريق لا أمك
ذكريات سارة تشغل بلفتهم .. وما أراي أحتمل أن أقضي مساء برمته
أشامر مع طفل لا يتعدى عني بمعتقدك يا مس (إير) : بل اجلسي
حيث وضعت تماماً .. هكذا ، من فضلك !.. ألا قبها للمجاسمات
المتكيفة . فإنني لا أقفأ أنساها ، ومن ثم فليست أروق للعجائز
السادجات !.. وبهذه المناسبة ، يجب أن أذكر عجوزي ، فلا يجعل
أن أغفلها . لأنها من آل فيرفاكس ، أو بالأحرى كانت زوجة لوالدها
منهم .. والدم . كما يقال ، أشد كثافة من الماء !

ثم دق الجرس وأرسل يدعو مسر فيرفاكس ، فسرعان ما قدمت
ويدها سلة أشغال الإبرة . فقال لها : « صاب منارك بالسيدي » :

لقد أرسلت أَدْعُوكَ لغرض خيرى ، إذ أننى منعت أَدِيلَ من أنْ تُخَدِّثنى عن هداياها . ولذلك فهى منعمة ، تكاد تنفجر : ففضلى بأنْ تكونى مستمعة لها وكليمة ، وسيكون هذا من أعظم الأعمال الخيرية التى قت بها فى حياتك ! » .

والواقع أن أَدِيلَ لم تكذب ترى مسز فيرفاكس . حتى دعها إلى الأريكة ، ثم بادرت تملأ لها حبرها بمحتويات الصندوق الخرفية والعاجية والشمعية ، كما راحت فى الوقت نفسه تفيض بالشرح والإيضاح بقدر ما مكنتها درايتها الكلية باللغة الإنجليزية .. بينما عاد المستر روشستر إلى مخاطبتي قائلاً :

— أما وقد قت بدور المضيف الكريم . إذ دبرت الوضع بحيث تسلى كل من الضيفتين زميلتها ، فإبنى فى حل من أنْ أنصرف إلى ما فيه تسليى .. قربى مقعدك مسافة أخرى يا آنسة إير ، فأنت ما زلت على متأى منى ، بحيث لا أستطيع أن أراك دون أنْ أنحول عن الوضع المريح فى هذا المقعد . وهو ما لا أعترم أن أفعله !

وصدعت بما أمر ، يرغم أننى كنت أوثر أن أضل فى مجلسى ، متوارية بعض الشيء فى الظلال . على أنْ مستر روشستر كان ذا طريقة فى إلقاء الأوامر ، لا يبدو معها مقر من الإطاعة فوراً ! .. وكنا — كما قلت — فى حجرة المائدة ، والثريا تغمر المكان بفيض من النور يشرح النفس ، كما كانت نيران الموقد حمراء متألفة ، والستائر الأرجوانية تتدلى فى أناقة أمام المنافذ والقبو المرتفع .. وكان السكون يغشى كل شيء ، لا يكاد يعكره سوى حديث أَدِيلَ الخافت — إذ لم تكن تجرؤ

على رفع صوتها — يتخلل قترات الصمت فيه وقع المطر وهو يصفغ الألواح الزجاجية للمنافذ .

● وبدا مستر روشستر — فى جلسته على المقعد المكسو بالدمقس — مختلفاً عما رأيته من قبل : إذ كان أقل تجهماً . وكانت على شففيه ابتسامة ، وفى عينيه بريق بأنلق ، بفعل الخمر أو بغيرها .. فلست واثقة من ذلك . وإن كنت أراه جد محتمل ! .. وقصارى القول : كان السيد بعد العشاء فى حالة نفسية أكثر انشراحاً وابتهاجاً ، وأكثر تساهلاً مما كان عليه فى الصباح من صرامة وجفاء . ومع ذلك ، فقد لاح على قدر غير قليل .. نسيباً — من العبوس . وهو يستند رأسه الضخم على ظهر مقعده المنخفض . ويتلقى وهج النيران على قسبات كأنها قدت من صوان . وعينين كبيرتين سوداوين — إذ كانت عيناه واسعتين ، داكنتى السواد — بدبعين كذلك ، وإن لم تكونا غلوان من بعض تغير يترأى فى أعماقهما أحياناً .. تغير إذا لم يكن لطيفاً ، فهو — على الأقل — يوحى إليك باللطف ! .. وكان قد قضى دقيقين يتفرس فى النار ، حين التفت إلى فجأة ، ووجد نظرائى عالقة بسحنته ، فقال : « إنك تنفحسنى يا مس إير .. أفترينى جبلاً ؟ ! »

وكان خليقاً بى — لو أننى فكرت — أن أجيب عن هذا السؤال بعبارة مبهمة مهلبية ، تنمى مع ما استلح عليه الناس من مجاملات ، ولكن الجواب انزلق من لسانى بطريقة ما ، فبيل أن أفطن : « لا ياسيدى ! » .. فقال : « آه .. لعننى ! .. إن فىك شيئاً غير

جيني تنطق صفحته بالكذبة ، ولا يعتبر عيب سوى نقص ما ينم عن
الأريحية وحب الخير ، واستطرد : « والآن يا سيدتي .. هل أنا أبله ؟ »
- كلا - على الإطلاق يا سيدتي .. ولعلك ترميني بالفضاضة إذا

سألتك بدوري : هل أنت محب للإنسانية والخير ؟

- أعدنا ثانية ؟! - وخزة أخرى من المطواة ، وأنت تنظاهرين
بأنك تربتين رأسى ، فحرد ماقلته من أفى لا أطيع معاشررة الأطفال
والنساء العجائز ! (ولنخفض صوتنا هنا) .. كلا يا سيدتي الصغيرة ..
لست محبة للبشر والإنسانية بصقة عامة ، ولكنى أحمل ضميراً بين جنبي
(وأشار إلى المكان الذى تم عنه كلماته) . هذا إلى أنه كان فى فيها مضى
قلب رقيق - وكنت فى سنك . إنساناً شديد الحساسية ، يعطف على
كل من لم يتكلم نضجه ، وكل من لا يبعد من يعوله ، وكل من
يغونه الحظ . بيد أن القدر عادانى منذ ذلك الوقت .. بل إنه طحننى
بيديه ! وإني لأطرى الآن نفسى على أن غدوت صلياً جامداً « ككرة
صماء من المطاط ، وإن كان ما يزال بهذه الكرة شق أو الثنان ، كما
توسطها نقطة حساسة ، فهل يتيح لى ذلك سييلاً إلى أمل أو رجاء ؟

- رجاء فى أى شيء يا سيدتي ؟

وقلت فى نفسى : « لاشك أنه أفرط فى احتساء الطمر ! »
ولم أدر بماذا ينبغي أن أرد على سؤاله العجيب هذا ، كما تساءلت كيف
أقطع بأنه قادر على أن يتحول أو يتبدل من جديد .. وعاد يقول :

- إن الحيرة البالغة تتجلى عليك يا آنسة إير ، ومع أنك لا تفوقينى
جمالاً ، إلا أن هذه الحيرة تلامم مظهرك ، فضلاً عن أنها تربحنى لأنها

عادى ، فأنت تشبهين الراهبة الصغيرة فى غراية أطوارها . وحدوثها ،
ورزاتها ، إذ تجلسين هكذا ، ويدك ميسوطتان أمامك ، وعينك
منكستان عادة على البساط ، لا تفارقانه إلا عندما تصوبان إلى وجهى
نظرات نافذة : كما فعلت منذ قليل ، مثلاً ! .. فإذا وجه أحد إليك
سؤالاً ، أو أبدى ملاحظة تضطرين إلى التعقب عليها ، قذفت برد
يكون لاذعاً - على الأقل - إن لم يكن جافاً بارداً .. ما الذى عنيت به
برذك ؟ ! »

- لقد كنت صريحة أكثر مما ينبغي يا سيدتي . فأسألك المعفرة .
كان يجدر بى أن أجيب بأنه ليس من السهل أن أصدر جواباً مرضيلاً
عن سؤال يخص المظهر والمثية ، وبأن الأذواق تتباين إلى حد كبير .
وبأن الجمال لا يهم كثيراً .. أو بشيء من هذا القبيل !

- بل ما كان ينبغي أن تجيب بذلك .. إن الجمال لا يهم كثيراً ،
بالفعل ! ولكنك تغرسين مطواة خبيثة خلف أذنى ، بدعوى التخفيف
من الإساءة السابقة ومحاولة تلطيف وقعها على نفسى ! .. ألا قولى لى :
أى عيوب تجدونها فى ، من فضلك ؟ .. إننى فيما أعتمد مكتمل الأطراف
والقصبات ، كأي رجل آخر .. أليس كذلك ؟

- دعنى أنكر ردى الأول يا ماستر روشمستر « فما كنت أنتوى
أى رد قاس ، ولكنها كانت زلة لسان فقط !

- هو ذلك ، على ما أرى ، ولكنك ستواخذين بهذه الزلة ،
فانتقدينى : ألا يروق لك جيبى ؟

ورفع شعره المنسوج الذى كان متهدلاً على حاجبيه ، فكشف عن

نقصى عن بحثي هاتين العيشتين المتفتحتين وتغلغلها عني بتأمل زهور
السجادة الصوفية !.. أمعنى في حيرتك ، وثق يا سيدتى الصغيرة أتى
الليلة مبال إلى أن أكون ألبناً محباً للاجتماع بالغير !

* * *

■ وما أن قال هذا حتى تبعض من مقعده فوقف . ثم انكأ على ذراع
الموقد الرخامى : فنجلت في وقفته هذه حقيقة شكله ووجهه . وصدره
المفرط في الاتساع إفراطاً لا يقسم مع طول أطرافه . ولا ريب عندى
لى أن معظم الناس كانوا خليقين بأن يعتبروه دميماً . على أنه كان في
هيئته ما ينم عن كثير من الكبرياء غير المتعالة . وعن بسطة في الخلق .
وعن عدم اكتراث بظهوره . مع اعتداد متعال بقوة فضائله الأخرى
-- سواء أكانت ذاتية أو عرضية -- مما كان يعوض ما يفتقر إليه من
جاذبية المظهر الخارجى . ويحمل من يراد على أن يثق به ثقة عمياء ؟ !
وغاد يكرر قوله : « إن في الليلة ميلاً إلى أن أكون ألبناً محباً
للاختلاط بالغير » ولذلك أرسلت في طلبك ، لأننى لم أجد في الموقد
والثريا رفقة كافية . ولا فى (بايلوت) ، إذ أن أياً من هذه لا يستطيع
الكلام .. ومع أن أدبى أفضل من هؤلاء درجة : إلا أنها ما زالت دون
الدرجة التى تصلح فيها للإنسان والمسامرة . وكذلك مسز فيرفاكس !..
أما أنت ، فأنا مفتتح بأن فى وسعك - إذا شئت - أن تكونى زميلة
مناسبة ، وإن حيرتنى فى أمرى فى أول ليلة دعوتك فيها للتزول إلى
هنا . ولقد نسيتك تماماً بعد ذلك . لأن رأسى ازدحم بأفكار أخرى
أفستك بعيداً ، ولكنى أعترزم الليلة أن أريح نفسى فأبتعد عما يضايقنى

من أفكار وأجلب منها ما يسرى : والآن .. يسعدنى أن أستدرجك
لأزاد بك معرفة : فتكلمى !

وبدلاً من أن أتكلم . ابتسمت . وإن لم تكن ابتسامة بشوش
أو مستسلمة .. فراح يستحقى : « تكلمى ! » :

— فيج يا سيدتى ؟

— فيما يعجبك . فسأترك لك اختيار الموضوع وطريقة معالجته .
ولكنى لم أنبس بعرف ، بل قلت أحدث نفسى : « إذا كان يتوقع
أن أتكلم لجرد الكلام والنظائر ، فسوف يكتشف أنه قد أخطأ
الاختيار ! » .

.. هل أنت بكاء يا مس لير ؟ !

فظللت بكاء : وعندئذ مال برأسه نحوى قليلاً ، وغاص فى عيني
بنظرة عاجلة ثم قال : « عنيده ٢ .. ومتضابقة ٢ .. هذا فى موضعه .
لأننى ألقىت طبعى عليك بطريقة خفيفة تكاد تكون وقحة ، فأسألك
المعذرة يا مس لير . والواقع أننى لا أرغب بحال فى أن أعاملك معاملة
من هم دونى منزلة .. (ثم قال مصححاً) : أعنى أننى لا أدعى لنفسى
عليك تفوقاً . إلا ما تحمته عشرون عاماً تفصل بين عمرينا ، وقرن من
الزمن أسبقك به فى الخبرة : وهذا حق مشروع أتمسك به -- كما تقول
أدبى بفرضيتها -- ويحق هذا التفوق وحده أرغب فى أن تتكررى
بالخديث معى الآن قليلاً : وأن تحولى أفكارى التى يفسدها ارتكازها
على نقطة واحدة .. فهى تتأكل كالسيار الصندى ! » .

ولقد أراد بهذا الشرح أن يكون أشبه باعتذار . ولكنى لم أدع

هذا التنازل يستحقني ، ولو مجرد التظاهر ، فقلت : « بودى أن أسليك يا سيدى ما استطعت إلى ذلك سبيلا » . ولكن ليس في وسعى أن أقدم موضوع الحديث ، إذ كيف لي أن أعرف ما يسرك ؟ ملنى ما تشاء وسأبذل قصارى لارد » .

— إذن أخبرني أولا : هل توافقيني على أن لي الحق في شيء من السيادة ، والفظاظة — وربما التدقيق — للاعتبارات التي ذكرتها ؟ . أعني أنني في سن والدك وأنتى خضعت تجارب من كل لون . مع رجال من مختلف الشعوب ، وأنتى جيت ما يزيد على نصف الكرة الأرضية . بينما قضيت أنت حياتك في هدوء ، ومع فريق واحد من الناس . في منزل واحد .

لك ما تشاء يا سيدى .

— ليس هذا جواباً .. أو هو بالأحرى جواب غاية في الإثارة . لأنه يتعمم بكثير من المراوغة . أجيئني بصراحة !
— لست أرى يا سيدى أن لك الحق في فرض أوامرك على غيره أنك تفوقني سناً ، أو لأنك خبرت العالم أكثر منى .. إن دعواك في السيادة تستند إلى الطريقة التي أفدت بها من وقتك وتجاربك !

— أف ! .. إنك تستدرجني ، ولكنني لن أقر رأيك . إذ أنه لا ينطبق على حالى ، بل يظهرني بمظهر الذى يستغل الميزتين — السن والخبرة — في غير اكتراته ، إن لم أقل استفلا سبباً .. فلندع السيطرة جانباً ، ولكن واجبك أن تتلقى منى الأوامر من حين إلى آخر . دون أن تستأني أو تتأذى من لهجة الأمر .. فهل تقبلين ؟

فأبسمت وقلت في نفسي إن مستر روشستر رجل شاذ ، فقد نسي أنه يدفع لي ثلاثين جنياً في السنة مقابل أن أتلقى أوامره . ولاحظ هو على الفور ما ارتسم على وجهي فقال : « إن الابتسامة حسنة جداً ، ولكن .. تكلمي أيضاً ! » .

— كنت أفكر يا سيدى في أن قابلاً جداً من السادة يكلفون أنفسهم عناء السؤال عما إذا كان أتباعهم المأجورون يستاعون أو يتأذون من تلقى أوامره !

أتابع مأجورون ! .. ماذا ؟ .. هل أنت تابعة مأجورة عندي ؟
— نعم .. سبت ما تب ! .. حسناً إذن .. هل تقبلين على هذا الاعتبار .. اعتبار الارزاق .. أن أمدد قليلاً ؟

كلابا يا سيدى . ليس على هذا الاعتبار . ولكن على اعتبار أن نسي ذلك وأن تعني بالسؤال عما إذا كان من تعوله مستريحاً في علاقته معك . عندها أقبل بكل سرور !

— وهل نقايض النجاح من كثير من الأشكال والعبارات المصطلح عليها دون أن ترى في النجاح عنها شيئاً من الفحة ؟ !

— أنا واثقة يا سيدى من أنني لن أخطئ التمييز بين رفع الكلفة وبين الوقاحة .. ولعننى أفضل أولاهما . ولكن الثانية لا يرضى بها من ولد حراً ، ولو تقاضى في مقابلها أجراً !

— شش وخداع ! إن معظم من يولدون أحراراً يتقبلون أى شيء مقابل الأجر ! .. تحدثي عن نفسك فقط ، ولا تتجاوزي إلى العمومات التي تجهلونها . ومع ذلك . فإني أصافحك بعقل على جوابك رغم عدم

دقته .. أما الطريقة التي قيل بها : والمادة التي اشتمل عليها ، فخطوبان على الصراحة والإخلاص . والمرء لا يصادف كثيراً هذا الطبع . وإنما يلقي — على العكس — تكلفاً ، أو فتوراً ، أو غباءً ، أو سوء فهم للمعاني نتيجة ضيق العقل . ولا توجد ثلاث معلمات بين آلاف يستطعن الإجابة عن سؤال مثل ما فعلت .. لست أتملكك بذلك .. ولكن . إذا كنت قد خلقت في قالب غير قوالب غالبية البشر . فلا فضل لك في ذلك ، لأنه من فعل الطبيعة . بيد أنني أفسر في أحكامي . إذا ما الذي أعرفه عنك ؟ .. إنك قد لا تكونين أفضل وأمثل من غيرك . إذ قد تكون فيك نقائص وعيوب لا نتمثل . في مقابل محاسنك القليلة !

فقلت في نفسي : « وقد تكون أنت كذلك ! »



● والتفت عيني بعينه عندما طافت هذه المكرة برأسي ، وببدو أنه قرأها إذ أجاب وكأنني حدثته بما يدور بخاطري : نعم ، نعم . إنك على حق .. إن لي كثيراً من العيوب التي أعرفها ولا أحب أن أنس لها المبررات ، ومن ثم فحاشا لله أن أكون قاسياً إزاء عيوب الآخرين . إن لي تجارب ماضية ، ومجموعة من الأفعال ، ولوناً من الحياة ، أكتمها في صدري ، لأنها قد تجلب علي كثيراً من حزن معارفي ولومهم . وقد بدأت ، أو قلرت لي أن أبدأ — لأنني أحب كغيري من الخائفين أن أضاع اليوم على عائق سوء الحظ والظروف المعاكسة — سلوك معوج ، مذ كنت في الحادية والعشرين من عمري ، ولم أعد إلى الصراط المستقيم منذ ذلك العهد . وكان محتملاً أن أكون شيئاً آخر ، بل لعلي

كنت أغنو مثلك طيبة وطهارة ، وربما أرجع عقلاً ! .. وإنني لأعبطك على راحة اليأس . وعني لقاء سسيرك ، وذاكرتك التي لم يدنسها شيء .. ألا اعلمى يا فتاة أن المكرة التي لا تشوبها أية وصة أو دنس لا بد أن تكون كثيراً نفسها . ومعيناً لا ينضب من الانتعاش التي .. أليس كذلك ؟

.. كيف كانت ذاكرتك وأنت في الثامنة عشرة يا سيدتي ؟

على خير . يمكن : صافية ، ملبنة بالصحة ، لم يلوها ماء آسن جوفاً ، بل عذب كزينة الرائحة . كنت في الثامنة عشرة مثلك .. مثلك تماماً . فبما كنت الطبيعة تريد أن تجعل مني رجلاً طيباً يا فتاة ، لم .. رجلاً من أحسن الرجال . وعاندي ترين إنني لست كذلك .. قد تتولين إنك لا ترين ذلك . وأنا أطرى نفسي إذا قلت لك إنني أقرؤه في عينيك . وبهذه المناسبة . أحلمك لما تعبر عنه عينك ، لأنني سرعان ما ترجمتها ! وأقسم لك إنني لست شريراً ، ولست وغداً ، ولا ينبغي أن تغلبني كذلك أو نفسي في مثل هذه الوصمة ، ولكن .. نظروف حادة انحطت في ، ولا أقول لعب في طبعي ، أصبحت مبتدل الأخلاق . وآتماً مهيناً . تردى في كل الملهذات الرخيصة التي يحاول الأغنياء والتافهون أن يدخلوها على حياتهم . هل يدهشك أن أجاهر بك بذلك ؟ .. اعلمى أنك ستجدني نفسك — في مستقبل حياتك — مختارة على الرغم منك لتكوني مستودع أسرار معارفك .. سيجد الناس بالغريزة — كما وجدت أنا — أن ميزتك ليست في الحديث عن نفسك ، وإنما في الإنصات عندما يتحدث الآخرون عن أنفسهم ، ويهشعرون

كذلك أنك لا تصغيين إليهم وفي نفسك احتضار وسخط على تركهم وطيبتهم ، وإنما بعطف غريزي يسرى ويشجع ، لأنه خال من التطفل !

— وكيف تعرف ؟ وكيف تستفتح هذا كله يامسدي ؟

— أعرف ذلك جيداً ، وعلى هذا أمضي في حرية وانطلاق .

وكأنني أدون أفكارى في مذكراتى اليومية .. قد تقولين إنه كان ينبغي أن أسيطر على الظروف .. نعم كان ينبغي أن أفعل ذلك ، ولكنك تترين أنني لم أفعل . وعندما ظلمنى القدر ، لم أوت من الحكمة ما يثبتني بارداً غير مكترث ، بل استبدى اليأس ، فرددت .. وإذا آثار المتوازي اليوم رجل أخرق « بنحته وبذاته » ، فأنى لا أكذب على نفسى زاعماً أنني خير منه ، ولكنى أضطر إلى الاعتراف بأننى وهو فى مستوى واحد ! كم كنت أود الثبات ، والله على ما أقول شهيد .. نصيحتى إليك أن تخشى تأنيب الضمير يا مس إمر . إذا سادفت ما يغرى على تنكب الطريق الصحيح ، لأن تيكيت الضمير هو سم الحياة !

— يقال إن التوبة شفاء له يا سىدى !

— إنها ليست شفاء له . ولكن قد يكون الإصلاح هو الشفاء .

ولقد كنت أقوى على الإصلاح وما زلت أقوى عليه الآن إذا ... ولكن

أية فائدة فى التفكير . وأنا مثل بالعراقيل والأعباء واللعنات ١٩ ..

وغضلاً عن ذلك ، لما كانت السعادة قد حرمت عني — دون ما سبيل

لتفادى الحرمان — فمن حق أن أنتزع السرور من الحياة ، وسوف

أناله ، مهما يكن الثمن !

— إذن فسوف تمنعنى فى الميوط إلى الحضيض يا سىدى !

— ربما ، ولكن لماذا أتحذر إلى الحضيض إذا كان فى وسعى أن أحصل على متعة حلوة حارجة ؟ .. وقد أحصل عليها فى حلوة وجدة العمل الذى يجمعه التحل من أفقر الأحرار !

— ولكنك ستلدغك . وستكون مرة المذاق يا سىدى !

.. كيف علمت ذلك وإن لم تجربها قط ؟ كم تتجلى عليك أمارات الجند والنوازل .. فى حين أنك تجهزين الأمر كل الجهل ! .. ليس لك الحق فى أن تعطينى .. أنت التى لم تتخط عبثة الحياة بعد ، ولا تعلم شيئاً عن أمرها مطلقاً !

— إبنى أذكرك بكلماتك أنت يا سىدى . فقد قلت إن الخطأ يسبب

الندم . كما قلت إن الندم وتفرغ الضمير سم الحياة !

— ومن ذا الذى يتحدث عن الخطأ الآن ؟ لا أكاد أعنفد أن

الفكرة التى ومضت فى خاطرى كانت خطأ . بل أومن بأنها وحى أكثر

منها لغراء .. ولقد كانت مريحة . وفيها عزاء ! .. وهذا هو ذى قد أنت

مرة أخرى ! إنها ليست وسوسة من الشيطان .. فإن كانت ، فلا بد

أنها تترى بمسوح الملائكة النورانية . ولذلك أرى من الواجب أن أتقبل

مثل هذه النصيحة الحسنة . إذا طلبت الدخول إلى قلبى !

— لا تنق بها يامسدي لأنها ليست (ملاكاً) حقيقة !

.. مرة أخرى .. من أين علمت بذلك ؟ وبأية غريزة تدعين أن

فى وسعت التمييز بين (ملاك) ساقط من الهوة . وبين رسول قادم من

العرش السرمدى .. بين هاد وبين مضلل ؟

— حكمت على ذلك من وجهك يا سىدى . فقد اضطرب صدى

قلت إن الفكرة قد عاودتلك ! .. وأنا أشعر شعوراً صادقاً بأنها متضاعف من تعلك وشغافتك ، إذا أنت أصغيت إليها :

— كلا .. مطلقاً ! .. إنها تحمل أعظم رسالة كريمة خيرة في العالم . أما فيما عدا ذلك فلست أراك وصية على ضميري . فلا تشغلي بالك .. ادخلي أيتها الخائفة الظريفة !

.. فاه بذلك وكأنه يخاطب رؤيا من الرؤى لا تبصرها غير عينيه . ثم عقد ذراعيه — اللتين كان قد يسطهما — على صدره . وكأنه يخضع تلك الرؤيا غير المنظورة . ثم استطرد بحدائي : .. التي استقبلت الخائفة القادمة .. الربة المنتكرة : كما أعقده اعتقاداً جازماً . ولقد أفادتني كثيراً لأن قلبي كان أشبه بمقبرة . وسيغدو الآن محرراً ! ..

— الحق يا سيدي . أنني لا أفهمك مطلقاً : فليس بوسعي أن أتعب الحديث ، لأنه انبث من أعماقي .. كل ما أدريه هو أمر واحد .. ذلك هو ما قلت من أنك لست من الطيبة بالقدر الذي كنت ترجوه . وأنت تتقدم على نقائصك . كما أنني أدركت شيئاً هاماً ، وهو أن الذاكرة المكتئبة عذاب مقيم . وبئيل إلى أنك إذا ناضلت بكل قوتك فإنك لن تلبث أن تثقين أنه من السهل أن تصبح الشخص الذي كنت تشبه أن تكونه ، وأنت لو بدأت منذ اليوم في إصلاح أمورك وأفكارك بعزيمة جبارة ، لوجدت بعد سنوات قلائل زائداً كبيراً من الذكريات الجديدة التي لا تشوبها شائبة ، بحيث يمكن أن ترجع إليها وأنت مغتبط مسرور . — تفكير عادل وقول صائب بآتية ، وإن في هذه اللحظة لأرصف

الجحيم بكل همه ونشاط !

— سيدي !

— إنني أرمي نوايا طيبة في متانة الحجر البصوان . ولا ريب في أن رفاقى وهولياقي ستصبح غير التي كانت بالأمس :

— بل خيراً منها ؟

— خيراً منها بكثير .. فسوف تكون كالذهب الخالص بالنسبة إلى المعدن الخسيس الزائف ! يبدو أنك في شك من ذلك ولكنني شخصياً لا يساورني أدنى شك . إذ أنني أعرف هدفي كما أعرف العوامل التي تدفعني إليه . وأنا في هذه اللحظة أصدر قانوناً كقوانين الميدين والفرس العادلة التي لا تتغير !

— هذا غير ممكن يا سيدي . وإلا لاحتاجت هذه القوانين إلى هيئة تشريعية جديدة تقرأها :

— نعم تحتاج إلى هيئة جديدة باسم إير « مكونة من مجموعة من الظروف لم يسمع بمثلا . تحتاج بدورها إلى قواعد لم يسمع بها كذلك ! — هذه الحكمة تبدو خطيرة يا سيدي ، لأن في وسع الإنسان أن يرى في الحال أنها عرضة لأن يساء استعمالها !

— يالك من حكيمة سديدة الرأي ! .. فلنكن كذلك ، ولكن أقسم بأرباب أسرتي ألا أسئ استعمالها !

— إنك من البشر ومعرض للزلل !

— إنني لكذلك : وأنت مثلي : فماذا تفصلين ؟

— ينبغي على البشر المعرضين لخطأ ألا يتحلوا قوة لا يؤتاها سوى تدريسهم والكاملين من البشر !

— أية قوة ؟

— قوة القول عن كل غريب غير مشروع من الأعمال . ليكن

هذا حقاً !

— « ليكن هذا حقاً » .. هذه هي الكلمات الصحيحة . لقد نطقت

بها !

— قد يكون هذا صحيحاً إذن !

ثم قلت بعد أن رأيت أن من العبث أن أعضى في حديث كنت
أعقب في ظلماته ، فضلاً عن أنني وجدت أن شخصية محدثي كانت أعمى
من أن أنفذ إلى أعوارها . أو أن أبلغ سطحها الراهن على الأقل .. كما
ساورني القلق .. ذلك الشعور المهيمن بعدم الأمان . الذي يرافقه البؤس
بالجهل !

وقال السيد : « إلى أين أنت ذاهبة ؟ » .

— سأسلم أدبل إلى فراشها . إذ فات موعد نومها .

— هل أنت خائفة مني لأتني أحدث في مخوض أبي الفراء ؟

— إن لغتك غامضة ياسيدي . ولكنني غير خائفة بحال . وإن

كنت في حيرة ؟

— بل أنت خائفة ، لأن جيلك لنفسك يحملك على الخوف من

الزلل والعثار !

— إنني أحسن بالخوف فعلاً . من هذه الناحية . ولا رغبة لدى

في حديث فارغ !

— إذا كان الخوف يساورك حقاً ، فإن رزائك وهودك لم يتخليا

عنك حتى أتني حسبتك غير خائفة ! .. ألا تضحكين أليداً يا آتسة ؟ !
لا تكلفي نفسك عناء الفرد . فإنه قل أن أراك تضحكين ، وإن كان في
وسعك دائماً أن تضحكي في مرح وابتهاج .. ثقي أنك لست عابسة
بطبيعتك . بأكثر مما أنا شرير أقيم بطبيعتي . ويبدو أن قيود (لو وود)
ما زالت تؤثر فيك إلى حد ما ، وتتحكم في معالم وجهك ، وتخافت من
صوتك ، وتشل من أطرافك ، وتجعلك تستشعرين الخوف في حضرة
رجل لك أن تعبيره أحمالك أو أبالك أو مخدومك أو من تشائين . وأنت
بسبب هذا الخوف لا تبتسمين ، ولا تتكلمين بحرية ، ولا تتحركين
بسرعة . ولكنك سوف تصبحين — في الوقت المناسب — على بيتيك
وطبيعتك معي . وعندئذ سوف تكتسب نظراتك وحركاتك حياة
لا جرئين الآن على إظهارها . إذ أنتي الملح في عينيك بين الفينة والأخرى
نظرة حائر من نوع غريب . حبيس خلف قضبان ، كأسير دائب
القلق ولكنه ثابت العزم . فلو أطلق سراحه لانطلق يخلق في كهيد السماء .
أما زلت مصرة على الانصراف ؟

— لقد دقت الساعة التاسعة ياسيدي .

— لا يهم .. انتظري لحظة فإن أدبل لم تنهياً بعد فلهذهاب إلى فراشها .
إن وقتي يا آتسة إير . وظهري إلى الموقد . ووجهي إلى الحجرة ،
ساعدتي على ملاحظة الكثير . فقيا كنت أحدث إليك ، أتيجت في
الفرصة لمراقبة أدبل — فإن لدى أسباباً خاصة تدعوني إلى اعتبارها مادة
عجيبة لدراسة — أسباباً ربما ، بل سوف أفضي بها إليك يوماً ما — فأتيناها
تخرج من صندوقها ثوباً قرقانياً صغيراً . ما أن سقطته أمامها حتى أشرقت

وجهها حوراً ، لأن (الغندرة) تحرى في دماءها وتمتزع بعقلها وتقبل نخاع عظامها .. وقد سمعنا تهتف : « يجب أن أجربه .. في هذه المخيلة ! » . ثم اندفعت تغادر الحجرة . وهي الآن مع صوفى - مربيها الفرنسية - ترتدى الثوب ، وسوف تعود بعد دقائق .. وإلى لأعرف ما سوف أرى .. صورة مصغرة من الممثلة (سيلين فارنس) - وهي على خشبة المسرح .. ولكن لا داعي لهذا الآن : فإن مشاعرى المرحمة توشك أن تصاب بصدمة .. هذا ما أتناهى به ، فانتظري لئلا ترى حل تتحقق هذه النبوءة !

وبعد قليل . سمع وقع قدمي أدبل وهي تخطو برشاقة في الردهة . ثم دخلت وقد تحولت إلى الصورة التي تأبأ بها الوصى عليها ، إذ كانت ترتدى ثوباً من الحرير الوردى اللون ، متفحاً عند (الجولقة) - بدل الثوب الرمادى الذى كانت ترتديه من قبل - وقد وضعت حول جبينها إكليلاً من أكمام الورد ، بينما لبست في قدميها جوربين من الحرير . وصندلين صغيرين أبيضين من الحرير نفسه !

وصاحت بالفرنسية : « وهى تنب إلى الأمام : هل ثوب جميل ؟ وحذاء ؟ وجوربي ؟ انتبها لأننى سوف أرقص ! » .

ثم بسطت ثوبها وراحت ترقص عبر الحجرة . إلى أن وصلت إلى مستر روشستر ، فدارت أمامه على أطراف أصابع قدميها في خفة ورشاقة ، ثم ركعت على ركبة واحدة وهتفت : « أشكرك ألف مرة ياسيدى على طيبتك ! » .. ثم نهضت وأردفت تقول : « هكذا كانت تفعل ماما . أليس كذلك ياسيدى ؟ » .

فكان الرد : « تماماً .. هكذا ! لقد فتنتنى وجعلتنى أنفق عليها بغير حساب . إذ كنت غرض الإهاب : فحضر العود يامس إير ، لا ينعشك من الشباب الآن أكثر مما كان ينعشنى إذ ذاك . ولكن ربى قد وئى .. وإن خلفت في هذه الزهرة الفرنسية الصغيرة . التى أعنى أحياناً أن أخلص منها . ولما كنت الآن لا أقدر (الجذر) الذى نبتت منه بعد أن اكتشفت أنه من النوع الذى لا ينمو إلا بسبب من ذهب ، فلأننى لا أميل إليها كل الليل . لاسيما عندما تظهر بمظهر مصطنع متكلف كما ظهرت الآن .. إننى أؤبها وأرهبها تطبيقاً للمبدأ الرومانى الكاثوليكي الذى يقضى بالانكثير عن الخطايا العديدة كبرها وصغيرها ، بعمل واحد مجيد .. وسوف أشرح لك ذلك يوماً ما .. طابت ليلتك ! » .



الفصل الخامس عشر

● وبالفعل . شرح لى مستر روشستر الأمر في فرصة ثالثة .. في عصر يوم قابلنى فيه مصادفة مع أدبل في الحقل . وفيما كانت الصغيرة تلعب مع (بايلوت) وبإحدى لعبها . طلب لى أن تزرع طريقاً تظله أشجار الزان على مشهد من الفتاة . ثم أخبرنى أن أدبل ابنة راقصة الأوبرا الفرنسية (سيلين فارنس) . التى أحبها يوماً ما حباً جارفاً ، قابلته هى - حسب اعتراف الراقصة له - بحب أشد عنفاً ، حتى خيل إليه برغم دمايته أنه معبودها ، اعتقاداً منه بأنها كانت تؤثر قوامه الرياضى عنى جمال ورشاقة (أبوللو بلقيدير) ! .. ومضى يقول :

- ولقد ازدعواى وخدعنى . يامس إير .. هذا الإنكار من الغاية

ابنة بلاد (الغال) - للمسخ البريطاني ، فأزلفتها في أحد الفنادق ، وزودتها بخاشية كاملة من الخدم ، وبهرية ، وأتواب من الكشمير ، وماسات ، ودانتلا .. وغير ذلك . وقصاري القول : بدأت عملية إفلاس نفسي ككل متره غني ! .. ويبدو أنني لم أوت من ملكة الابتكار ما يمكنني من أن أختط لنفسي طريقاً جديداً إلى الخزي والخراب ، وإنما صدكت الطريق القديم بحدّة حفاء ، جعلتني لا أحميد قيد أمانة عن مجراه ! .. ولذلك حتى على أن ألاق مصير أولئك المدمنين الحمقى ! فقد اتفق أن زرت (ميلير) ذات مساء .. ولم تكن تتوقع قدومي .. فرجعتها في الخارج .. ولكن الأسمية كانت حارة . وكنت متعباً من التجول في أنحاء باريس . فجلست في حديقة سيدياً بأن أملاً رثي بالهواء الذي اكتسب قداسة لأنه خفف بها .. خلا .. لاني أبالغ . لأنني لم أر فيها قط أية فضيلة مقدسة .. غني أنها تركت في مخدعها رائحة من روائح (الباستيليا) تشبه المسك والبنبر أكثر مما تشبه رائحة القداسة . وبدأت أشعر ولكنك لن تلبث أن تنلق القداسة التي توقفتها ! .. أفحسبت النافذة ، وأن أخرج إلى الشرفة . وكان غمر ومصابيح الشارع ترسل أشعتها ، والسكون والهدوء يخجان . أما كانت الشرفة مؤلفة بمقعد أو اثنين فجلست وأخرجت سيجاراً ... وسأناول الآن واحداً إذا سمحت !

وتوقفت بعد ذلك فترة شغل فيها بإخراج سيجار وإشعاله ، حتى إذا وضعه بين شفتي ونفث سحابة من دخان (المافانا) الشدي في الهواء الشجود الذي زائله الشمس . استمرسل يقول : « كنت أحب الحلوى كذلك في تلك الأيام بدمس إير . فرحنت ألتذني وأغفرني إلى هذا



وفيما كانت الصغيرة تلعب مع (بابلوت) وباحدي لعبها ، طلب إلى أن تزوع طريقاً تنظله أشجار الزان على مشهد من الفتاة

التعبير السخيف - بالتهام قطع الشيكولاتة تارة . وبالتدخين تارة أخرى .
وأنا أراقب في الوقت نفسه المارة في الشوارع الحديثة الطراز . وهم
يتجهون نحو دار الأوبرا ، إلى أن شاهدت عربية أليفة مغلقة يجرها
جوادان إنجليزيان جميلان . واستطعت - في أضواء المدينة المشرقة -
أن أثبت أنها العربية المظلمة التي أعطينا لسانين . إذن فقد كانت عاتدة !
وبالطبع خفت قلبي نافذ الصبر وأنا خلف القضبان الحديدية التي أعتمد
عليها . وتوقفت العربية كما كنت أتوقع عند باب الفندق . ثم هبطت
شعالي - وهو الاسم الذي يلائم جيتتي راقصة الأوبرا - وعلى الرغم
من أنها كانت تخفى تحت معطفها . وهو حل باهظ لم تكن له ضرورة في
أمسية حارة كهذه من أمسيات شهر يونيو . فقد عرقها في الحال من
قدمها الصغيرة التي أحلت من أهداب ثوبها وهي تضعها على سلم العربية .
وانحنيت على الشرفة لأغشم : (يا ملاكي !) . بصوت لا تسمعه سوى
أذن الحب وحده . وعندئذ وثب شخص خامها من العربية وقد تذر
هو الآخر بمعطف . ولجلجل كعبه المهموز على الإزير . ثم مر بقلبعته
تحت قوس باب الفندق .

« هل شعرت بالغيرة مرة في حياتك يا مرس إر ؟ كلا بالطبع !
ولا حاجة لي إلى سؤالا لأنك لم تشعرى بالحب قط . ولكنك سوف
تجربين الاثنين فيما بعد .. إن روحك تعط في النوم . ولكنك لن تنبئي
أن تلقى الصدمة التي توقظها .. ! أفحسبت أن توجد كله ينحني في
مجرى هادئ كالمجرى الذي يسير فيه شبابك ؟ ! »
فيما ظلمت طافية
بعينين مغلفتين وأذنين مصمومتين . فلن ترى الصخور القابعة غير

بعد عنك في أغبري . ولن تسمعي الأمواج وهي ترغى وتزبد عند
سفوحها . ولكني أقول لك - وأصغى إلى ما أقول - إنك ستصليين إلى
مضيق صخري سوف ينقطع عنده أسرسل مجرى الحياة كله ، ليتحول
إلى دوامة وصخب وزبد وخصوصاء ، وعندئذ إما أن تنفتق إلى ذوات
فوق الصخور : أو ترفعك إحدى الموجات وتعدلك إلى تيار أهدأ كما هو
الحال معي الآن ! .

« إنني أحب يومى هذا .. وأحب هذه السماء الصلبة وأحب من
الدنيا عبوسها وهندوها تحت هذا الصقيع .. وأحب قصر (ثورنفلد)
بأنواره العتيقة وعزلته الموحشة . وأشجاره القديمة المليئة بالأشواك »
وبواجهته الحالكة . ونوافذه المظلمة التي تعكس غيوم السماء .. ومع
ذلك فكم كرهت - زمناً طويلاً - مجرد التفكير فيه . وفمرت منه
فرارى من منزل موبوء بالطاعون ؟ ولم مازلت أمقت .. »

وصرف على أستانه . ثم انحلد إلى الصمت . وتوقف عن السير
ليضرب الأرض بقدميه . كما لو كانت قد استبدت به فكرة بغیضة ،
فقيده إلى مكانه بحيث لم يقو على الحراك خطوة أخرى . وكان توقفه
هذا .. ونحن نرى الضرب . أمام القصر . فرفع عينيه إلى شرفاته العالية
ورمقها بنظرة لم أر مثلاً لها من قبل .. نظرة زاحرة بالألم ، والغزى ،
والخفق ، وفناء الصبر . والتقرؤ . والكراهية التي كانت تصطرع في
إنسان عينه الكبير المنبسّ تحت حاجبه الغزير . وكان الاصطراع
رحياً بالغا ، ولكن شعوراً آخر ما لبث أن تولد وتغلب ... شعوراً
كان يتم عن صلابة وحزم وإرادة ، فاستقر باله وحدأبت نفسه الفائرة.

وتبدلت أسارير وجهه ، ثم استرسل يقول : « إنما نلت يا نعمت في تلك اللحظة لأنني كنت أسوي أموري مع مصيري .. فقد تراءى لي هناك طيف : كإحدى تلك الجنيات الساحرة اللاتي ظهروا لما كنت في مروج (فوريس) ، وقالت وهي ترفع إصبعها : « أتعب ثورنقليد ؟ » ثم كتبت في الهواء على واجهة القصر ، بين صفي النوافذ الأعلى والأدنى : بخط هيروغليفي : « أسحبها إذا استطعت ! أسحبها إذا جرؤت ! » . فقلت : « أسحبها ، وإني لأجرؤ على حبها ! .. واسوف أبر بوعدي ، فأحطم العقبات التي تعترض سبيلي إلى السعادة والخير .. أحل .. الخير ! .. لأنني أود أن أكون خيراً مما كنت وما أنا عليه الآن .. سافعل ما فعله حوت (أيوب) إذ حطم الحربة والنبله والمزراق .. كل هذه الأسلحة التي يعتبرها الآخرون حديداً ونحاساً ، سأعتبرها قشاً وخشباً بالياً منخوراً » (١) .

وأقبلت إذ ذاك (أديل) تجري أمامه بلعياً : فصاح في خشونة : « ابتعدى ! .. اجري بعيداً أبنتا الطفلة . أو ادخبي إلى صوفي في داخل القصر .. » ثم استأنف سيره في صمت . وما لبثت أن تجاوزت على أن أذكره باللقطة التي انقطع الحديث عندها فجأة . إذ قلت : « وهي غادرت الشرفة يا سيدي عندما دخلت الآتسة فارنس » :

(١) جاء في التوراة وصف للويثان .. أو حوت أيوب - بأن « في عنقه تبيت القوة ، وقلبه صلب كالصخر وقاس كالرجم » ، عند نهوضه تنزع الأقوياء .. سيف الذي لا يلحقه لا يقوم ولا رمح ولا مزراق ولا درع ! (أي أنه أقوى من كل هذه الأسلحة !) .

وكنت أتوقع منه أن يصدم شعوري بعد هذا السؤال الذي كان لا يناسب الموقف في تلك اللحظة ، ولكنه - على العكس - انتبه من ذهوله العايس ، واتجه نحوى بعينه ، ثم قال : « آه ! لقد نسيت سيلين : حسناً استأنف الحديث : عندما وجدت فانتني تدخل الفندق ، وفي رفقنا ذلك الفارس . غيل إلى أنني أسمع فجيحاً ، ثم رأيت حية الغيرة الخضراء على ضوء القمر وقد رفعت رأسها في الشرفة ، ثم نزلت تحت سترتي . وباندرت تنفس سورداً قنني . يا للعجب ! » .

وقطع الحديث مبدئياً تعجبه ، ثم عاد يستأنف موضوعه قائلاً : « يا للعجب ! .. كيف اخترت لك من دون الناس جميعاً لأفضي إليك بكل هذه الأسرار ؟ .. وأعجب من هذا أن تصغي إلي في هدوء . وكأنه أمر عادي لديك أن يروي رجل مثلي قصص ممثلات الأوبرا لفئة غريبة عديمة التجارب مثلك ! ولكن الغرابة الأخيرة تفسر الأولى . فلذلك - كما قلت لك من قبل - إنما خلقت بهذه الجاذبية والرسالة والحار لتكوني مستمعة للأسرار . هذا فضلاً عن أنني أعرف أي نوع من العقول أربطه بعقلي » إنه نوع لا يمكن أن تنتقل إليه العدوى لأنه شاذ فريد في نوعه ، كما أنني - لحسن الحظ - لا أرى إلى إيدائه .. بل إنني لو فعلت فلن يصيبه عنى الأدنى . ومن ثم فكلما تحدثت كان ذلك أفضل ، إذ سيكون في وسعك أن تسري عني ، ما دمت لا أملك لك ضراً » .

وعاد يستأنف الموضوع الأصلي : بعد أن حاد عنه : فقال : « بقيت في الشرفة حتى يدخلنا مخدمهما كما حدثت : وفكرت في أن أكن لها ، ومن ثم مدت يدي من النافذة المفتوحة ، فجلبت الستارة

الجميل) .. أنا ! وحى في هذا تختلف كل الاختلاف عنك أنت التي صارحتي في المقابلة الثانية بأنك لا ترييني جيلا . ولقد أذهلني الفارق وقتذاك و ... »

■ وجاءت أديل تجرى مرة أخرى لتقول : « لقد جاء جون يا سيدي ليخبرك بأن وكيلك قدم ويرغب في مقابلتك » :

— آه .. في هذه الحالة ، يجب أن أوجز : فتحت الباب ودميتها وحررت (سيلين) من رعايتي وحمايتي ، ثم أنذرتها بمغادرة الفندق ، وقدمت لها كيساً مليئاً بالنقود لنفقاتها العاجلة « غير حافل بموئلتها ، ونوباتها المسيرة . وتوسلاتها واحتجاجاتها وانقضاضاتها .. ثم تحدثت مع (الفيكونت) موعداً في غابة (بولونيا) . وفي الصباح التالي حظيت بمنازلته ، ثم غادرته برصاصة في إحدى ذراعيه القاصرتين الضعيفتين خضعف جناح النوروج (الكتكوت) عند نفسه ، طائراً أنني قد انتهت من الاثنين . ولكن .. شدة ما كان أسنى ، إذ كانت سيلين قد جاءتني بهذه الصغيرة « أديل » قبل الحادث بستة أشهر . مؤكدة أنها ابنتي .. ونعلها كذلك . وإن كنت لا أجد على محياها أية قرينة تتم عن أبوي لها .. بل إن كتي (بابلوت) يشبهني أكثر منها ! .. وبعد انقضاء سنوات على انتفاع صاتي بالأم ، هجرت المرأة طفلتها وهربت إلى إيطاليا مع موسيق أو مطرب . ولم أكن أعترف بأى حق طبيعي لأديل يلزمي بالإلتحاق عليها . لأنني لست والدتها . بيد أنني سمعت بأن الطفلة مهملة إهملاً تاماً ، فانتشلتها من أو حان باريس ، ونقلتها إلى هنا

عليها تاركاً فتحة أستطيع المراقبة منها « ثم أغلقت النافذة كلها . عدا ثغرة تسمح لأن تنفذ منها وعود العاشقين وعهودها الخامسة : ثم عدت متسللاً إلى مقعدي في الشرفة . وإذا بالاثنتين بدخلان الخدج : وسرعان ما كانت عيناي على الفتحة . ودخلت وصيفة سيلين فأشعلت المصباح ووضعتها على المنضدة ، ثم انسحبت .. ورأيت العاشقين أمامي يوضح وقد أخذ كل منهما يخلع معطفه . وظهرت سيلين متألقة في ثوبها الحريري اللامع ومجوهراتها التي كانت من هداياي بالطبع . كما ظهر رفيقها في بزة ضابط ، فعرفت فيه (فيكونت) شاباً . طائشاً . فاسداً ، كنت ألقي به أحياناً في المجتمعات .. ولم أفكر قط في أن أكرمه . لأنني استقرته احتقاراً بالغا . فما أن تبينت شخصيته حتى تكسرت أنياب الغيرة . لأن نار حبي لسيلين انطلقت في الحال . إذ أن المرأة التي أقدمت على خيانتني من أجل منافس كهذا . لم تكن أهلاً لأذى نصال في سبيلها . ولم تكن تستحق سوى الاحتقار . لاسيما من رجل مثل « كان غريراً سهل الانخداع !

« وأخذنا يتحادثان « فخفف حديثهما من انفعالي وثورتي إلى حد كبير : لأنه كان حديثاً طائشاً . مصطنعاً . جامداً . مجرداً من العواطف « بيعث الملل في السامع أكثر مما يثير حنقه . وكانت على المنضدة بطاقة باسمي ، فلما وقع نظرها عليها تحول حديثهما إلى ، فجعلنا يسبان بأفحش ما في وسعهما . على طريقتهم الرخيصة . لاسيما سيلين التي راحت تعدد عيوبني الخاصة : أو (عاهاتي) كما أسمتها ! .. مع أنها كانت — عادة — تتحدث بخلسة شديدة عن تسميه (رجلها)

لترعرع نظيفة في تربة حديقة إنجليزية بالريف . وقد اهدت إليـك
مسز فيرفاكس لتعليمها . ومن المحتمل بعد أن عرفت الآن أنها ابنة
غير شرعية لراقصة فرنسية ، أن ترى رأياً آخر في وظيفتك والطفلة
التي تحت رعايتك . وقد تجيئين يوماً ما لتدريين بأنك وجدت مكاناً
آخر وتطلين إلى أن أبحث عن معلمة أخرى .. أليس كذلك ؟

... كلا .. إن أدبل غير مسئولة عن أخطاء أمها أو أخطائك .
وأنا أعزها .. بل إنني بعد أن عرفت الآن أنها عديمة الأبوين ، متبودة
من أمها ، وغير معترف بها منك ياسيدي ، سأزدد تشبهاً بها عن ذي
قبل . وكيف يمكن أن أفضل فتاة مدللة من أسرة غنية قد تكره معلمتها
كراهيتها لشيء مزعج مقلق لراحة . على يتيمة صغيرة وحيدة يمكن
الاطمئنان إلى صداقتها ؟!

— أهذا هو الضوء الذي تنظرين فيه إلى الأمر ؟ حسن ، يجب
أن أذهب الآن ، وأنت أيضاً ، لأن الظلام يهبط :

ولكنني مكثت بضع دقائق أخرى مع (أدبل) و (بايلوت) .
وجريت مع الصبية تنساق ، ثم لعبنا بالكرة والمضرب . ولما دخلنا ،
خلعت عنها قبعها ومعلفها ، ثم أجلسنا على ركبتى . وتركها ساعة
تثرثر كما شاءت ، دون أن أحاول ردعها ، بل دون أن أفكر في
تأنيبها على بعض المفوات الانتاهية التي كانت ترتكيبها عندما تشعر بأن
ثمة من يخاصي عليها تصرفاتها ، والتي كانت تكشف عن سطحية في
سلوكها ، لعلها ورثتها عن أمها .. فلقد كانت لها — برغم ذلك —
فضائل ، وكنت ميالة إلى أن أقدر فيها كل ما هو طيب إلى أقصى

حد . ورحت أتفرس في حياها وملاحظها ، بحثاً عن شبه يقربها من
مستر روشستر ، ولكنني لم أفر بظائل ، إذ لم أجدها يؤكد الصلة
بينهما ، ومن ثم أسفت للفتاة التي كانت خليفة بأن تلقى منه مزيداً من
العناية لو ثبت أى شبه بينها وبينه !

* * *

■ ولم يتح لي استعراض القصة التي رواها لي مستر روشستر إلا حين
أويت إلى غرفتي الخاصة في الليل . وكما قال هو ، كان من المحتمل أن
مادة القصة لم نحو — في حد ذاتها — شيئاً غير عادي : فإن هيام رجل
إنجليزي موسم براقصة فرنسية ، وخيانتها له ، كانا مما يحدث في المجتمع
كل يوم ولا ريب . بيد أنه كان ثمة شيء عجيب — بكل تأكيد —
في نوبة الانفعال التي تملكته وهو يعبر عن رضائه الحالّي بطباعه ، وعن
سروره المتجدد حديثاً بالفقر القديم وما حوله . ومضيت أقامل طويلاً
هذه الحال ، ولكنني أقلعت تدريجاً عن التفكير فيها ، بعد أن وجدته
لا أستطيع فهمها في الوقت الحاضر . ثم تحولت إلى التفكير في مسلكه
الشخصي معي .. في الثقة التي وجدني أهلاً لأن يضعها في ، تقديرأ منه
لخصاقي وفطنتي ، والتي ثقلتها — من ناحيتي — على هذا الاعتبار !
كان مسلكه نحوي منذ أسابيع ، أكثر اتساقاً من ذي قبل . ولم
أكن أحاول أن أعترض طريقه قط ، ولكنه كان إذا لقيني مصادفة
يرحب بي ويتبادل معي بعض العبارات . وكان أحياناً يبتسم لي . وإذا
دعاني رسمياً إلى حضرته ، كان يؤثرني باستقبال ودي يبعث في نفسي
للشعور بأن في القوة حقاً على تسليته ، وأنني أعاد

المسافة لإدخال السرور على نفسه . كما كنت أنا أنشدتها لأقيد منها !
فقد كنت - في الحقيقة - أقل من حديثي نسبياً لأنصت إليه ، وهو
يتحدث كيفما يشاء . وكان بطبيعته محدثاً ليقاً . محباً لأن يفتح أذهان من
يجهلون العالم لتلقى ومضات من مآظفه وحضائمه .. ولست أعنى مآظفه
الفاسدة ومطرافه الخبيثة . وإنما أقصد تلك التي تشق طرقها من
جذتها وذروعها . وكنت شديدة الاغتراب باستقبال الآراء الجديدة
التي كان يقدمها . وبتخيل الصور الجديدة التي رسمها ، وبتتبعه إلى
المناطق الجديدة التي يكشف عنها الستار دون أن يروعي أو يزعجني
بإطاعة تضاميتي أو تؤذي مشاعري .. ولقد حورتني بساطة أخلاقه
من قيود التحفظ الأليم . كما جذبتني إليه صراحته الودود . المستقيمة
الخالصة ، التي أخذ يعاملني بها ، حتى كان يخيل إليّ أحياناً أنه قربي
كثير منه غدومي .. على أنه ظل يورغ ذلك يستبد في بعض الأحيان
برأيه في حجة أمرة . ولكني لم أكن أهتم لذلك ، إذ أدركت طيباعه
وطريقته . ولقد بلغ من شعوري بالسعادة والامتنان بهذا اللون الجديد
من ألوان الاهتمام في حياتي ، أن كنت عن الحنين إلى أن يكون لي
أقارب ، وبدا لي أن مصيري الذي كان كالهلال الصغير أخذ يكبر
وينمو ، وأن الفترات التي كانت في كبائي قد امتلأت ، وأن محتي
نحسنت ، وأني ازدددت قوة وبداية !

أتراني كنت بعد ذلك أرى مستر روشستر دميماً ! كلا أيها
القارئ ، فإن الاعتراف بالجميل وبالعديد من خصاله .. وكلها كانت
تبعث على السرور والإيناس - جعل وجهه أحب شيء أرغب في

رؤيته ، كما كان لوجوده في أي غرفة إشراق يفوق أكثر النيران
تألقاً ! .. ولكني - في الواقع - لم أنس أخطئه - ولم يكن في وسعي
نسيانها . لأنه كان يذكرها دائماً أمامي . إذ كان متعالياً ، ساخراً ،
قاسماً على من هم دونه ، وكنت أعرف في طوايا نفسي أن عطفه على
تقايله شدة جائزة على كثيرين آخرين . ثم إنه كان دائب الهم والاكنتاب
إلى درجة كبيرة .. وكنت أجد - عندما يرسل في طلبه لأقرب له -
جالساً في مكتبه بمفرده ، ورأسه معتمد على ذراعيه الملعوتين . فإذا
رفع رأسه ، رأيت عبوساً مكثفاً ، بل خيفاً ، يظلم أساريره ! ولكني
كنت أعتقد أن همه وحرامته وذنوبه الخلفية السابقة - وأقول السابقة
إذ بدا أنه أصلح من شأنها - إنما نشأت من إحدى صدمات القدر
القاسية .. وكنت أعتقد أنه بسايقته رجل ذو ميول طيبة ، ومبادئ
سامية . وأذواق صافية . تفوق ما نمت في نفسه الفلروف ، وما بشه
فيه التعليم . وشجعه عليه القدر .. بل كنت أعتقد كذلك أن فيه
خامات طيبة وإن بدت إذ ذاك مضطربة معقدة . ولا سبيل إلى أن
أنكر أنني كنت أحزن لما يحزنه مهما يكن ، ولا أضن بالكثير من
أجل التخفيف عنه !

■ وبالرغم من أنني أطفأت الشمعة ورفدت في الفراش ، إلا أنني
لم أستطع النوم ، إذ رحلت أفكر في نظرتي عندما توقفت في الطريق ،
وأخبرتني كيف تمثل له مصيره شبحاً منتصباً وأغصاه على أن يكون
سعيداً في (ثورنفلد) . وتساءلت :

.. لم لا ؟! ما الذى يبعده عن المنزل ؟. وهل سيغادره مرة أخرى عن قريب ؟.. لقد أخبرتني مسز فيرفاكس أنه قل أن أقام هنا أكثر من أسبوعين كاملين . وها هو ذا الآن قد مكث ثمانية أسابيع ، فلو رحل لكان هذا التحول باعثاً على الحزن والغم !.. ولنفرض أنه تغيب طوال الربيع والصيف والخريف ، فكيف سيبدو أشعة الشمس مقبضة الأيام فارغة ، إذ ذاك ؟

ولست أدري هل استسلمت للنوم . أو أنني ظلت مسيقظة بعد هذه الخواطر .. وإنما الذى أدريه هو أنني انتبهت مفزوعة على صوت همهمة غامضة شاذة . كئيبة .. خلطها تبعث من الحجرة التى تقع فوق حجرتي مباشرة . فتسببت لى أنني كنت قد تركت الشمعة موقدة لأن الليلة كانت رهيبة الظلام ، ولأن روحى المعنوية كانت مثقلة . واستويت جالسة فى فراشى . أرهف السمع ، ولكن الصوت كان قد سكت . وحاولت أن أنام من جديد ، ولكن قلبى راح يخفق قلقاً : كانت طمأنينتي قد تبددت . ودقت الساعة التى فى الطرف الأقصى من البهو معلنة الثانية .. وفى تلك اللحظة ، خيل لى أن شيئاً مس باب غرفتي . وكأن أصابع قد احتكت بألواحها وهى تتحسس طريقها فى الردهة المظلمة .. وقلت : « من هناك ؟ » .. ولكنى لم أتلق رداً ، فسرت فى كيانى برودة الخوف .. ثم تذكرت فى الحال أن الذى مر بغرفتي ربما كان (بابلوت) الذى كان كثيراً ما يتخذ سبيله إلى عتبة غرفة مستر روشستر ، إذا قدر لباب المطبخ أن يترك مفتوحاً ، وقد رأيته بنفسى راقداً هناك فى أكثر من صباح !.. وهدأت نفسى لهذا

الخاطر حوثاً ما ، فرقدت من جديد . وأخذت الصمت يهدئ أعصابى ، ولما كان السكون الشامل يفضي البيت كله ، فقد بدأت أشعر بالنعاس يعاودنى . بيد أنه لم يكن مقدوراً لى أن أنام فى تلك الليلة ، فما كاد أحد الأحلام يرادنى . حتى ولى مذعوراً وقد أفرعه حادث جمده له النخاع فى عظامى !

وكان الحادث فى هذه المرة ضحكة شيطانية خافتة ، مكبوتة ، عجيبة ، خيل لى أنها انبعثت فى ثقب مفتاح باب غرفتي بالذات .. وكان رأس سريري قريباً من الباب ، فخيل لى فى أول الأمر أن الضحكة الشيطانية قد وقفت بجانب سريري . أو بالأحرى ربضت عند وسادتي . فنهضت وجعلت أتلغف حولي ، ولكنى لم أر شيئاً . وفيما كنت أهلك . عادت الضحكة غير الطبيعية ، وأدركت أنها جاءت من خلف الألواح الزجاجية . وكان أول ما فكرت فيه أن أنهض وأحكم رتاج الباب . ولكن الخاطر الثانى أهاب بى أن أصيح : « من هناك ؟ » .

... كان هنالك شيء يغور ويثني !.. وبعد قليل سمعت خطوات تبعد فى الردهة إلى سلم الطابق الثالث . وكان قد أقيم أخيراً باب يمنع الوصول إلى ذلك السلم . فسمعت هذا الباب يفتح ويغلق ، ثم ران السكون .. فقلت فى نفسى : « أكانت هذه جريس بول ؟ وهل يملكها الشيطان ؟ » .. وصار من المستحيل أن أظل منفردة بنفسى بعد هذا ، بل يجب أن أذهب إلى مسز فيرفاكس ، فبادرت أرتدى معطى وشانئ ، ثم سميت المزلج وفتحت الباب بيدى مهددة . وكانت

بالهوى شمعة تشتعل ، خارج الباب مباشرة ، وعلى اليسار ، فدهشت للأمر . ولكن دهشتي كانت أشد عندما رأيت الجو مليداً وكأنه امتلأ بالدخان ! .. وفيما كنت أتطلع إلى اليمن وإلى اليسار ، لأتبين مصدر هذه الجداول الزرقاء من الدخان ، فظنت إلى رائحة احتراق قوية .

ثم سمعت صوت صرير ينبعث من باب موارب .. هو باب حجرة مسر ووشستر .. وثبتت أن الدخان كان يندفع منه أشبه بسحابة كثيفة ، فلم أعد أفكر في مسر فبرغاكسي أو في جريس بول أو في الضحكة . وفي لحظة واحدة كنت بدخول الغرفة . فإذا بالثوب اللهب تندلع حول الفراش ، والستائر تشتعل .. وفي وسط اللهب والدخان ، كان مسر ووشستر مستغرقاً في النوم لا يتحرك ولا يرم ! فصحت وأنا أهزه : « أفاق ! .. استيقظ ! » .. لكنه لم يفعل أكثر من أن قلب ونعغم ، فقد ذهب الدخان بوعيه وسببه رشده .. ولم تكن هناك لحظة يمكن لإصاعتها ، إذ أن أغشية السرير نفسه كانت قد اشتعلت . فاندفعت إلى الخوض والإبريق .. ولحسن الحظ كان أحدهما واسماً والآخر عميقاً ، كما كان كلاهما مملوءاً بالماء .. فحملتهما عالياً وأغرقت الفراش ومن فيه . ثم أسرع إلى حجري فجننت بإبريق وأغرقت الفراش من جديد . ووقفت بعون الله إلى إخماد النار التي كانت تلتهمه .

وأخيراً ، أفاق مسر ووشستر على أزيز النار وهي تنطق بعمل الماء ، وعلى صوت تحطيم الإبريق الذي طوخته من يدي بعد أن أفرغته ، وعلى رذاذ الماء الذي صبته عليه متعمداً . قبل كل شيء :



ولم تكن هناك لحظة يمكن لإصاعتها ، إذ أن أغشية السرير نفسه كانت قد اشتعلت

وأدركت برغم الظلام أنه قد استيقظ « لأنني سمعته يهتز بألوان عجيبة من اللعنات ، عندما وجد نفسه راقداً في بركة من المياه . ثم صاح : « هل ثمة فيضان ؟ » : فأجبت : « كلا يا سيدي ، ولكن كان ثمة حريق . قم فقد غرقت وسأتيك بشمعة » :

— بحق شياطين البلاد المسيحية كلها ، هل هذه (جين إير) ؟ ماذا فعلت في آيتا الساحرة العرافة ؟ من بالحجارة غيروك ؟ هل تأمرت على إغراقى ؟

— سأتيك بشمعة يا سيدي ، فأستحلفك بالله أن تقوم إذ نبر لك بعضهم شيئاً ، وليس في وسعك أن تكشف في الحال عن هو المذبح وما الذي دبره !

— ها قد قت الآن ، ولكنك تخاطرين بإحضار الشمعة . انظري دقيقتين حتى أجد ثياباً جافة إذا كان قد بقي شيء جاف .. أجل ، ها هو ذا ثوب الغرفة (الروب دي شامبر) .. اجري إذن !

وهرعت وجشت بالشمعة التي كانت ما تزال في الردهة ، فتناوفا من يدي ثم راح يتأمل الفراش الذي اسود واحترق ، وإلى الملامات المبتهلة ، والبساط السابح في المياه .. وسألني : « ما هذا ؟ ومن فعله ؟ » : فرويت له في إيجاز ما جرى : الضحكة العجيبة التي سمعتها في اليهو : وقع الأقدام الصاعدة إلى الطابق الثالث .. الدخان ورائحة النار التي قادنتني إلى حجرته .. أية حالة كانت الأمور عليها هنالك وكيف أغرقته بكل ما وقع بين يدي من مياه .. وكان يصني إلى في اهتمام ورزاقه ، وكلما أوغلت في حديثي تجلي على وجهه من آيات القلق فوق ما كان

عليه من أمارات الدهش . ولم يتكلم على الفور بمجرد أن انتهيت من روايتي . فسألته : « هل أستاذي مسز فيرفاكس ؟ » .

— مسز فيرفاكس ؟ كلا .. لماذا بالله تستدعيها ؟ ما الذي في وسعها أن تفعله ؟ .. لا تمكثي صفو نومها !

— إذن سأجيء بالخادمة (لياه) وأوقظ جون وزوجته .

— كلا مطلقاً .. بل التزمي الهدوء ! .. أراك تتلفعين بشال ، فإذا كان لا يدفئك جيداً فخذى عباءتي التي هناك وتدثري بها ثم اجلسي على المقعد ذي المسندين . والآن ضعي قدميك على الكرسي للصنوبر لتبعديهما عن الليل . سوف أتركك بضع دقائق ، وسأخذ معي الشمعة . فابقي حيث أنت إلى أن أعود . والتزمي سكوت القفران ، إذ لابد لي من أن أزور الطابق الثالث .. وتذكرى أن عليك ألا تتحركي أو تستدعي أحداً !

ودخلت . فظلمت أرقب النور وهو يتعده معه . واجتاز الردهة في خفتي خفيفة للغاية ، ثم فتح باب السلم بأدنى جلبة مستطاعة وأغلقه خلفه قبل أن تخفى آخر أشعة للشمعة .. وهكذا تركني في ظلام دامس . وأرهقت السمع فلم تنهأ إلى أدنى أية ضوضاء . وانقضى وقت طويل .. وما لبث السأم أن غلكني ، وشعرت بالبرد برغم العباءة .. وأخيراً ، لم أجد أية قائدة في الانتظار ما دمت لن أوقظ أحداً من أهل المنزل . وهممت بأن أتعرض لغضب مستر روشستر — إذ يعود فيجندني قد عصيت أوامره — ولكنني ما لبثت أن سمعت قدميه تلوسان بساط الردهة ، فقلت في نفسي : « أرجو أن يكون علي ، وليس شيئاً »

أسوأ؟ .. وأقبل هو - فعلاً - شاحب الوجه ، يادى الاكتاب ، ثم قال بعد أن وضع الشمعة على منضدة الاغتسال : « لقد اكتشفت كل شيء ووجدته كما قنرت ! » .

— كيف يا سيدى ؟

فلم يجر جواباً ، بل وقف ويدها معقودتان ، ورأسه مطرق إلى الأرض . وبعد دقائق سأل في صوت يغلب عليه الشنود : « لقد نسيت ما قلت لى .. هل قلت إنك شاهدت شيئاً عندما فتحت باب مخدعك ؟ » .

— كلا يا سيدى .. كانت الشمعة على الأرض فقط .

— ولكن ، ألم تسمعى ضحكة عجيبة ؟ .. وما أرى إلا أنك سمعت هذه الضحكة من قبل ، أو شيئاً من هذا القبيل !

— نعم يا سيدى .. فهناك امرأة تتولى الحياة - وتدعى (جريس بول) - تضحك بتلك الطريقة .. إنها مخلوقة عجيبة !

— تماماً ، جريس بول ..! لقد أصاب حدسك !.. إنها كما تقولين عجيبة .. جداً ! حسناً سأفكر فى الأمر ، وفى الوقت نفسه يسرنى أنك الشخص الوحيد - ما عداى - الذى يلم بالتفاصيل الدقيقة لحادث الليلة : أنت لست ثرثرة حقاً فلا تتحدثى بشئ ، عن ذلك لأحد !

ثم أشار إلى الفراش وعاد يقول : « والآن عودى إلى حجرتك وسأرتاح كل الراحة بقية الليل على أريكة بحجرة المكتبة .. لقد غابت الساعة الرابعة وسوف يستيقظ الخدم بعد ساعتين » .

— طابت ليلتك إذن يا سيدى !

ثم همت بالرحيل ، فتظاهر بدهشة تناقض غاية التناقض ما طلبه

من مبادرة بالعودة إلى حجرتى وصاح : « ماذا ! هل تغادرتنى فى الحال ، وبهذه الطريقة ؟ » .

— ألم تقل إن فى وسعى العودة !

— ولكن ، ليس دون أن تستأذنى .. ليس دون كلمة أو اثنتين

أعبر بهما عن تنذيرى وعرفائى .. وبالاختصار « ليس بهذه الطريقة المبسرة الجافة . إنك أنقذت حياتى ، بل إنك انتزعنى النزاعاً من أنياب مئة مروعة . أئمة . فكيف تفارقينى كما لو كنا غريبين لا يعرف أحدهما الآخر ؟! صافحنى على الأقل !

وبسط يده . فتناولته يدى . وإذا ذلك أمسك بها أولاً فى إحدى يديه « ثم أطبق عليها راحتيه وقال : « لقد أنقذت حياتى ، ويسرنى أن أدين لك بهذا الدين الضخم . وليس فى مقدورى أن أقول أكثر من هذا .. بل إننى ما كنت لأحتمل أن أدين لمخلوق على قيد الوجود بمثل هذا الالتزام . بيد أن الأمر يختلف معك » فلست أشعر بأن فضلك هذا عيباً يثقل على « ياجين » .. وتوقف عن الكلام ، وأخذ يتغرس فى والكلمات تضطرب على شفتيه ، ولكنه حبسها « فقلت : « طابت ليلتك مرة أخرى يا سيدى . وليس فى الأمر دين أو فضل أو التزام ! » .

— كنت أعرف أنه سينالنى خبر على يديك بطريقة ما ، وفى وقت ما .. قرأت ذلك فى عينيك يوم شاهدتك لأول مرة ، ولم تكن عبثاً نظرتك وابتسامتك اللتان أدخلتا البهجة على نفسى : إن الناس يتحدثون عن العواطف الطبيعية ، كما سمعهم يتحدثون عن وجود (الملاك ، الطيب) ، وقد آمنت الآن بأن فى الحرفات - مهما تشطت فى الخيال -

الفصل السادس عشر

● كنت ثملى - بقدر ما كنت أختنى - أن أقابل مستر روشستر في اليوم الذى تلت ذلك ليلة اليلة السابعة .. كنت أصبو إلى أن أسمع صوته مرة أخرى . ومع ذلك كنت أرجف من أن تلتقى عيناى بعينه . وكنت طوال الخريف الباكر من الصباح أتوقع ظهوره بين لحظة وأخرى .. ومع أنه لم يعتد أن يدخل إلى حجرة الدراسة ، إلا أنه كان يعرج عليها في بعض الأحيان . ولذلك كان في هاتف يؤكد لي أنه سيزور الحجرة في ذلك اليوم . غير أن الصباح انقضى كالعادة . دون أن يقع ما يوقى سير الدرس . على أنى لم أكد أنتهى من تناول الإفطار ، حتى سمعت لفظاً يجرى خارج مستر روشستر . وكان مزيجاً من أصوات مسز فيرفاكس و (ليا) والطاحية .. بل وصوت زوجها (جون) بلهجته الغليظة ، وتناهت إلى أذنى . خلال اللغظ .. صيحات متعددة : « من رحمة الله أن السيد لم يخرق في فراشه ! .. » من الخطر دائماً أن تظل إحدى الشموع موقدة في الليل .. » من عناية الله أن أوفى من حضور ذهن ما جعله يتذكر يربى الماء .. » من عجب أنه لم يوقظ أحداً ! .. عسى ألا يصاب بيرد بعد تومته على أريكة المكتبة .. إلخ .

ودار لفظ كثير . أعقبته أصوات مسح الحجرة وتنظيفها ، وترتيب محتوياتها .. وعندما مررت بتلك الحجرة في طريقى لتناول الغداء بالطابق الأعلى . شاهدت من خلال الباب المفتوح أن كل شيء قد استعاد نظامه انتام . فإعدا الفراش الذى كان مجرداً من ستاره . وكانت (ليا) منتصبة فوق قاعدة النافذة : تسبح الأوصاف الربانية التي جعلها

بنوراً من الحقيقة .. طابت ليلتك يا حافظى العزيمة !

وكانت في صوته حيوية عجيبة ، وفي نظراته نار غربية . فقلت : « سعدنى يا سيدى أننى كنت ما أزال متيقظة . بالمصادفة ! .. » ثم همت بالنصراف فقال : « ماذا ! .. هل ستصرفين ؟ »
- إننى أشعر ببرد يا سيدى .

... بيرد ؟ .. أجل .. بل إنك تغفين في بركة ماء ! اذهبي إذن باجئ !

ولكنه ظل ممسكاً بيدي ، فلم أستطع تخليصها . وفكرت في حيلة أتدرج بها ، فقلت : « أظننى سمعت مسز فيرفاكس تتحرك يا سيدى .. » فأرخى أصابعه وقال : « حسناً ، فارقينى ! .. » وانصرفت ، فعدت إلى فراشى . ولكنى لم أفكر في النوم إطلاقاً ، بل ظلت - إلى أن لاحظت تباير الفجر - كمن يطوح بها بحر بيح وسار . ولكنه ليس هادئ الصفو وإنما تنساب تحت أمواج مياحه تيارات الغناء والمتاعب . وكان يخيّل لى أحياناً أننى أرى خلف مياه العنيفة شاطئاً جميلاً . ثم لا يلبث الأمل بين حين وآخر أن يوقظ زويدة منبهة تحمل روحى ظافرة إلى هدنى .. إلى ذلك الشاطئ الجميل . ولكننى لم أستطع بلوغه حتى في الخيالك ، لأن عاصفة مضادة كانت تجرئنى إلى الخلف . أى أننى كنت بين عاملين : كان العقل يقاوم الخديان ، والتميز يحذر من الهوى .. واستحال على أن أستريح وأنا محمومة هكذا . فتهضمت بمجرد أن طلع فجر اليوم !

الدخان معتمة . وهممت بأن أحاطبها رغبة في معرفة السبب الذي يعزى إليه ذلك الحادث ، ولكنني ما إن تقدمت حتى شاهدت شخصاً آخر في الحجرة : امرأة تجلس على مقعد يجوار القراش ، وتخييط دوائر أستار جديدة .. ولم تكن تلك المرأة سوى (جريس بول) !

هنالك تجلس رابطة الجأش ، مخلدة إلى الوجوم كالعادة . بثوبها البني الفضفاض ، ومرولتها - ذات المربعات - ومنديلها وقلنسوتها الناصعي البياض . وكانت منهكة في عملها الذي بدا أنها استغرقت فيه بكل أفكارها دون أن يترامى على جبينها الجلامد ، أو على أساريرها المألوفة شيء من الامتعاق أو القنوط الذي يتوقع المرء أن يراه على أسارير امرأة شرعت في ارتكاب جريمة قتل في الليلة السالفة . فإذا بالضحية المقصودة تتبعها إلى عربتها ، وتتمها - كما اعتقدت - بالجريمة التي أرادت تنفيذها .. لذلك تولتني الدهشة وتعلكتني الحيرة .. وفيما كنت أتفرس فيها ، رفعت عينيها دون أن ترتاع أو يتضرج وجهها بحمرة أو شحوب يتم عن انفعال في النفس أو شعور بالإثم أو خوف من اكتشاف أمرها . بل إنها قالت بلهجتها القاترة المتفضية : « صباح الخير يا آنسة » ثم تناولت دائرة أخرى وشرطاً آخر ، واسترسلت في خياطتها فقلت أحدث نفسي : « سوف أجرى عليها بعض الاخبار . فلإن مثل هذا التكتم المطلق يفوق كل تصور وإدراك ! » .. ثم قلت لها : « صباح الخير يا جريس . هل حدث شيء هنا ؟ .. لقد خيل لي أنني سمعت جميع الخدم يتبادلون الحديث منذ هتية ! » .

— كل ما هنالك أن السيد كان يقرأ في قرأشه ليلة أمس . فاستغرق

في النوم والشمعة موقدة . فشبث الثيران في السائر : ولكنه لحسن الحظ يتقظ قبل أن يمتد اللهب إلى مفارش السرير وإلى النوافذ والأبواب ، فتتمكن من إخماد الحريق بماء الإبريق .

فقلت بصوت خافت : « ياله من أمر عجيب ! » .. ثم سددت إليها نظراتي وقلت : « هل أبقيت مستر روشستر أحداً ؟ .. ألم يسمعه أحد يتحرك ؟ .. » فرفعت عينيها لي مرة أخرى ، وكان فيهما في هذه المرة ما يعبر عن الشعور بالجرم . وبدلت أنها تنفحني بخمار شديد ، ثم أجبته قائلة : « إن الخدم ينمون بعيداً جداً كما تعلمين يا آنسة ، فمن المحتمل أنهم لم يسمعوا شيئاً .. أما حجرة مسز فيرفاكس وحجرتك فأقرب الحجرات إلى غرفة السيد . ولكن مسز فيرفاكس قررت أنها لم تسمع شيئاً على الإطلاق لأن من يطمنون في السن ينقل نومهم » .

ثم توقفت قليلاً قبل أن تستطرد ، وهي تنظاها بعدم المبالاة ، برغم ما كان في فجتها من دلالة ومغزى : « ولكنك شابة يا آنسة ، بل أنت أنحف نوماً . فلعلك سمعت ضجة ما ؟ » .. فقلت وأنا أخافت من صوتي حتى لا تقوى على سماعه (لياد) التي كانت ما تزال تصقل ألواح النوافذ الزجاجية : « لقد سمعت فعلاً .. وظننت في أول الأمر أنها من بايلوت ، ولكن بايلوت لا يستطيع الضحك . وأنا واثقة من أنني سمعت ضحكة .. ضحكة عجيبة ! » .. فتناولت خيطاً جديداً شمعتة بعناية ، ثم أدخلته في ثقب الإبرة بيد ثابتة . وقالت برباطة جأش تامة : « ليس من المحتمل - فيما أعتقد - أن يضحك السيد وهو في مثل هذا الخطر .. فلا شك أنك كنت تعلمين يا آنسة ! » .

فقلت بشيء من الانفعال بعد أن أثارتنى ببرودها السليقة : « بلى
 إننى لم أكن أحلم ! » .. فتطلعت إلى مرة أخرى بنفس العين المتحصصة
 الواعية ، ثم سألتنى : « هل أخبرت السيد بأنك سمعت ضحكة ؟ » ..
 — لم أجد فرصة للتحدث إليه فى هذا الصباح .
 فعادت تسألنى : « ألم تفكرى فى فتح بابك والتطلع إلى الردهة ؟ » ..
 وبدأ أنها تستجوبنى وتحاول أن تنتزع ألبابى دون أن أظن . وخطر فى
 أنها إذا اكتشفت أننى أعرف أو أرتاب فى جرمها . فقد تحاول أن تأتى
 معى بعض الأعباء الخبيثة . لذلك رأيت من الحكمة أن أكون على حذر .
 فقلت : « بلى على العكس .. أغلقت بابى بالمرلاج » ..
 — إذن فليس من عادتك أن تغلقه بالمرلاج فى كل ليلة قبل أن
 تأوى إلى فراشك ؟

باللشيطانة ! .. إنها تود أن تعرف عادائق لترسم خطفها على هذا
 الأساس ! .. وتغلب الحق على حكمتى فأجبتها بحدة : « كنت .. قبل
 الآن .. كثيرًا ما أغفل إغلاقه بالمرلاج ، لأننى لم أكن أجد ضرورة لذلك
 ولا كنت أعلم بوجود خطر يتهددنى أو كدر أخشاه فى قصر
 (ثورفيلد) .. أما فى المستقبل (وضغظت على غزاج الكلمات التالية)
 فسوف أبذل اهتماماً بالغاً لاتخاذ كل حيلة وضمان قبل أن أجرو على
 الاستلقاء على فراشى ! .. فكان جوابها : « من الحكمة أن تفعل ذلك :
 فإن منطلقنا هذه هادئة — فبما أعلم — ولم أسمع فى حياتى قط أن اللصوص
 حاولوا السطو على القصر منذ اتخذ سكناً ، برغم ما به — كما هو معروف —
 من صحاف فى صوان الآنية . تساوى ميثات الجنيتات ، وبرغم أن عدد

الخدم هنا قليل جداً بالنسبة إلى قصر كبير كهذا : نظراً لأن السيد
 لا يقيم هنا طويلاً ، فإذا جاء — وهو أعزب — لم يحتاج إلى خدمة كثيرة .
 ولذلك فإتنى أرى دائماً أن من الأفضل اتخاذ الخيطة : بإبصار الباب
 بمجرد ولوج المرء مخدعه . كما يحسن وضع المرلاج ليحول بين الإنسان
 وبين أى شر قد يحوم حوله . إن كثيراً من الناس يا آنسة يكون كل
 شيء شغاية الإلهية . ولكنى أؤكد لك أن العناية الإلهية لا تمنع من اتخاذ
 الخيطة . وإن الله يبارك هذه الوسائل إذا ما استعملت بحذر وفطنة ! » ..
 وعندئذ انتهت من إلقاء خطبتها .. وكانت خطبة طويلة بالنسبة
 لصبها المألوف . وقد ألقها برزاقه المختلات الدجالات . بينما ظلمت
 أنا واقفة جدمهيرة أمام ما بدا ليعنى من رباطة جأشها النادرة ، وريائها
 العويص . ثم ما لبثت الطاهية أن دخلت لتقول لها : « إن غداً الخدم
 يأمرون بول سيعة على التو . فهل تفضلين بالتزول ؟ » ..

— كلا .. فقط نسعى شرابى وبعض العصيدة على صينية ، وسوف
 أحملها إلى الطابق العلوى .
 — ألا ترغيبى فى قليل من اللحم ؟
 — قطعة صغيرة منه . وقطعة من الجبن .. فقط !
 — والساخو ؟ (نشاء من جمار النخل) .
 — لا داعى له الآن ، سأزول قبل موعد تناول الشاى وأصنع بنفسى .

● وعندئذ انتهت انصاحية حوى لتخبرنى بأن مسير فيرفاكس فى انتظارى
 فانصرفت إلى ذلك . ولكنى لم أكد أسمع شيئاً من حديث فيرفاكس

عن حريق الستائر ، لأنني كنت - أثناء تناول الطعام - مستغرقة بكل أفكارى الحائرة في أطوار (جريس بول) التي بدت لي لغزاً غامضاً . كما كنت أشد استغراقاً في محاولة إدراك مركزها في (ثورنفلد) . وفي التساؤل : لماذا لم يلق بها في غيابة السجن في ذلك الصباح ، أو - على الأقل - لماذا لم تطرد من خدمة سيدها ؟ .. لقد أعلن في الليلة الماضية جرمها فيما يشبه الجرم والتأكيد ، فأى سبب خفى منعه من إعلان اتهامه لها ؟ ولماذا طلب منى كذلك أن أخفى الأمر وأكتمه ؟ .. كان من العجيب أن يبدو هذا السيد الجسور المنتقم - المتعالي - تحت رحة خادمة من أحط خدمه بحيث لا يجرؤ - بعد أن رفعت يدها للقضاء عليه - على أن يتهمها علانية ، على الأقل ، بمحاولة اغتياله ، إن لم يسع إلى عقابها على جرمها ! . ولو أن (جريس) كانت شابة جميلة ، لو وجدت ما يحملني على الظن بأن ثمة عواطف وإحساسات أرق من التصر والخوف ، هي التي ألانت قلب مستر روشستر نحوها ، أما وهى على ما كانت عليه من دمامة وكهولة ، فإن هذا الظن لم يكن مستغافاً .. ورحت أقول لنفسى : « ولكنها كانت شابة في يوم من الأيام ، وكان شبابها معاصراً لشباب سيدها - فقد أخبرتنى مسز فيرفاكس أنها تقيم هنا منذ سنوات عديدة - ولا أحسب أنها كانت حسناء ، ولكن لعلها كانت تتم بأصالة في الرأى وقوة في الأخلاق عوضاً عما كان ينقصها من الميزات الشخصية . إن مستر روشستر من هوة الخلق الحازم والأطوار الغريبة . وجريس غريبة الأطوار على الأقل ، فإذا لو أن نزوة من نزواته السابقة - وهى فلانة تجوز جداً بالنسبة لطبيعة رجل مثله على جانب كبير من سرعة

الانفعال وصلابة الرأى - أسلمته إلى رحمتها ، فكنها نتيجة لعدم تبصره من أن تفرض على أعماله سلطة خفية لا تقوى على الإفلات منها ، ولا يجرؤ على إغفالها ؟ ! .. ولكن ما إن بلغت هذه النقطة من الخدس والتخمين ، حتى تمثلت لنيللى جريس - أو مسز بول - بفامتها الربعة الخالية من الروق ، وبوجهها الدميع الجاف .. بل الغليظ ، فقلت لنفسى : « كلا : مستحيل ! إن اقتراضى لا يمكن أن يكون صحيحاً .. ومع ذلك - وهنا هتف بي الصوت الخفى الذى ينبعث عادة من قلوبنا - فأنت كذلك لست جميلة . ومن المحتمل أن مستر روشستر يستلطفك ، أو على أية حال هذا ما طالما أحسست به .. وفي ليلة أمس .. تذكرى كلماته .. تذكرى نظراته .. تذكرى صوته ! »

وتذكرت كل ذلك بجلال .. تجددت بوضوح ذكرى لهجته ، ونظراته ، ولغته .. وكنت إذ ذاك فى حجرة الدرس وأدبل ترسم ، فملت عليها وأمسكت قلمها الرصاص أوجهه ، فنظرت إلى وكأنها روعت ثم قالت بالفرنسية : « ماذا بك يا آنسة ؟ .. إن أصابعك ترتعد كورقة من أوراق الشجر ، ووجنتيك متوردتان .. فى حمرة الكريز ! » .

- إننى أشعر بالحر يسبب اغتنائى !

فعاذت إلى رسمها . وعدت إلى تفكيرى : بادرت أقصى من رأسى تلك الفكرة البغيضة التى استبدت بى بشأن جريس .. تلك الفكرة التى جعلتنى أشتم .. ولقد قارنت نفسى بها فوجدت أننا نقيضان .. ألم نقل بيسى ليفن - المربية السابقة بقصر جيتسهد - حين زارتنى فى (لو وود) إننى سيدة بكل مافى الكلمة من معنى ؟ .. لقد كان ما قالته حقاً .. بل إننى

أصبحت أبدو خيراً مما كنت عندما أتت بيبي ، إذ ازداد لوني تورداً ،
وجسمي امتلاء .. وغدت أكثر حيوية ونشاطاً بعد أن ازدهرت أقمالي
وتضاعفت أسباب هثائي .

وتطلعت ناحية النافذة وأنا أقول : « إن المساء يقترب وقد انقضى
النهار دون أن أسمع صوتاً لمستر روشستر أو وقعاً لتقديمه في المنزل .
والكنني سأراه بكل تأكيد قبل أن يعل الليل ! .. » ويضرب ما كنت تخشى
لقائه في الصباح أخذت أنلهف عليه الآن ، لأن طول الارتقاب أعياني .
حتى غلوت نافذة الصبر لا أقوى على مزيد من الاحتمال .. وعندما
أسدل الغسق أستاره بالقمع ، وغادرتي أدبل تقضي وتلب مع مربيها
الفرنسية (صوفي) في غرفة الأطفال ، اشتدت في اللهفة ، فرحت أقرب
رنين الجرس عسى أن يدوي في الطابق الأسفل . كما رحبت أتصفت
لعل (لياه) تصعد برسالة لي . وكان يخيل لي أحياناً أنني أسمع وقع
قدمي مستر روشستر ، فكنت أستدير إلى الباب متوقعة أن يفتح ليدخل
السيد عندي .. ولكن الباب ظل مغلقاً ، ولم تدخل سوى الثلثة التي
أقبلت خلال النافذة .. بيد أن الوقت لم يكن قد تأخر كثيراً .. فقد اعتاد
أن يرسل في طلبي في الساعة أو الثامنة . ولم تكن الساعة قد بلغت السادسة
بعد ، ولا شك أن آمالي لن تخيب تماماً في هذه الليلة لأن لدى أشياء كثيرة
أريد أن أقضي بها إليه .. لسوف أتناول مرة أخرى موضوع جريس
بول لأسمع رده .. سأسأله ببساطة : هل يعتقد حقيقة أنها هي التي أقدمت
في الليلة الماضية على تلك المحاولة البغيضة ؟! .. وإذا كان الأمر كذلك ،
فلماذا يحتفظ بشرها سراً مكتوماً ؟! .. ولن أحفل إذا أثاره قضوني

وأغضبه . فقد أصبحت أعرف كيف أغضبه ثم أرضيه ، على التوالي ..
بل إنني لأجد في ذلك متعة كبيرة ! ولكن غريزة أمينة كانت تمنعني
من التغالي إلى أبعد من حدود الإثارة . وعند هذه النهاية ، كان يلد لي
أن أجرب مهارتي ، وأنا محفظة بكل آيات الاحترام . وبكل ما يليق
بمحركي - فأجاده بلا خوف أو انفعال مما يليق بي وبه على السواء .

وأخيراً ، دوى وقع أقدام على السلم ثم ظهرت (لياه) .. على أنها لم
تأت إلا لتخبرني بأن الشاي معد في غرفة مسز فيرفاكس . فتأهبت على
النور مغتبطة بتروتي . لأن ذلك يقربني - على الأقل وكما توهمت - من
مستر روشستر . فلما اجتمعت بالسيدة في حجرتها قالت : « لاشك في
أنك بحاجة إلى فحجان من الشاي .. لقد أكلت قليلاً جداً في الغداء ، وأخشى
ألا تكوني اليوم بصحة جيدة ، لأنني أراك متوهجة الوجه شموخة ! »

.. أود .. أنا بغير - بل أحسن حالا من أي وقت مضى .

.. إذن وجب أن تبرهن على ذلك بما تبدين من شهوة للطعام ..
هل تسمحين بحد .. وعاء الشاي إلى أن انتزع هذه الإبرة من الخيوط ١٢
وبعد أن أنجزت مهمتها قامت تسدل ستار النافذة ، بعد أن كانت
قد رفعتها لتعني فيها اعتقاداً كبيراً بنسب من ضياء النهار - بعد أن ادلم الغسق ،
واشتدت الظلمة .. وعادت تقول : « اجلس معتدل هذا المساء ، ولو أن
السماء ليست صافية الأديم ولا تكشف عن نجومها . وعلى كل فلا شك
أن مستر روشستر قد نعم بيوم يناسب رحلته » .

.. رحلته ؟ هل رحل مستر روشستر إلى مكان ما ؟! لم أكن أعرف
أنه رحل .

زينة ، ومضاعة بالأنوار المشرقة ، كما أعتقد أن الحاضرين بلغوا حسين من السيدات والسادة ، كلهم من أكبر الأسرات في المقاطعة . وكانت مس بلاتش انجرام أجمل الموجودات في ذلك المساء !

— تقولين إنك رأيته يا مسز فيرفاكس ، فما شكلها ؟

— نعم رأيته ، لأن أبواب حجرة الطعام كانت مفتوحة على مصاريعها ، ولما سبى عيد الميلاد سمح للقدم بأن ينعشوا في القاعة ليستمعوا إلى بعض السيدات وهن يغنين ويعزفن . ودعاني مستر روشستر للدخول ، فجلست في ركن هادئ أراقب وأشاهد ، فلم أر في حياتي مثل ذلك المشهد الرائع . وكانت السيدات ترتدين أفخر الثياب .. معظمهن أو الشابات على الأقل .. فتنجلي جمالهن ، ولكن مس انجرام كانت ملكتهن بكل تأكيد !

— ماذا كان شكلها ؟

— فارعة القامة ، حماية الصدر ، منحدره الكتفين ، ذات نحر طويل رشيق ، وعجا أبيض صاف في لون الزيتون ، وقسمات نبيلة ، وعينين كحلتى مسز روشستر : سوداوين كبيرتين لها وميض الجواهرات . هذا إلى شعر جميل ، حالك السواد : تفتت في تسويته وعقصرته من الخلف على هيئة تاج من الضمائر ، وأسدلته من الأمام خصلات لم أر في حياتي ما يفوقها طولاً ونعومة واتساقاً .. وكانت ترتدى ثوباً ناصع البياض ، وتضع على كتفها وصدورها وشاحاً بلون الكهرمان ، عقدته على جانب من خصرها وأرخت أهدابه الطويلة الزرنيشة إلى ما تحته ركبتيها ..

— أوه !.. لقد خرج فور تناوله طعام الإفطار .. ذهب إلى قصر مستر إيشتون في (لياس) ، على مسافة عشرة أميال من الجانب الآخر لقرية (ميلكوت) . وأغلب الظن أن هناك جماعة ستلتقي هناك : الأورد انجرام ، والسيرجورج لين ، والكولونيل دنت ، وغيرهم .

— وهل تتوقعين عودته الليلة ؟

— كلا ، ولا غداً .. بل أظن من المحتمل جداً أن يمكث أسبوعاً أو أكثر ، فإن هؤلاء القوم الظرفاء ، العصبيين ، إذا اجتمعوا ، أحاطت بهم الأنافة والرشاقة وأسباب البهجة والانشراح ، وتوفرت لهم من أسباب اللهو والتسلية ما لا يجدون معه داعياً إلى سرعة تفرق الشمل . وفي هذه المناسبات .. بوجه خاص — يكون الرجال مبتغين ، منشودين : وإن لمستر روشستر في المجتمعات من مواهبه العديدة وخفة روحه ما يجعله محبوباً لدى الجميع .. إن السيدات يشغفن به ، وإن لم تصدق أن شكله يرشحه لأن يروق في أنظارهن بالذات .. ولكني أعتقد أنه من مؤهلاته ومواهبه ، وربما من روته وكرمه محبته : ما يعوض أى عيب في مظهره !

— وهل توجد في (لياس) سيدات ؟

— هناك مسز إيشتون وبناتها الثلاث — سيدات شابات في غاية من الأنافة في الحقيقة — كما أن هناك النبيلة بلاتش ، والنبيلة ماري انجرام ، وهما من أجمل النساء فيما أعتقد . والواقع أنني شاهدت بلاتش منذ ست أو سبع سنوات عندما كانت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها إذ قدمت لتشهد حفلة راقصة أقامها مستر روشستر في عيد الميلاد : وبإلتك رأيت حجرة الطعام في ذلك اليوم : وكيف كانت مزودة بأعلى

وكذلك كانت تضع في شعرها زهرة بلون الكهرمان . تناقض لون
جداؤها الفاتحة ؟

— لقد كانت بالطبع موضع إعجاب شديد ؟

— نعم في الحقيقة ، لا لجمالها فحسب . وإنما لما ترها ومحاسنها الأخرى .
فقد كانت واحدة ممن غنن بمصاحبة سيد عزف على البيانو . كما غنت
مع ماستر روشستر .

— ماستر روشستر ؟ لم أكن أعرف أنه يحسن الغناء ؟

— أوه .. إن له صوتاً عبقراً جليلاً . وذوقاً موسيقياً موهناً .

— وممن أنجرام .. كيف ترين صوتها ؟

صوت غنى وقوى جداً . وكانت تغني بأدبة الابتهاج والمرح .
وقد نعننا بالإصغاء إليها .. ثم عزفت فيما بعد : ولست ممن يستطيعون
الحكم على الموسيقى ، ولكن ماستر روشستر يستطيع ذلك وقد سمعته
يقول إن أداءها على جانب ملحوظ من المهارة .

— وهذه السيدة الحسنة ذات المراهب .. ألم تتزوج بعد ؟

— لا يبدو ذلك ، فليست أظنها وأختها تملكان ثروة كبيرة ، لأن
معظم أملاك الأورد انجرام العجز كانت موقوفة على وريث معين .
ولذلك استولى ابنه الأكبر على كل شيء تقريباً !

— ولكنني أتساءل : لماذا لم يمل إليها أحد من النبلاء الأرقاء

أو السادة .. ماستر روشستر مثلاً .. إنه غني : أليس كذلك ؟

— بلى . ولكن الفرق بين عمرهما كبير كما ترين . فإن ماستر
روشستر في حوالى الأربعين من عمره بينما هي في الخامسة والعشرين .

— وماذا في هذا ؟.. إن كثيراً من الزيجات غير المتعادلة تعقد في
كل يوم .

— هذا صحيح . ولكنني لا أتصور أن لدى ماستر روشستر أية
فكرة في هذا الصدد .. إنك لم تأكلي قط ، بل إنك لم تلذقي شيئاً
تقريباً منذ بدأت في تناول الشاي !

— كلا .. إنني شديدة العطش ، بحيث لا أقوى على أكل شيء ماء ،
فبلى تسمحين لي بقدر آخر ؟

وكنت أهم بالعودة مرة أخرى إلى احتيال زواج ماستر روشستر
يد (بلانش) الحسنة . لولا أن أدبل دخلت إذ ذاك ، فأنخذ الحديث
مجرى آخر !.. وعندما خلوت مرة ثانية إلى نفسي . رحبت أستعرض
المعلومات التي حصلت عليها . وجعلت أتطلع إلى قلبي لأسبر غور
أفكاره ومشاعره . وأحاول أن أعيد ما جمع منها في بيضاء الخيال الشاسعة
إلى حظيرة العقل والإدراك . وأقت حكمة من نفسي ، استدعيت إليها
الذاكرة شاهدة على الآهاني والرغبات والمشاعر التي خالجتني منذ ليلة
أمس . وشاهدة على حالتي العقلية العامة التي انغمست فيها منذ أسبوعين
تقريباً . ثم تقدم العقل فروي بطريقته الحادثة قصة واضحة غير منمقة ،
أظهر فيها كيف رفضت ما هو حقيقي ، والتمتت بسرعة ما هو مثالي
خيال .. ثم نظمت بالحكم التالي :

لم يتنسم نسيم الحياة قط من هو أحق من (جين إير) .. بل ليس
ثمة من يميزها بلاهة وتعتماً بالخيال وهي تنخر نفسها بالكاذب المعسولة
وتبتلع السم كانه رحيق الحياة !

وخذت بعد ذلك قطعة من العاج الناعم - ولديك قطعة معدة في صندوق الرسم - ثم أخرجي لوحة الألوان ، وامزجي أحدها وأجملها وأزهاها واختاري أرق الأقلام المصنوعة من شعر الجمل ، ثم ارسمي لأجل وجه يمكن أن تصوره بأخف الظلال ، وأبدع الألوان ، طبقاً للوصف الذي سمعته من مزر فبرفاكس عن بلانش انجم : ولا تنسى حفاقات شعرها الأسود كجناح القراب أو عينيها الشرقيتين : ماذا ! إنك ترندين بجيالك إلى مستر روشستر ، لتتخذى منه نموذجك ! .. النظام ! لا تدعى أنك سيئ - ولا مجال للعواطف أو الأسى ، ولن أحتمل منك سوى التعقل والحزم ! تذكرى الأساور الجليلة المهيبة ، ولكنها مع ذلك منسجمة متناسقة .. وتذكرى الجيد والنحر الإغريقين .. ووضحي للعين اللواع الملقوفة التي تهر الأنظار ، وكذلك اليد البضة الرقيقة . وإياك أن تخلقى الخاتم الماسي ، والسوار الذهب ، وارسمي الثوب بأمانة بما فيه من دتلا غالية ، ودمقس بأناق .. وكذا الوشاح الجميل والوردة الذهبية ... ثم سمى ذلك (بلانش .. سيدة مهذبة عريشة الأصل) .. وكلما خيل إليك في المستقبل أن مستر روشستر يحسن بك الظن - أخرجي هاتين الصورتين ، وقارنى بينهما ، وقولى : « من المحتمل أن يظفر مستر روشستر بحب هذه السيدة النبيلة إذا هو آثر النضال من أجل هذا الحب . ولكن هل يحتمل أن يعير فكرة جدية لهذه العامة المعذمة الخفية ؟ » .

وقلت في حزم : « سوف أفعل ذلك » .. وإذ وطدت نفسي على ذلك الحزم ، حدثت ثم استغرقت في النوم .

وقلت أحدث نفسي : « أنت ... أثيرة عند مستر روشستر ؟ هل أوتيت القدرة والقوة على مرضاته ؟ هل أنت من الأهمية يمكن عنده ؟ إليك عنى فإن حقاقتك تستحقني ! لقد استقيت السرور والابتهاج من عبارات عابرة تدل على الإيثار .. عبارات ذات معنيين يديها سيد كريم المختد « ورجل خبير بالعالم ، نحو موعوسة غورية : كيف تجرئين أيتها الغرة المسكينة الحمقاء ؟ .. ألم يفرح حبك لذاتك ومصلحتك الخاصة على جعلك أحكم وأقل من ذلك ؟ .. ألم تعيرى لنفسك في هذا الصباح المشهد القصير الذى وقع في الليلة الماضية ؟ .. ألا غطى وجهك واخجل ! .. لقد قال شيئاً في امتداح عينيك ، أليس كذلك أيتها الدمية العمياء ؟ .. ألا فافتحي جفونهما الذابلة ، وتبينى تفاهنك اللعينة ! .. ليس يبدى امرأة أن يغارها من هو أرفع منها . ولا يمكن أن يعترم الزواج منها .. بل إنه لجنون من النساء جميعاً أن يدعن الحب ينفذ في قلوبهن ، لأنه إذا لم يقابل بمثل ، أو إذا لم يدركه أحد ، فسوف يلتهم الحياة التي تغذيه .. وحتى إذا اكتشف أمر هذا الحب ولقى من يستجيب له ، فلا بد من أن يؤدي إلى سراب خادع .. إلى قفار موحلة لا خلاص منها ولا نجاة .

« ألا اصغى إذن يا جين إير إلى الحكم الصادر عليك : غداً ضعى المرأة أمامك ، وارسمي بالطباشير صورتك بكل أمانة ونزاهة دون أن تقللى من شأن أى عيب أو نقص فيك ، ودون أن تعذق أى سطر من سطور التجاعيد الخشنة ، أو تخفى أى شدوذ لا يعجبك ، ثم اكتبى نحتها : (صورة معلمة عديمة الأهل ، عديمة المال ، عديمة الجمال) :»

وبررت بوعلى .. وكفنتى ساعة أو اثنتان لكن أوصم صوري
رسماً تخطيطياً بالقلم . وفي أقل من أسبوعين أنعمت صورة مقصورة في
لون العاج من بلاش انجرام كما تخيلتها . فبدت بوجهها الجميل الذى
ما أن قارنته برأسى الذى رسمته بالطباشير . حتى ظهر لها شامعاً
يضطرنى إلى مزيد من ضبط النفس .. ولقد أفدت من هذه المهمة .
لأنها شغلت رأسى ويدي ، كما عززت وثبتت الاطلاعات الجديدة
التي وددت ألا تمحى من قلبي .. وقيل أن يقضى زمن طويل ، كنت
عقبة في أن أهني نفسى على النظام الناجع الذى فرضت مشاعرى على
الإذعان له . إذ أننى استلعت بفضل أن أواجه الآخر . والى بهدوء
يليق في ، ولولا هذا التأهب لمواجهة الأحداث . لما أصبحت قادرة
على الاحتفاظ بهدوئى - ولو ظاهرياً - أمامها !

* * *

الفصل السابع عشر

● انقضى أسبوع ولما فصل أنباء جديدة عن مستر روشستر .
واكتملت عشرة أيام دون أن يعود . وقالت مزر فيرفاكس إنها لن
تدهش إذا هو غادر (لباس) فأنجه مباشرة إلى لندن . ومنها إلى
أوروبا ، فلا يرى أحد وجهه في (ثورنفلد) قبل مضي عام .. فلقد
طالما غادرها من قبل في هدوء .. بغتة . وعلى غير توقع ... وبدأت
- عندما سمعت هذا منها - أشعر ببرودة عجيبة تتملك قلبي . كنت
أسلم نفسي - في الواقع - لإحساس بخيبة الأمل : يجعلنى غيلة سقيمة .
بيد أننى سرعان ما تماثلت زمام رشدى . واستجمعت مبادئ .

فما لبثت أن هيئت على مشاعرى : وتغلبت بقدره عجيبة على الخلل
الذى كنت أتخطئ فيه إذ ذاك . وأخذت أستبين مدى الخطأ الذى
أوحى لى بأن لحركات مستر روشستر أهمية حيوية بالنسبة لى . ولست
أعنى أننى حترت من شأن نفسى بالتفكير الدليل فى أننى دونه شأنًا
ومكانة . بل لى - على العكس - رحبت أقول لنفسي : « ليس لك
بسر (ثورنفلد) شأن ، فإنا عدا أنك تتناولين المرتب الذى يمنحك
إياه فى مقابل تعلم الفتاة التى يكتلها ، فخلق بك أن تجمدى له فضله
إذا هو أولئك المعاملة المحترمة الكريمة التى يجوز لك أن تتوقعها عندما
تؤدين واجبك .. وثق أن هذه هى الرابطة الوحيدة التى يجوز قيامها بينك
وبينه ، فلا تتخذيه صبراً للمشاعر المرهقة ، من اغتباطات ، إلى شجون ،
إلى غير ذلك .. إنه ليس من طيفتك . فالزنى مقامك ، واحترى نفسك ،
ولا تغدق كل ما فى قلبك وروحك وقواك من حب مشبوب على شخص
لا يشده . وحيث لا يقابل مثل هذا الحب بغير الأزدراء ! » .

ومضت أودى على اليومى فى هدوء . ولكن أنكاراً مبهمه ظلت
تراود رأسى بين القينة والأخرى عن أسباب تبرر لى مبارحة (ثورنفلد) .
وظللت - على الرغم منى - أحسوس فى ذهنى إعلاطات « وأولف
تكهنات بشأن المراكز الجديدة التى قد أحصل عليها إذا أنا بارحت
مركزى الراهن .. ولم أر داعياً لكبح هذه الأفكار عسى أن تنبت
وثق ما وسعها من ثمرات .

وبعد أن انقضى على غياب مستر روشستر زهاء أسبوعين ، جاء
البريد بطاقتين إلى مزر فيرفاكس . فالتفتت ناحية وقالت : « إنه من

مستر روشستر ، وأظننا ستعلم الآن ما إذا كانت عودته متوقعة أو غير مرتقبة ؟ ! :

وفيما كانت تفض الخاتم الشمع وتنصفح الخطاب ، استرسلت في تناول قهوتي « إذ كنا على مائدة القطور . وكانت القهوة ساخنة » فعزوت إليها ذلك الوميض المتقد الذي تورد به وجهي فجأة .. أما لماذا ارتجفت يدي ؟ ولماذا انسكب رغمي في الطبق نصف ما كان في الفنجان ؟ فأمر لم أشأ أن أفكر فيها .

وقالت مسز فيرفاكس وهي ما زالت تمسك بالخطاب أمام منظرها : « حسن .. إنني أفكر أحياناً في أننا نعيش في سكون مفرط ، ولكن ها هي الفرصة قد سنحت للانهماك في العمل ، لفترة وجيزة على الأقل ! » .. وقبل أن أسمح لنفسي بأن أسألها إيضاحاً ، ربطت شريطاً في مرولة أدبل صادف أن انفك ، كما قدمت لها قطعة من القطار . ثم أعدت ملء كوبها باللين .. وأخيراً قلت في غير اكتراث : « أظن من غير المحتمل أن يعود مستر روشستر في القريب العاجل » .

— بل إنه سيعود بكل تأكيد .. بعد ثلاثة أيام كما يقول : أي في يوم الخميس القادم . ولن يكون بمفرده : وإن كنت لا أدري كم من سادة (لياس) سيأتون معه ، فقد أرسل يوصي بإعداد خير حجرات النوم ، وبتنظيف المكتبة وحجرات الاستقبال . وسوف أستعين بفندق جورج .— في ميلكوت — وبأى مكان آخر ، على تزويد المطبخ بالأيدي العاملة .. فضلاً عن أن السيدات سيصطحبن وصيفاتهن ، وسيأتي السادة بخدمهم ، ومن ثم فسوف يمتلئ البيت !

ثم التهمت مسز فيرفاكس فطورها ، وهرعت لتبدأ في القيام بواجباتها : ولقد ازدحت الأيام الثلاثة بالعمل كما توقعت ، وكنت أحسب أن جميع حجرات (ثورنفلد) نظيفة ومرتبحة أحسن ترتيب ، ولكنني تبينت أنني كنت غفلة مما دعا إلى الاستعانة بثلاث نسوة .. ولم أر في حياتي من قبل أو منذ ذلك الحين ما شاهدته من كنس ومسح ومن غسل الأبواب والنوافذ ، وتنفض الأشرطة : وإزالة الصور ثم إعادتها إلى أماكنها ، وصقل المرايا والثريات ، وإشعال النار في مدفآت المخادع ، وتبوية أغطية الأسرة وحشياتها . وكانت أدبل تتواهب بين هذا كاه ، وكأنها استخفها الطرب لمشاهدة الاستعدادات التي كانت تتخذ لاستقبال الجاعة ، والأمل المرتقب في وصولهم . وكانت تدعو صوفى للعناية بزيئها وملابسها وإعداد ما كان بحاجة منها إلى الكي : وتهوية الجديده منها ، ثم ترتيبها ! .. ولم يكن لها من شاغل سوى أن تحوم في الحجرات الأمامية ، وتلب فوق الأسرة ، وتستلقي على الحشيات والوسائد المترامية أمام المدفآت التي كانت النار تنظف فيها وتتر خلال مداخنها . أما الواجبات الدراسية ، فقد أعقبت أدبل منها ، لأن مسز فيرفاكس حملتني على معاونتها ، فكنت أقضي النهار في مخزن الأطعمة ، أعاونها والطاهية : أو بالأحرى أعوقهما ! .. وتعلمت كيف أصنع حلوى (الكسترة) ، والكعك المحشو بالجبن ، والقطائر الفرنسية ، وكيف أنظف الطيور من ريشها ، وأزين عجايف الحلوى .

● وكان من المرتقب أن تصل الجماعة بعد ظهر يوم الخميس ، وأن يعد العشاء في الساعة السادسة . ولم يعد لدى - في تلك الفترة - وقت للاستغراق في أفكارى الواحة ، بل أعتقد أنني كنت أغيرى . بادية النشاط والاعتباط . على أنني كنت أصاب - بين فترة وأخرى - بصدمة يفتر معها سرورى ، فأجدنى قد انتقلت على الرغم منى إلى عالم من الشكوك والهاجس والتخمينات الكئيبة .. وذلك عندما كانت عينائى تقعان مصادفة على الباب القائم على السلم المفضى إلى الطابق الثالث . وكان قد ظل مغلقةً بصغة مستمرة في الفترة الأخيرة . وكانت أراه من حين لآخر يفتح ببطء . ثم تنقلت خلاله جريس بول . فنادتها بالتيغنة ومرولتها البيضاء ، ووشاحها الناصع .. وكنت أخير - ورأ عندما كنت أراها تنساب إلى خارج الباب . وتسلل في سرده . عطاها الخادنة المكتومة - وهى تنعل خفيا للرفيقين - وعندما كنت أشاهدها تنطلق إلى مخادع النوم المليئة بالهرج والمرج ، ثم تلقى لإحدى الخادمات - من اللاتي استؤجرن مؤقتاً - بنصبعة عن خير وسيلة لتسفل المدفأة ، أو تنظيف رفاها الرخامى ، أو إزالة اليقع عن الجلدران المكسوة بالورق ثم تهبط إلى المطبخ - وكان من عادتها أن تذهب إليه مرة في اليوم - فتتناول غداءها . أو تدخن غليوناً ، ثم لا تلبث أن ترجع - حاملة عشاءها - إلى صومعتها .. إلى الحجرة الممتعة التي أفردت لها في الطابق العلوى . ولم تكن تقضى مع زميلاتها سوى ساعة واحدة من كل يوم ، أما بقية وقتها ، فكانت تقضيه في إحدى الحجرات المنخفضة السقف ، والمبنية بخشب البالوط ، في الطابق الثالث ، حيث تجلس منهمكة في

الحياكة - دون ما أتيس أو رفيق ، وكأنها بحينة في (زنزانة) ! وكان أغرب الأمور كلها ، أن أحداً من أهل القصر لم يكن يرقبها أو يعجب لعاداتها ، أو يتحرى عن مركزها وعملها « أو يرى لوحدها وعزلتها : سوى .. وإن كنت قد سمعت مرة إلى جزء من حديث دار بين (لياة) وإحدى الأجيريات ، وكانت (جريس) محوره .. وكانت لياة قد قالت شيئاً لم أسمع ، فأجابتها الخادمة : « ولعلها تحصل على أجر طيب ؟ » .. فقالت لياة : « نعم . ليقبى أتناول مثل أجرها . لا أعنى بذلك أنني ألتزم من ضلالة أجرى » « إذ لا يخل ولا تقتير في نورتيك ، ولكنه لا يعدل خمس ما تتناوله جريس ، وهى ضاملة بلا عمل سوى أن نذهب إلى المصرف في (مياكوت) كل ثلاثة شهور ، فلا عجب إذا ادخرت ما يكفى لأن تحول نفسها لو أنها شاءت أن ترحل ! .. بين أنها .. فيها أعضد .. قد ألفت الحياة في القصر ، كما أنها لم تتجاوز بعد الأربعين من عمرها . وما زالت قوية قادرة على أى شيء . فلم يؤن بعد أن تعتزل العمل » .

فقالت الخادمة : « أظنها تجيد العمل » .. فقالت لياة بالهجة لها مغزاه : « آه .. إنها تفهم ما يجب عليها عمله . وليس كل إنسان يستطيع ملء مكانها ، ولو أعطى الأجر الذى تتناوله ! » .

— ليس الأمر كذلك ! إننى لأتساءل هل السيد .. ؟

وكانت تهم بالاسترسال في حديثها ، لولا أن حانت من (لياة) التفاتة فشاهدتنى .. وإذ ذاك وكزت رفيقها بمرفقها .. وصمعت المرأة تهمس : « أهى لا تدرى ! » .. فهزت لياة رأسها .. انتظم الحديث

بطبيعة الحال ، وكل ما أدركته هو أنه يوجد في (ثورنفيلد) سر وأنى أقصى عمداً عن الإلمام بهذا السر .

■ وقدم يوم الخميس .. وكان كل شيء قد أعد تحسماً في الليلة السابقة .. فازدانت الأسرة بستاير وشيث بالزهور . وبالحفلة مشرقة ناصعة البياض ، وبمناضد اللزينة منسقة ، وأثاث مصقول . وزهور انتظمت في أوان .. وبدت الحجرات والقاعات في أبهى ما يمكن أن تصنعه أيدي البشر .. كما كان البهو لاهعاً ، وقد صقلت الساعة الكبيرة ودرجات السلم وسياجها . حتى بدت براقة كالزجاج .. وفي حجرة المائدة ، كان الصوان يأتلق بما ضم من صحاف ، بينما انتشرت في قاعة الاستقبال ومخادع النوم الرئيسي أوان حفلت بأينع الزهور .

وإذ حان الأصيل ، ارتدت مسز فيرفاكس ثوباً من (الساتان) الأسود -- كان خير ما لديها من ثياب -- وقفازاً ، وساعة من الذهب . فقد كان منوطاً بها أن تستقبل السيدات وترافقهن إلى الحجرات المعدة لهن ، وغير ذلك . أما أدبل « فلم تكن أمامها -- كما اعتقدت -- فرصة لاستقبال المدعوين في ذلك اليوم . فأمرت مربيته بأن تلبسها ثوباً قصيراً من الحرير « إرضاء لها .. وأما أنا ، فلم تكن في حاجة إلى تغيير ملابسى ، لأننى لن أدعى لمغادرة حجرة الدراسة التى غدت « ملاذاً أرتاح إليه في أوقات الضيق » !

وكان اليوم من أيام الربيع الصافية ، المعتدلة ، التى تكثر في أواخر مارس وأوائل أبريل ، فتفيض على الأرض بهاء وكأنها تبشر بوفود

الضيف . وبدأ النهار يعسكر ، ولكن المساء كان حاراً ، فجلست في غرفة الدراسة أشتغل ، وقد تركت النافذة مفتوحة .. ودخلت مسز فيرفاكس ترفل في ثوبها ثم قالت : « لقد تأخر الوقت ، ولكنى سعيدة لأننى أمرت بإعداد الطعام بعد الموعد الذى ذكره مستر روشستر بساعة .. فهاهى ذى الساعة قد بلغت السادسة ولم يحضروا . وقد أرسلت جون ليراقب الطريق ، إذ لا سبيل إلى التطلع إلى مسافة بعيدة في اتجاه ميلكوت .. » ثم مضت إلى النافذة وقالت : « ها هو ذا ! » . وأظلت من النافذة تسأل : « هل من أبناء يا جون ؟ » .. فكان جوابه : « إهم قادمون يا سيدتى . وسيصلون بعد عشر دقائق ! » .

وجرت أدبل إلى النافذة ، فنبعتها متوخية أن أقف جانباً خلف الستائر ، بحيث أستطيع أن أرى دون أن يرانى أحد .. وبدت الدقائق العشر التى ذكرها (جون) طويلة جداً ، ولكنى سمعت أخيراً جلبة العجلات ، ثم تقدم أربعة فرسان تبعهم عربتان مفتوحتان تمثلتان بأوشحة ترقرف وريش يتأوج .. وكان بين الفرسان سيدان في زهرة الشباب ، تتجلى عليهما المرأة والجنسوة ، بينما كان الثالث مستر روشستر نفسه ، على جواده الأسود -- الذى كان يسميه (مسرور) -- وقد أخذ (بايلوت) يتواشبه أمامه .. وإلى جانبه كانت تركب سيدة ، على جواد آخر .. وكان الاثنان في طليعة الجاعة ... وكانت بزة ركوب السيدة طويلة ، تكاد تكتس الأرض ، بينما راح وشاحها الشفاف يتلاعب مع النسيم ، ويختلط بخدائل شعرها الفاحم . وصاحت مسز فيرفاكس : « مس انجرام ! » .

وهولت هابطة إلى حيث كان ينبغي أن تقف، وما لبث الركب أن استدار حول أحد أركان القصر، ثم اختفى عن الأنظار. وتوسلت أدبل إذ ذاك أن أدعها تنزل بدورها. ولكنني أخذتها على ركبتي. وأقنعها بأن من الواجب ألا تظهر أمام السيدات. سواء الآن أو قريبا بعد، إلا إذا أرسل في طلبها، حتى لا يغضب مستر روشستر. وكان من الطبيعي أن تلذف بعض الدموع عندما أبلغتها ذلك، ولكن ما إن أظهرت لها منتهى الحزم، حتى رضيت أخيراً بتجفيف دموعها.

ودوت في البهو أصوات الابتهاج.. خفيطاً متناسلاً من أصوات الرجال العميقة. ونبرات السيدات التي تشبه نغين الأجراس الفضية، يعلوها صوت سيد (ثورنيلد) الرنان وهو يحكي ضيفاته الحسنات وضيوفاه الطرفاء النازلين تحت سقفه. ثم سمعت خطوات خفيفة على الدرج. أعقبها وقع أقدام في الردهة. وضحكات ناعمة رقيقة. وضجيج فتح الأبواب وإغلاقها.. وما لبث السكون أن ران لحظة. فقالت أدبل التي كانت تتابع كل حركة بانباها: «إنهن يغيرن ملابسهن!.. ثم تنهدت وقالت بالفرنسية: «عندما كانت ماما تستضيف في بيتها أناساً. كنت أتبعها أينما ذهبت، سواء في الصالون أو في غنادعهن. وكثيراً ما كنت أنفج على النساء وهن يسرحن شعورهن أو يرتدين ملابسهن.. كان ذلك شائقاً جداً.. وبهذه الطريقة يتعلم الإنسان!..»

— ألا تشعرين بجوع يا أدبل؟

— نعم يا آنسة، فقد مضى علينا أكثر من خمس أو ست ساعات دون أن نأكل شيئاً.

— حسناً.. الآن والسيدات في غرفهن، سأجترئ على النزول لأتيك بشيء تأكلينه.

وغادرت (ماوى) في حذر، فهبطت سلماً خلفياً إلى المطبخ الذي وجدته زائراً بالخدم الذين جاءوا برقعة أسياهم.. ولكنني تمكنت من الحصول على ما أريد من طعام ثم عدت بسرعة.. على أنني ما كادت أبلغ الردهة، حتى سمعت طيناً نينى إلى أن السيدات يوشكن على مغادرة حجراتهن.. ولم يكن في وسعي أن أقدم نحو حجرة الدراسة، دون أن أمر ببعض تلك الأبواب. ولكني أتفادى أن أفاجأ بما كنت أعمل من أطعمة، تسمرت في مكانى الذي كان مظلماً— في العادة— تخلصه من النفاذ. وقد اشتدت ظلمته إذ ذاك لغروب الشمس وتجمع الغسق.

وسرعان ما أخرجت الحجرات ساكناتها الجميلات، الواحدة تلو الأخرى. وقد ارتدت كل منهن ثوباً قشياً يلتصق في الأصل. ووقفن لحظة في طرف الردهة من الناحية الأخرى، فتحدثن قليلاً، ثم هبطن الدرج في سكون، وبلا ضوضاء، وكأنهن بحاية مؤلفة تنحدر من فوق أحد التلال.. ولقد ترك هذا المنظر الجماعى في نفسى أثرًا لأنافة على القوم لم أعياه من قبل.. ووجدت أدبل تسترق النظر من فرجة باب حجرة الدراسة. بعد أن تركته موارباً، ثم صاحبت بالإنجليزية: «أوه. بودى لو أذهب إليهن.. أنظنين أن مستر روشستر سوف يرسل في طلبنا بمجرد انتهاء العشاء؟»

— كلا.. الواقع أننى لا أظن ذلك. فإن لدى مستر روشستر

أموراً أخرى تشغل تفكيره . دعى السيدات وشأتهن الليلة ، فملكت تشاهدين غداً .. هاك طعام العشاء .

وكانت في الواقع جوعانة ، ومن ثم شغل لحم الدجاج والفطائر تفكيرها فترة . ولقد أحسنت صنعاً حين أحضرت هذا الطعام ، وإلا لتعرضت أنا والفتاة وصوفى .. التي أعطيها قطعاً .. للعرمان من العشاء ، إذ كان كل إنسان في الطابق الأسفل مشغولاً عنا ، وقد استغرق العشاء وقتاً طويلاً ، فلم تقدم الحلوى إلا بعد أن جاوزت الساعة التاسعة ، ثم أخذ الخدم يهرولون بصيديات القهوة . وظلت أديل ساهرة إلى ما بعد موعد نومها ، إذ صار حتى بأن النوم لن يواتيها طالما ظلت الأبواب .. في الطابق الأرضي .. تفتح وتغلق ، والناس في هرج ومرج .. هذا إلى أنها كانت تحشى أن تأتي دعوة من مستر روشتر بعد أن تكون قد خلعت ثيابها ، وعندئذ « أية خسارة تكون ! » .. لهذا انصرفت إلى تسليتها بالقصص « حتى زهدت في الإصغاء فصحبها إلى الردهة .. وكان البهو .. في الطابق الأرضي - مضاء ، فوجدت الفتاة تسلياً في مشاهدة الخدم وهم يروحون ويغدون ، حتى إذا انقضى شطر كبير من الليل ، انبعثت من حجرة الاستقبال موسيقى من البيانو الذي نقل إليها ، فجلست وأديل على رأس الدرج نصغي . وسرعان ما ارتفع مع صوت البيانو صوت غنى الثبرات .. صوت سيدة كانت تغنى بأعذب الألحان . ثم شاركها في الغناء رجل ، فلما انتهى ذلك الثنائي تعالت الضحكات والمحادثات . ولكنني وقد أصحنت السمع طويلاً ، اكتشفت فجأة أن أذني أخذتا محللان الأصوات التي اختلطت وامتزجت » وتحاولان

تميز صوت مستر روشتر خلافاً . وعلى الرغم من أنني وفقت إلى ذلك ، فإني وجدت أمامي مهمة أخرى ، هي محاولة استيعاب ما كان يقول !

ودقت الساعة الحادية عشرة ، فتطلعت إلى أديل التي كانت تنكئ إلى كفتي ، فإذا بعينيها مغلقتان بالنوم ، فحملتها إلى فراشها . أما السادة والسيدات . فلم يأووا إلى حجراتهم إلا في نحو الساعة الواحدة صباحاً ! وكان اليوم التالي في جمال سابقه .. كرسته الجبابة لراحة إلى مكان قريب . فانطلقوا قبيل الظهر ، بعضهم على ظهور الجياد « والبعض الآخر في العربات . وشهدت الذهاب والإياب ، فوجدت أن مس انجرام ظلت .. كما كانت من قبل - قبله الانقطار .. وكان مستر روشتر يسير بجانبها على جواده .. كما كان يفعل عند قدومهما .. على مبعده من الآخرين . وأبدت تلك الملاحظة إلى مسز فير فاكس .. التي كانت واقفة معي خلف النافذة - قائلة : « لقد قلت إنه ليس محتملاً أن يفكرا في الزواج . ولكن انظري كيف يبدو واضحاً أن مستر روشتر يفضلها على غيرها من السيدات ! » .. فأجابت ! « نعم .. إنني أجرك الآن على القول بأنه معجب بها دون شك ! » .

- وهي معجبة به .. انظري كيف تميل برأسها نحوه » وكأنها تهمس إليه بسر خاص .. كم أود أن أرى وجهها « فإني لم أخه حتى الآن !

- سوف تشاهدينها هذا المساء ، فقد ألمت إلى مستر روشتر بأن أديل تهفو إلى أن يقدمها للسيدات ، فقال : « دعها تدخل إلى حجرة

الاستقبال بعد العشاء ، واطلبي إلى مس إير أن ترافقها ..

— نعم .. قال ذلك تأدباً منه فقط .. ولا حاجة بي إلى الذهاب .

— لقد أخبرته بأنك لم تتعودي الاختلاط بالناس . وأنتي لا أظنك ترناحين للظهور أمام جماعة مرحة — أكثرها من الغرباء . ولكنه أجاب بلهجة السريعة : « هراء .. إذا عارضت فأخبريها بأن هذه رغبتى الخاصة ، فإذا أصرت على الاعتراض فقولى لها إننى سأذهب وأجىء بها .. فى حالة عدم الامتثال ! »

— سأغنيه عن هذا العناء . سأذهب إذا كان لا مهرب أمامى . ولكنى سأفعل ذلك كارهة — هل ستكونين هناك يومئذ ؟

— كلا ، فقد توصلت إليه أن يعفى ، فقبلت توصلى . والآن سأخبرك كيف تتفادين الاضطراب الذى يلزم المرء حين يلج مكاناً يضطر فيه إلى تكلف الرسميات ، فإن الدخول هو أبغض ما فى المهمة : ينبغي أن تذهبي إلى غرفة الاستقبال وهى خالية — قبل أن تغادر السيدات حجرة المائدة — واختاري لك ركناً هادئاً ، اتخذى فيه مقعدك . ولا حاجة تدعوك إلى البقاء طويلاً بعد دخول السادة ، إلا إذا راف لك ذلك : فقط دعى مستر روشستر يراك هناك : ثم تسالى دون أن يراك أحد !

— هل تعتقدين أن أولئك القوم سيمكون طويلاً ؟

— ربما أسبوعين أو ثلاثة .. لا أكثر ، لأن السير جورج لين الذى انتخب أخيراً عن مقاطعة (ميلكوت) سيضطر إلى السفر إلى (لندن) بعد عيد الفصح ليتبوأ مقعده ، كما اعتقد أن مستر روشستر

سوف يرافقه : وإنه لبدعثنى أن طالت إقامته فى (ثورنفلد) حتى الآن :

■ ورحت أرقب — بشئ من الارتياح والفرح — اقتراب موعد الذهاب إلى حجرة الاستقبال ، ومعى أمانتى (أديل) التى استخفها القرح طوال اليوم ، بعد أن سمعت بأنها سوف تقدم فى المساء للمدعوآت ولم تهدأ لها نازرة إلا عندما تولت صوفى إلياسها ثيابها ، ثم سكنت سكناً تاماً عندما بدأت عملية تسوية جدائل شعرها ، فبدت فى رزاة القاضى ! .. ولم تكن فى حاجة بعد أن ارتدت ثيابها إلى أن أنبهها إلى المحافظة على هندامها ، إذ جلست فى مقعدها الصغير رصينة ، بعد أن رفعت أهداب ثوبها « حتى لا تتسخ ، ثم وعدتني بالألا تتحرك من مكانها حتى أستعد بدورى .. وسرعان ما فعلت ذلك ، بأن ارتديت أخضر ثوب لى — وهو الذى اشتريته لى مس تميل فى يوم زفافها ، وقد ظل محفظاً بجدته — ولم ألبث كذلك أن سويت شعرى ، وازيلت بعلقتى الوحيدة : الدبوس اللؤلؤى « ثم هبطنا اللوح :

ولحسن الحظ ، كان لغرفة الاستقبال مدخل آخر غير المدخل المفضى إليها من حجرة المائدة ، فوجدناها خالية ، والنيوان تشتعل فى مدافئها ، والشموع تضىء جنباتها : وكانت أديل ما تزال تحت تأثير التهيب الذى استبد بها ، فجلست صامتة لا تنفس بحرف ، على المقعد الصغير الذى أرشدتها إليه ، ثم جلست أنا بجانب قاعدة إحدى النوافذ ، وتناولت كتاباً حاولت أن أقرأ فيه .. وجاءت أديل بمقعدها عنده فجلس ،

وسرعان ما لمست ركبتي فسلّتها : « ماذا بك يا أديل ؟ » .

— هل أستطيع اقتطاف زهرة واحدة من هذه الزهور الفاخرة
يا آتسة لأنهم بها زينتني ؟

— إنك تبالغين في التكثير في زينتك يا أديل ، ولكن في ومعلك
أن تأخذى زهرة .

ثم تناولت بيدي زهرة من إحدى الزهريات ، نبّتها في وشاحها .
فتنهّدت الصعداء : « وكأنما كأس سعادتها قد أترعت » . وعندئذ أدوت
وجهي لأخفى ابتسامة لم أقو على كبتها ، إذ كان في اهتمام الباريصة الصغيرة
البالغ بشبابها ما يدعو إلى الضحك بقدر ما كان يدعو إلى الألم : وما لبثت
أن ارتفعت الأصوات الخافتة ، عندما تحركت الستارة التي تفصل بين
الغرفتين . فظهرت حجرة المائدة وقد انسكبت من ربابها الأضيواء
على طاقم اللطوى من الفضة والزجاج يشغل مائدة مستطيلة . وكانت
بعض السيدات يقفن عند المدخل ، فما أن دخلن فاعة الجلوس حتى
انسدلّت الستار خلفهن : ولم تكن السيدات يزدن على ثمان ولكن
نظهن أكثر : عندما تراحمن على الدخول . وكانت بعضهن محشوقات ،
وأكثرهن يرتدين ثياباً بيضاء ، فلما دخلن وقفت حبيبن في دماثة .
فردت واحدة أو اثنتان منهن تحيّي بلحناء الرأس . بينهما خلعت في
وجهي الباقيات . ثم انتشرن في الحجرة ، بذكرتي بخفوهن الرشيق
بسرب من الطيور البيضاء ، واضطجع بعضهن فوق الأرائك والمنكآت .
والثف البعض الآخر حول المنضدة ، وانحنين على الزهريات . ثم
أحطن بالمرقد وهن يتحدثن بأصوات خافتة ولكنها واضحة الثبرات ،



وجسابت (أديل) يتمتعها عند قهبي : وسرعان
ما لمست ركبتي ، فسلّتها : « ماذا بك يا أديل ؟ » .

ما أوحى لي بأنها عادة فيهن .. ولم أعرف أسماءهن إلا قيا بعد . ولكن في وسعي أن أذكرها الآن : فأولا ، كانت هناك مسز إيشتون وابنتاه .. وكانت السيدة ذات حسن وجهال في صباها — ولا ريب — وقد ظلت محتفظة بهما . أما ابنتاه = فكانت كبيرهما — وهي أمي — صغيرة الجسم ، متوثية الحركات ، تبدو كالطفلة في وجهها وتصرفاتها ، في حين كانت الثانية — لورزا — أطول قامة ، وأكثر أناقة . ذات وجه غاية في الجمال .. أي كانت الشقيقتان في بهاء الزينق .

أما الليدي لين ، فكانت شخصية قوية ، بديرة ، في حوالى الأربعين من عمرها ، منتصبية القامة . بادية الكبرياء ، ترتدى ثياباً غالية ، ويلتصع شعرها الفاحم تحت ريشة أزوردية اللون ، وبين طوق من المجوهرات .. وكانت مسز كولونيل دنت أقل أبهة في المظهر ولكنها كانت في صفاء النهار : ذات قامة ناعلة ، ووجه منمق رقيق ، وشعر جميل . وكانت في ثوبها الأسود الساتان وشاحها اللندلتا تعجيني أكثر من السيدة السابقة التي كانت تسبح في قوس قزح من الأضواء :

أما الثلاث الممتازات — ولعل الفضل الأول في ذلك راجع إلى طولهن المقرط .. فكان الليدي انجرام — أرملة اللورد انجرام — وابنتها بلانش وماري .. كن ثلاثهن من أشمخ الموجودات قامة .. وكانت الأرملة فيما بين الأربعين والخمسين من عمرها ، تحتفظ بجمال قدها ، وقد ظل شعرها فاحم السواد ، كما بدأ تحت ضياء الثريا على الأقل ، وكذلك ظلت أسنانتها كاملة . وكان معظم الناس يعتبرونها من أجمل السيدات بالنسبة لسنها ، ولكن هيبتها وأسايرها كانت تم عن كبرياء

لايحتمل . وكانت تقاطع وجهها رومانية ، بينما كانت عيناها تومضان بالقسوة والعنف مما ذكرني بعيني مسز (ريد) .. أرملة خالئ ! .. وكانت ابنتاه — بلانش وماري — متعادلتين في تكوين البنية . وإن كانت ماري أرفع جسماً بالنسبة إلى طولها ، بينما كانت بلانش ممثلة أشبه بديانا (ربة الصيد) ! — ولقد أخذت — بطبيعة الحال — أوليها اهتماماً خاصاً . أولا لكي أرى إلى أي مدى كانت تتفق مع ما وصفتها به مسز فيرفاكس . وثانياً لأرى كم كانت تشبه الصورة المصغرة التي رسمتها لها ، وثالثاً — وهو الأهم — لكي أرى إلى أي مدى كانت تتفق في رأيي مع ذوق مسز روشستر . وأخيراً تبينت أنها تتفق في كل شيء مع الصورة التي رسمتها ، والأوصاف التي عدهتها مسز فيرفاكس : رأس نيل . وكفان متحدرتان ، ونحو جميل . وعينان سوداوان تحيط بهما هالات سوداء .. أما وجهها فكان يشبه وجه والدتها تماماً ، ويزيد عنه شباهاً ، كما كان لها نفس الجبين المنخفض والقصبات المتعالية ، ونفس الكبرياء . ولكنها كانت تضعحك باستمرار .. وإن كانت ضحكها تضعج بالتهكم والسخرية ، تماماً كذلك التعبير الذي كان يرسم على شفتها المقوسة في زهو وعجرفة .

ويقال إن العبقرية هي الاعتداد بالنفس .. وإذا لم أستطع أن أقول إن بلانش كانت عبقرية . فلست أنكر أنها كانت شديدة الاعتداد بنفسها : فقد خاضت في الكلام عن علم النبات مع مسز دنت . ويبدو أن هذه لم تكن قد درست هذا العلم ، وإن قالت إنها تحب الزهور ولا سيما البرية منها .. أما مس انجرام — بلانش — فكانت عالمة في هذا العلم ، فأخذت

تكشف عن معلوماتها في زهو واقتحار ، ثم لاحظت أنها إنما كانت تعبت بالسيدة وتلاعب بجهلها ! .. وإن دل هذا على شيء من المهارة : إلا أنه ليس دليلاً على طيبة النفس ، وكانت تعزف بمهارة - وتغنى بصوت رخيم ، وتحديث الفرنسية بطلاقة : أما (ماري) : فكانت أرق وألطف من بلانش ، كما كانت أكثر إشفاقاً ، وأدق قسماً : وقد أوتيت بشرة أنصع من بشرة أختها التي كانت في سمره الألمانية : .. وإنما كان ينقص ماري الشعور بشوة الحياة .. كان وجهها يفتقر إلى التعبير وإن كانت عيناها تلتمعان ، ولم يكن لديها ما نقوله ، ولذلك جلست في مقعدها مخددة إلى الصمت - مسمرة في مكانها - أشبه بتمثال في محرابه .. وكانت الشقيقتان ترتديان أنصع الثياب .

أفكان لي بعد ذلك أن أعتقد أن بلانش انجرام من النوع الذي يحتمل أن يقع عليه اختيار مستر روشستر ؟ .. لم أستطع أن أجزم بذلك لأنني لم أكن أعلم بذوقه في دنيا الجبال النسوى ، ولو أنه كان يميل إلى العظمة لوجد فيها النموذج للعظمة ، فضلاً عن أنها كانت مهذبة وعلى جانب كبير من الرشاقة . ولذلك أعتقد أن معظم السادة كانوا يعجبون بها ، وأنه هو بالذات كان معجباً بها فعلاً . وبدأ لي أنني عثرت على الدليل ، ولكي أبعد آخر صحاب الشك ، تريث لأشاهد ما معاً .

ولا تحسب - أيها القارئ - أن أدبل ظلت طوال الوقت جالسة لا تتحرك ولا تريم في مقعدها عند قدمي . كلا .. فلما عندما دخلت السيدات ، نهضت ثم تقدمت للقائهن بوقار واحترام ثم قالت لهن في زفانة : « يوم سعيد ياسيداتى ! ! .. فنظرت إليهما مس انجرام ساخرة

وصاحت : « أوه .. ياها من دمية صغيرة ! » .. وقالت اليدى انجرام : « أظنها الفتاة التي يتولى مستر روشستر الوصاية عليها .. الفتاة الفرنسية الصغيرة التي كان يتحدث عنها » .. أما مسر دنت فقد تناولت يدها في رفق وطبعت عليها قبلة ، بينهما صاحبت آى ولويزا إيشتون في صوت واحد : « ياها من طفلة جميلة ! » .. ثم دعناها إلى أريكة جلست عليها ، وكادت تخفى بينهما . ثم راحت تتحدث تارة بالفرنسية ، وتارة أخرى بالإنجليزية ركيكة . ولم تسترع الصغيرة انتباه الشابات وحدهن ، بل اجتذبت انتباه مسر إيشتون واليدى لين ، ونعمت بتدليل الجميع .



■ وأخيراً . جنىء بالقهوة ودعى السادة للدخول . وغللت جالسة في ظل الستارة التي كادت تحجبني عن العيون .. ودخل الرجال بعد أن أزيحت الستارة التي كانت تفصل بين الحجرتين جانباً للمرة الثانية .. وكان دخولهم الجاعى كدخول السيدات في روعته : كانوا جميعاً يرتدون الملابس السوداء ، ومعظمهم طوال القامة ، وبعضهم في زهرة الشباب ، والواقع أن هنرى وفردريك لين كانا شعلة من نار ، بينما كان الكولونيل دنت رجلاً عسكرياً جسيلاً . أما مستر إيشتون - قاضى المقاطعة - فكان سيداً في مظهره ، ناصح الشعر ، بينما كانت حاجباه وموالبه تحفظ بسوادها . مما جعله يبدو كالوالد النبيل الذى يظهر على المسرح .. في حين كان اللورد انجرام الصغير كشقيقته في طول القامة وجمال الحيا ، وإن كان يشاطر ماري نظرتها الفاترة ، سواء في

العاطفة أو الهمة : ويبدو أنه كان يتم بطول الأطراف أكثر مما كان يتم بنشاط الدم ونشاط الذهن .

وأي مستر روشستر ؟ إنه لم يلبث أن أقبل في النهاية .. ولم أكن أنتظر إلى القبو — الذي يفصل بين حجرتي المائدة والاستقبال — ولكنني مع ذلك رأيته يدخل ، وسرعان ما حاولت أن أركز انتباهي في تلك الإبر التي كنت أجدل بها كيسي الشبكي ، وألا أشغل تفكيري بغير العمل الذي كان بين يدي ، وأن أقصر نظراتي على الخرز القضي والخيوط الحريرية التي كانت في حجرتي .. على أنني رأيت شخصه بغريزي . فلم أجد مناصاً من تذكر اللحظة التي شاهدته فيها آخر مرة .. عقب أن أدبت له ما اعتبره خدمة جليلة — فأمسك بيدي ، ثم جعل يتأمل وجهي بعينين تكشفان عن قلب مترع ، يتلهف على الإقضاء بمواطف لي فيها نصيب .. ما كان أفربنى إليه في تلك اللحظة ! .. فإذا حدث بعد ذلك وغير موقفه بالنسبة لي ؟ لكم غلونا .. رغم ذلك .. متباعدين غريبين إلى حد لم أكن أتوقع معه أن يجيء ويحدثني ، ولذلك لم أعجب عندما اتخذ لنفسه مقعداً في الجانب الآخر من الحجرة ، ثم مضى يتحدث مع بعض السيدات ، دون أن يلتفت نحوي .. وما أن وجدت أن انتباهه قد تركز عليهن ، وأن في وسعي أن أرنو إليه دون إن يلحظني ، حتى تحولت عيناى بالرغم مني إلى وجهه دون أن أقوى على السيطرة على جفونهما التي كانت ترتفع لتحديق مقلتاى فيه . ورحت أشخص إليه ، وأستشعر في الطلع إليه سروراً شديداً .. سروراً غالياً ولكنه حاد ألم .. غالباً كالذهب الإبريز ، ولكن له طوقاً كالصلب يخر ويبحث على الألم ..

سروراً كالذي يشعر به رجل أوشك أن يقضي عليه الظمأ ، فلما عبر على بئر واستطاع أن يزحف إليها ، وجدها مسممة ، ولكنه مع ذلك لم يتوان في الانحناء عليها : لينهل من مائها وكأنه جرعات قدسية مباركة !

ما أصدق القائل بأن الجمال في عين الرائي : كان وجه سيدي الشاحب الزيتوني اللون ، وجبيته الضخم ، وحاجباه البارزان الفاحان ، وعينه العميقتان ، وآساريره القوية ، وقفه الحازم المتجهم .. كانت كل هذه الملامح تتم عن النشاط والعزم والحزم . ولكنها لم تكن تكن جميلة حسب قواعد الجمال ! .. بيد أنها كانت عندى أكثر من جميلة .. كانت زاهرة بعمان وسلمان ملكا على كل نفسي واستلبا مشاعري فأسلها إلى ليقيدها ، ويفرض عليها سطوته .. لاتي لم أكن أود أن أحبه ، وإن القاري لي علم كم جاهدت لأتزع من نفسي ما عثرت عليه من بذور الحب .. ولكن هذه البذور بعثت من جديد — عندما رأيته لأول مرة بعد فراقنا — ونمت وترعرعت واستوت على سوقها .. كان يحلمني على حبه دون أن ينظر إلى !

ورحت أقارنه بشيوقه ، فاستصغرت شأن ما أوتيته آل (لين) من رشاقة وكياسة . وما كان عليه اللورد انجرام من أناقة يشوبها نعيم .. بل ماقية وجاجة الكولونيل دنت العسكرية ، بجانب ما كان يتبدى على مستر روشستر من روح ذاتية طيبة وقوة خالصة غير مجلوبة ؟ .. لم أشعر بميل أو انحناف نحو مظهرهم وأهاليهم .. وإن ميل إلى أن معظم من يرونهم لا يملكون سوى أن يصفوهم بالجاذبية ، بيد أنهم يصمون مستر

روشتري على التوب بدمامة الخلقة واكتئاب المنظر !.. ورأيت السادة
يبتسمون ويضحكون فلم يحتملني شيء من هذا ، بل خيل إلي أن لضوء
الشموع روحاً تبرز ما في ابتسامهم ، وإن في رنين الجرس مغزى يفوق
ما في ضحكهم .. ورأيت مستر روشتري يتشم : فلذا بأسأريه الكالحة
تلين ، وإذا بعينه تزدادان إشراقاً ورقة ، وإذا بأشعثها حلوة نافذة !..
وكان في تلك اللحظة يتحدث إلى لويزا وآي إيشتون . فجمعت لها إذ
كانتا تصمداً محتفظتين بهدوءهما أمام تلك النظرة التي بدت لي جد
نافذة : كنت أتوقع أن ترخبا عيونهما وأن تنفجر وجنتهما !.. على
أنني اغتبطت لعدم تأثرهما بأية حال ، وقلت في نفسي : إنه ليس
بالنسبة لما كما هو بالنسبة لي . إنه ليس على شاكلتهما ولكنه - فبا اعتد -
على شاكلتي .. بل أنا واثقة أنه كذلك ، حتى ليخيل إلي أنه من أقاربي .
لأنني أفهم لغة وجهه وحركاته .. ولئن باعدت بيننا المراتب والثروة
كل الباعد ، فإن في ذهني وقلبي ودي وأعصابي ما يربطني عنفاً به !..
فهل كان حقاً أنني قلت منذ أيام قلائل أن لا شأن لي به سوى أنني أتناول
مرتبي من يديه ؟ ألم أحرم على نفسي التفكير فيه إلا على ضوء أنه صراف
المرتب ؟.. ياله من تجديف في حق الطبيعة !.. لقد أحطته بكل شعور
طيب خالص قوى ، بدافع من نفسي ، ولكن يجب أن أخفي عواطفني
وأن أخفي أمل وأن أتذكر أنه لا يستطيع أن يحفل بي كثيراً ! وإذا
قلت إنني على شاكلته فليس معنى هذا أنني أوتيت من القوة ما يؤثر
فيه كما يؤثر هو في ، أو أنني أوتيت سحره الجذاب ، وإنما أعني فقط
أنني أشاركه في بعض الأدواق والأحاسيس ، ولذلك يجب - وأكرر

ذلك دائماً - أن نظل بعيدين منفصلين إلى الأبد ، ورغم ذلك .. فلا بد
لي من أن أحبه ما ظل لي نفس يتردد ورأس يفكر .

وقد كنت القهوة .. وكانت الحيوية قد شاعت في قلوب السيدات ،
فقدون كالتناير - بعد دخول الرجال - واستحالت الأحاديث رشيقة
طروية . وراح الكولونيل دنت ومستر إيشتون يتجادلان في أمور
السياسة : في حين مضت زوجتاها تصغيان ، بينما أخذت الأرملة
النيلتان - ليدى لين وليدى انجرام - تتسامران معاً . أما السير جورج
- الذي نسيت أن أصفقه - فكان سيداً أعظم البناء ريفي الهيئة يادى النشاط ،
وكان واقفاً أمام أريكتها وقده القهوة في يده ، وهو يفوه بكلمة بين
الثينة والأخرى . وكان مستر فردريك قد اتخذ له مقعداً بجانب مارى
انجرام ليطلعهما على نقوش مجلد فاخر ، وهى ترنو وتبتسم من حين إلى
آخر دون أن تكثر من الكلام على ما يظهر : بينما اتكأ اللورد انجرام
الفارو ، الفاتر ، بذراعيه المعقودتين على ظهر المقعد الذى جلست
فيه ليمى إيشتون الصغيرة الحسنة ، التي كانت ترفع إليه عينيها وتحدث
معه وكأنها عصفور صغير .. فقد كانت تحبه أكثر مما تحب مستر
روشتري ! - على حين جلس هنرى لين على مكتباً عند قدى لويزا ،
تشاركه أدبيل التي راح يحاول أن يكلمها بالفرنسية بينما كانت لويزا
تضحك من أخطائه :

فع من لم كانت يلاتش ؟ انجرام تسمر إذن ؟.. كانت واقفة بمفردها
أمام المتصدة ، وقد انحنت في رشاقة على (ألبوم) للصور وكأنها تنتظر
أن يسعى إليها أحد ، ولكنها لم تنتظر طويلاً : بل اختارت نفسها زميلاً

لها .. إذ كان مستر روشستر قد غادر لوزا وإيلى إيستون ووقف بمفرده أمام المنضدة من الناحية الأخرى ، فتطلعت بلانش ووقفت بجانب المدفأة ، ثم قالت : « كنت أظنك غير مغرم بالأطفال يا مستر روشستر ؟ » .

.. لست مغرمًا بهم :

.. إذن ما الذى أغراك على أن تتعهد دمية صغيرة كهذه ؟ (ثم أشارت إلى أديل واستطردت تقول) : من أين التقطتها ؟

.. لم ألتقطها ولكنها تركت بين يدي .

.. كان يجب أن ترسلها إلى المدرسة .

.. لم يكن ذلك فى وسعى . لأن نفقات المدارس باهظة .

.. ولكنك فيما أعتقد جنتها بمعلمة . فقد شاهدت شخصاً معها منذ قليل .. أتراكا خرجت ؟ .. آه ، كلا .. ها هى ذى ما تزال خلف ستارة النافذة .. إنك تستأجرها بالطبع .. وأعتقد أنهما تكلفاك الكثير .. بل الكثير جداً ، لأنك تزويجها الاثنتين !

وقد خفت - بل بالأحرى تمنيت - أن تدفعه تلك الإشارة من السيدة إلى أن يحول نظره ناحيتى . ووجدتني - على رغبتى - أزداد انكماشاً فى الظلال ، ولكنه لم يلفت عينيه . بل قال فى غير اكتراث وهو يتطلع أمامه مباشرة : « لم أفكر فى الموضوع بعد ! » .

.. كلا .. إنكم يا معشر الرجال لا تهتمون بالاقتصاد والتدبير .

ويحذر أن تسمع رأى (ماما) فى الملمات ، فقد تولى تعليمى وتعلم مارى - فيما أعتقد - لا يقل عن اثنتى عشرة معلمة فى صغرنا ، فكان

نصفهن كريهات بغضات ، والنصف الآخر سخيفات ، وكلهن هراء .. أليس كذلك يا ماما ؟

.. هل تكلميتنى يا روجى ؟

وأوضحت الشابة لأماها الموضوع فقالت : « لا تذكرى يا عزيزتى الملمات ، فإن مجرد ذكرهن يثير أعصابى . لقد قاسيت من قصورهن وشذوذ طباعهن ما لم يقاسه الشهداء . وأنا أشكر السماء التى خلصتني الآن منهن » .

وانحنت مسرذنت على السيدة (الطيبة !) ، وهمت شيئاً فى أذنها . وتبينت من الرد أنها كانت تنبها إلى وجود واحدة من هذا الجنس اللعين ، إذ قالت لليدى : « فليكن ! .. ولعلها تفيد من ذلك ! » .. ثم استطردت بصوت خافت ولكنه مازال عالياً بحيث أسمعه :

.. لقد لاحظتها ، وأنا ماهرة فى علم الفراسة وأرى فيها كل عيوب طائفتها ! .. فسلها مستر روشستر بصوت عال : « وما هى هذه العيوب يا سيدتى ؟ » . فأجابت وهى تبرز قلنسوتها ثلاث هزات وكأنها تناره بتخفورة ما لديها : « سأخبرك بها فى أذنك ! » .

.. ولكن حب الاستطلاع سوف يفتر أمام شهوى الطعام ، فإن نفسى تهو الآن للعشاء (١) .

.. سل بلانش فإنها أقرب إليك منى !

.. لا تحيله على ماما ! .. ليس لدى غير كلمة واحدة عن تلك

(١) يتناول علىه القوم فى بعض المجتمعات وجبتين فى المساء ،

أولاهما فى بداية السهرة - والثانية عندما يكتمل المساء قليلاً .

التبصيلة كلها : إنهن أذى ! ولا أعنى أنني غاسيت منهن كثيراً ، لأنني كنت أعكس عليهن الأمر ، فكلم دبرت مع (تيودور) مكائد ضد معلمائنا مس ويلسن ومسر جريز ومدام جويير ... أما ماري فكانت أكسل من أن تشارك في مكائدنا بتحمس . وكان أبداع مزاحنا مع مدام جويير ، أما مس ويلسن فكانت مخلوقة مسكينة ، بديئة ، سريعة البكاء ، كسيرة الخاطر ، وقصارى القول أنها لم تكن أهلاً لأن نتجشم عناء محاولة التغلب عليها . بينما كانت مسر جريز فظة عديمة الإحساس .. لا تتأثر بأية لظمة . ولكن مدام جويير كانت مسكينة ، ومازلت أذكرها وهي هائجة مانجة عندما أخرجنها عن طورها فأراقت شائنا وفنتت خبزنا وزبدنا ، ثم طوحت بكتبتنا إلى السقف « وأثارت شوشرة بالمسطرة والدرج وحاجز الموقد وأسياخ النار .. أنذكر يا تيودور تلك الأيام المرححة ؟

فأجابها اللورد انجرام متشدداً : « نعم . أذكرها بكل تأكيد . وكانت (العصا) المسكينة العجوز - كما كنا نسمي ملوستنا النحيلة - تصرخ : « يا لكم من أطفال أشقياء ! .. وعندئذ كنا نغفلها ألا نحاول تعليم صغار أذكفاء مثلنا ، مادامت هي نفسها جاهلة ! »

- كنا نفعل ذلك حقاً . وحل تعلم يا تيودور أنني كنت أساعدك على تعذيب واضطهاد معلمك المتفق الوجه مستر فايننج الذى أباح لنفسه أن يتبادل الحب مع مس ويلسن « وقد رأيتهما يتبادلان النظرات والتهديدات ثم انفضح أمرهما ، فطردهما ماما لسوء سلوكهما ! .. أليس كذلك يا والدتي اللبدي ؟

- بلا شك وقد أحسنت صنعاً . واعلمى أن هناك ألف سبب يدعو إلى عدم احتمال أية علاقة بين المعلمين والمعلمات في منزل تراعى فيه النظم . وأول هذه الأسباب ...

- أوه يا أبى الحناء . وفري علينا عناء تعداد هذه الأسباب فكلنا نعرفها : خطر القدوة السيئة للأطفال الأبرياء ، وتشبث الأفكار ، وما ينبجم عن ذلك من إهمال الواجب ، وما يلازم ذلك من قحة وعصيان وتفريغ عام .. هل أنا مصيبة يا بارونة انجرام ؟
.. أنت بازنبقتى مصيبة الآن .. وعلى اللوام !

- إذن فلا حاجة إلى مزيد . من القول ولنغير الموضوع :
ولكن لى لم نسمع هذه الإشارة لو لم تكثرث بها فقالت بصوت ناعم كخصوت الأطفال : « لقد اعتدت ولويزا أن تهكم على معلمتنا كذلك ، ولكنها كانت مخلوقة طيبة ، تحتل كل شيء ولا يثيرها شيء فلم تغضب منا قط . أليس كذلك بالويزا ؟ »

.. بلى يا لى .. كنا نفعل ما يروق لنا : نسطو على درجها وصدوق أشغالها ، ونقلب محتويات كل الأدراج ، ولكنها كانت طيبة القلب ، لا تبخل ولا تضن علينا بكل ما كنا نطلبه .

وقالت مس انجرام وهي تلوى شفيتها في سخرة وتهكم : « أظننا الآن قد أخذنا فكرة موزجة عن جميع المعلمات الموجودات « ولكي نتقاضي أى جزاء : أرى أن نتحول إلى موضوع آخر ، فهل تقرنى على هذا الرأي يا مستر روشستر ؟

- أنا تؤيدك يا سيدتي في هذا الرأي

- إذن سأخذ على عاتقي فتح الموضوع الآخر : حل تميل الليلة للغناء ؟
- إذا أمرت يا دونا بيانكا !!
- إن إرادتنا الملكية تقضى بأن تهبي ورتليك وغيرهما من أعضائك الصوتية ياسنيور لتكون في خدمة جلالتي !
- من ذا الذي لا يود أن يغني بمصاحبة عازفة قلبية مثلك ؟ فصاحت بلانش :
- « لست أحفل بالمغني .. لأنني أعتقد أن عازف الكمان (دافيد) شخص موهوب ولا بد . على أنني أحب بونويل الأسود . ففي رأيي أن لا قيمة للرجل مالم يبيت فيه الشيطان بعض الفضل .. وليلق التاريخ ما يقول عن جيمس هيبورن — مثلاً — فإني أراه عين البطل المنوحش . القاسي ، قاطع الطريق ، الذي لا أتردد في أن أقبله زوجاً ! .. فصاح روشستر : « أسمعون بإسادة ؟ » من منكم إذن يشبه بونويل ؟ » فأجاب الكولونيل دنت : « أظن الاختيار قد وقع عليك بالذات ! » — أشكرك كثيراً .

* * *

■ وفي بهاء وجلال ، جلست مس إنجرام إلى البيانو « ونشرت ثوبها الناصع الفضفاض حولها كأنها ملكة » ثم أخذت توقع مقدمة رائعة ، وهي تحدث في الوقت نفسه ! وكانت — في تلك الليلة — تبدو شديدة الاعتماد وترمي من وراء كلماتها وحركاتها إلى أن تبهر المستمعين — لا أن تبهر إعجابهم فحسب ! .. كان جلياً أنها تعتمد إلى النفاذ بالإنعام

والجراءة في الرأي ، لتذهلهم . فقد صاحبت وهي ما تزال تعزف على البيانو : « أوه . لقد شمت شبان اليوم !! — إنهم مخلوقات مسكينة .. لا يصلحون لأن يخطو الواحد منهم خطوة واحدة ، أبعد من حديقة (بابا) ، ولا حتى أن يبلغ باب هذه الحديقة إلا بإذن من (ماما) وتحت رعايتها ! .. إنهم مخلوقات تافهة ! .. يستغرقهم الاهتمام بوجوههم الجميلة ، وأيديهم البضة : وأقدامهم الصغيرة ، كما لو كان للرجل شأن بالجلال ! .. وكأنما الرشاقة ليست امتيازاً مقصوداً على المرأة ، وحقاً مشروعاً من حقوقها : وميراثاً موقوفاً عليها .. لأنني أعتبر المرأة العديمة وصمة في جبين الخليفة الجميل .. أما الرجال فيجب ألا يشغل خواطرهم سوى أن يكونوا أقوياء وشجعان . وليكن شعارهم : « العسيدة والقتال » ! أما ما عدا ذلك فلا يساوي قلامة ظفر . هذا هو نهجى أو أنني كنت رجلاً ! .. وتوقفت عن حديثها لحظة ، لم يقاطعها فيها أحد : ثم استرسلت تقول : « لأنني مصممة على ألا يكون زوجي — إذا ما تزوجت — منافساً لي ، وإنما يجب أن يكون سيفاً مشحوداً ، فلست أطيق أن يزاغني على عرشي ، ولا أن يقسم عواطفه بيني وبين الصورة التي تطالعه في المرأة . والآن ، غنى يا روشستر » وسأعزف لك : .. فكان جوابه : « كلى طاعة ! » .

— ها هي أغنية قرصانية ، ولتعلم أنني مشغولة بالقرصنة .

— إن أوامر تلقينا شفتا مس إنجرام كفيلة بأن تبعث روحاً وحياة في وعاء من اللبن والماء .

— حذار إذن من ألا يروق في غناؤك فأخجلتك بأن أريك كيف
تغني هذه الأغنية ؟

— إنما هذا إغراء بالعجز ، ولذلك سأحاول ألا أوفق ؟

— اجعل بالك إلى أنك لو أخطأت عامداً متعمداً ، فسوف ابتكر

عقوبة مناسبة !

— على مس إنجرام أن تكون حليلة ، لأن في وسعها أن توقع

عقوبة لا يحتملها بشر .

.. ها .. أوضح .. فسر !

— معللة يا آنسة .. لا حاجة إلى شرح ، إذ ينبغي على إحساسك

المرهف أن يغريك بأن تقطيع واحدة ، تغني عن عقوبة الإعدام .

فصاحت : « غن ! » .. ثم لست البيان مرة أخرى ، وراحت

تصاحبه وهو يغني بإيقاع زاهر بالحياة .. وقلت في نفسي : « حان أن

أنتسل إلى الخارج ! » .. ولكن الصوت الذي نخلال الخنصر في مكاني .

لقد أخبرتني مسز فيرفاكس أن مستر روشستر عذب الصوت ،

والواقع أنه غنى بصوت رخيم قوى عميق ، ألقى فيه شعوره وقوته

فنبذا من الأذن إلى القلب ، حيث أيقظ الأحاسيس بصورة عجيبة ..

وانتظرت حتى انتهت آخر النبرات العميقة الزائفة . وعاد الحديث

يتدفق من جديد ، بعد أن كان قد توقف لحظات . وعندئذ بارحت الركن

الذي كنت ألوذ به ، وخرجت من الباب الجانبي الذي كان لحسن

الحظ على مقربة مني ، ثم أفضى بي ممر ضيق إلى البهو . وفيما كنت

أجتازه تبين لي أن صندلي مفكوك ، فتوقفت لأربطه . وركعت من

أجل ذلك على بساط عند أول الدرج . وسمعت باب قاعة المائدة يفتح ،
ليخرج منه أحد السادة . وعندما بهتت على عجل ، وجدتي وجهاً
لوجه معه .. مع مستر روشستر ، الذي سألتني : « كيف حالك ؟ »

— بخير يا سيدي .

— لماذا لم تأتي وتحدثيني في قاعة الاستقبال ؟

ونكرت في أن ألقى عليه نفس السؤال ، ولكنني لم أشأ أن أمنح

نفسي تلك الحرية فأجبت : « لم أشأ أن أضايقك ، لأنك كنت مشغولاً

يا سيدي » .

— ماذا كنت تفعلين أثناء غيابي ؟

— لا شيء بالذات .. كنت أعلم أدبيل كالمتعاد »

.. وكنت تزددين شجوباً عما كنت عندما رأيتك لأول مرة !

ماذا جرى ؟

— لا شيء مطلقاً يا سيدي .

— هل أصابك برد في تلك الليلة : عندما كدت تغريقيني ؟

.. كلا إطلاقاً .

— عودي إلى قاعة الاستقبال ، فإني غادرتها مبكرة جداً .

— أنا متعبة يا سيدي .

فتأملني لحظة ثم قال : « ومكتئبة هزناً ما .. لماذا ؟ أخبريني ! »

— لا شيء .. لا شيء يا سيدي . لست مكتئبة ؟

— ولكنني أؤكد لك أنك كذلك .. مكتئبة جداً بحيث تكني بضع

كلمات أخرى لأن عملاً عينيك بالتمعن .. بل إنها عملاً في الواقع :

وتلتزم فيها وتسبح ، وهامى ذى دعة تسلك خلال الأهذاب وسقطت على الأرض . ولو كان لدى متسع من الوقت ولا أخشى أن يمر بنا خادم رثار ، غر ، لعرفت ماذا يعنى كل هذا ! .. حسناً ، سأنتس لك العذر الليلة » ولكن اعلمى أن عليك أن تظهرى بحجرة الاستقبال كل مساء . هذه رغبتى فلا تهملها . والآن اذهبي وأرسلى صوتى إلى أدبل . طابعت ليلتك يا ...

ثم توقف عن الكلام » وعض شفته وغادرنى فجأة !

الفصل الثامن عشر

● كانت هذه الأيام فى قصر (ثورنيلد) مرحلة طروباً ، بقدر ما كانت زاخرة بالعمل والنشاط .. وكـ كانت تختلف كل الاختلاف عن الشهور الثلاثة الأولى التى قضيتها تحت سقف ذلك القصر فى سكون وتواتر رتيب ممل ، وعزلة موحشة . وخيل إلى أن جميع المشاعر الحزينة قد أقصبت إقصاء عن القصر ، وأن كل الإحساسات الكثيرة قد أجابت وتنوسيت ، لتحل محلها الحياة النابضة فى كل مكان . ولتشجيع الحركة طوال كل يوم .. ولم يعد فى وسعك الآن أن تتجاوز الردهة التى كانت فيها مقضى ساكنة هادئة ، أو تدخل الحجرات الأمامية . التى كانت يوماً ما مختالية من الناس ، دون أن تلقى وصيفة رشيفة لإحدى السيدات ، أو وصيفاً غندوراً لأحد السادة .. وكذلك كان المطبخ ومخزن الساقى وقاعة الخدم والهو الأمامى ، كلها زاخرة بالحياة . ولم تكن غرفات الاستقبال لتخلو وتهيج إلا عندما ينطلق سكانها إلى الحلاء بدعوة من

السماء الزرقاء والشمس الهادئة فى ذلك الربيع السبيع : وحتى عندما كان الطقس يعتكر : وعندما كانت السماء تعطر أرباباً بلا انقطاع ، لم تكن أية رطوبة تقوى على أن تصد المدعوين عن الاستمتاع بإقامتهم . إذ سرعان ما كانت تتضاعف ضروب القسلبية المترتبة وحدها وتقبان ، بسبب توقف أسباب اللهو فى الخارج :

ونقد تساءلت عما كانوا موشكين أن يفعلوا فى أول مساء رؤى فيه تغير ما اعتادوا من أسباب القسلبية . فإذا بهم يتحدثون عن التلنو بالألفاظ والأحاجى . غير أنى لجهلى لم أفهم ما كانوا يقصدون .. وسرعان ما استدعى الخدم . ونقلت موائد حجرة الطعام . ونظمت الأنوار تنظيماً جديداً . ووضعت المقاعد على هيئة نصف دائرة فى مواجهة القبو الذى كان يفصل بين الحجرتين .. وبينما كان مستر روشستر وسائر السادة يشرفون على هذه التغييرات ، هرعت السيدات يذرعن المرحج صاعداً نازلات ، وهن ينادين وسيفاتهن ، كما استدعيت مستر فيرفاكس لتدلى معلوماتها عما فى القصر من أوشحة وملابس وأقشعة من كل نوع . وفقت صواوين (خزانات) خاصة فى الطابق الثالث ، ثم أخرجت محتوياتها من (جونيولات) ، وشاة مستديرة كالأطواق : وأزياء سوداء وغلالات حريرية : وثياب ذات أهذاب مزركشة بالتتلا .. إلى غير ذلك من أشياء أرسلت إلى الطابق الأرضى مع الخادما ، فاخترت منها مجموعة أرسلت إلى مقصورة تتصل بحجرة الاستقبال .. فى تلك الأثناء : عاد مستر روشستر يستدعى السيدات لينتفنح حوله ، وشرع يختار من بينهن عدداً تتألف منه فرقة : وهو

يقول : « ستكون مس انجرام من زمرك بطبيعة الحال ! » ثم اختار أخبارات من آي إيشتون وشقيقها لويزا ومسر دنت ، وبعد ذلك التفت إلى ... وكنت بالمصادفة قريبة منه أثبت لمسز دنت مشبك سوارها الذي كان قد انفك - فسألني : « هل تلعين ؟ » .. وهزرت رأسي راقضة ، فلم يلح . وكنت أخشى أن يفعل ، ولكنه تركني أعود في هدوء إلى مقعدى المعتاد ، ثم انسحب مع زميلاته خلف الستار ، بينما جلست الزمرة التي يرأسها الكولونيل دنت على المقاعد التي صفت على شكل هلال . ولحقني مسر إيشتون « فاقترح - على ما بدا - اشتراكى معهم ، ولكن الليدى انجرام رفضت الاقتراح على الفور ، إذ جمعتها تقول : « كلا .. إنها تبدو من الغباء بحيث لا تستطيع الاشتراك في لعب من أى نوع » .

وقبل أن تنقضى فترة طويلة ، دق الجرس وارتفعت الستار : ومن خلال القهو ، شوهاد السير جورج لين . الذى كان مسر روشتر قد اختاره ضمن فريقه ... وقد التفت بملامحة بيضاء ، وانفتح أمامه على إحدى المناضد كتاب ضخم ، ووقفت بجانبه آي إيشتون تندثر بعبارة مسر روشتر ، وتمسك في يدها كتاباً آخر .. وقورع الجرس في مرح شخص لم نره ، وإذا بالصغيرة أدبل - وقد أصرت على أن تكون من فريق الوصى عليها - تب إلى الأمام ، فتشر حولها الزهور من سلة كانت تحملها على ذراعها ، ثم ظهرت مس انجرام بقماتها البديعة ، وقد ارتدت حلة بيضاء واتشح رأسها بوشاح طويل والثف حول جبينها لإكليل من الورد ، وإلى جانبها كان يسير مسر روشتر ، ثم اقتريا معاً وركعا

أمام المنضدة ، بينما اتخذت مسز دنت ولويزا إيشتون مكانيهما خلفهما ، وقد ارتدتا ملابس بيضاء . وتلا ذلك احتفال ضامت كان من السهل أن تتبين فيه حفلة زواج ما أن انتهت حتى تشاور الكولونيل مع أفراد زموته متهمسين ثم صاح الكولونيل : (عروس !) .. وإذ ذلك انحنى مسر روشتر ، وهبط الستار ، إذ عرف فريق الخمنين الكلمة التي أريد بالمنظر أن يرمز إليها !

● وانقضت فترة غير وجيزة ، قبل أن ترتفع الستار مرة أخرى . وكشف ارتفاعها في هذه المرة عن منظر أكثر تنسيقاً من سابقه ، إذ لاحظت أن حجرة الاستقبال قد رفعت درجتين عن مستوى غرفة الطعام ووضع على قمة الدرجة العليا حوض كبير من الرخام عرفت فيه أحد الأحواض التي تزين البيت الزجاجي في الحديقة ، ولابد أنهم تكبدوا عناء في نقله ، لكبر حجمه وثقله ! .. وبجانب هذا الحوض - شوهده مسر روشتر جالساً على البساط ، وقد ارتدى أوشحة - ووضع على رأسه عمامة ! - وكانت عيناه الحالكتان ولونه الأسمر وأساوره الشرقية ، توائم ثيابه كل الموائمة ، فهذا نموذجاً رائعاً لأمير شرقي . وسرعان ما ظهرت مس انجرام وقد ارتدت بدورها ثوباً شرقياً ولفت حول خصرها وشاحاً قرمزي اللون وعقدت حول رأسها منديلاً موشى ورفعت إحدى ذراعيها البضتين لتسند بها حجرة وضعت برشاقة على رأسها ، فكانت أشبه بأميرة يهودية في الطهارة القديمة بغير أي مظاهر

وجهاها ولون بشرتها وشكلها العام .. وكان ذلك هو اللور الذى تود بلاريب أن تمثله .

واقتربت من الحوض وانحنت عليه وكأنها تتأهب لثقل جرتها ، ثم رفعت رأسها مرة أخرى ، فظواهر الجالس إذ ذاك على حافة البئر بأنه يخاطبها ويلتمس منها شيئاً ، فبادرت تنزل جرتها على يدها وتقدمها له لبشر ، وعندئذ أخرج من صدر ثوبه علبة فتحتها وانترع منها أساور وقرطين ، فظاهرت بالدهش والإعجاب ، ثم ركعت فوضع الحلل الغالية عند قدميها ، وثبت الأساور حول ذراعيها . والقرطين في أذنيها .. تماماً كالمشهد الذى ورد في قصة (عازر) و (رفقہ) - في التوراة - لا تنقصه سوى الإبل !

ومرة أخرى تلاصقت رؤوس لثة المتكهنين .. وكان جلياً أنهم لم يتفقا على الكلمة أو العبارة التى يصورها ذلك المشهد ، وأخيراً تساءل الكولونيل دنت : « لوحة الكل ٢ » ، وإذ ذاك نزل الستار مرة أخرى .. وعندما ارتفعت لثالث مرة لم يظهر من غرفة الاستقبال سوى جزء منها ، وحجبت الباقى ستار من قماش داكن خشن .. وكان الحوض قد نقل لتوضع في مكانه متصددة من خشب أبيض ومقعد من مقاعد المطبخ ، يكشفهما للأنظار نور خافت ينبعث من مصباح ذى غطاء من (الباغة) ، بعد أن أطفئت جميع الشموع . ووسط هذا المنظر المتواضع ، جلس رجل وقد اتكأ على ركبتيه يبدى مقبوضتين . مطرقاً إلى الأرض ، فعرفت فيه مستر روشستر على الرغم من وجهه الملوث وملابسه المشعث - إذ كان معطفه يتدلى عند إحدى ذراعيه كما لو كان قد تمزق ظهره في عراك -

وعلى الرغم من أساوره البائسة المنجھمة ، وشعره الكث المنتفش ، مما كاد يخفى معاملة - وفيما كان يتحرك سمعنا صليل سلسلة تكبل قدميه ومعصميه . وصاح الكولونيل : « إصلاحية ١ » .. وهذا انحل اللز .

ثم انقضت فترة كافية لأن يستعيد المثلون ثيابهم العادية ويرجعوا إلى حجرة الطعام ، ودخل مستر روشستر يقود مس انجرام التى كانت تطرى براعته في التثيل قائلة : « أعلم أنتى لم أحبك بقدر ما أحبيتك في شخصيتك الثالثة ؟ .. أى قاطع طريق شهم مغوار كان يحتمل أن تصبح لو أنك كنت في سن نضج عن سنك بضع سنوات ؟ » .

فسألهما وهو يحول وجهه نحوها : « هل زال كل السناج عن وجهي ؟ » . - نعم للأسف . فما يرى له أن لا شيء يناسب مع أديم وجهك مثل هذا الطلاء الذى يتم عن إجرام !

- إذن فأنت تسمين بطلا يكون من قطاع الطرق ؟

- إن بطلا إنجليزياً من قطاع الطرق يلى في الأهمية عندى قاطع طريق إيطالى ، ولا يبرهما سوى قرصان من الشرف .

- حسناً . مهما أكن فلا تنسنى أنتى زوجك ، بعد أن عقد قراننا منذ ساعة أمام جميع حؤلاء التهود !

فتقهقمت عالياً وقد تضرجت وجنتاها . واسترسل مستر روشستر يقول : « والآن جاء دورك بادنت ١ » .. وما أن انسحبت اللثة الأخرى حتى احتل روشستر وفرقة الأماكن الشاغرة . فجلست مس انجرام على عيني زعيمها ، بينما ملأ المتكهنون الآخرون سائر المقاعد على جانبيهما . ولم أعد إذ ذاك أقرب الممثلين ، ولا عدت أنتظر رفع الستار في لحظة

وشوق ، وإنما استأثر المتفرجون بكل انتباهي .. وأخذت عيناى تنجذبان على الرغم منى - ودون أن أملك مقاومة - نحو المقاعد المصطفة فى نصف الدائرة ، بعد أن كانتا عالقَتين بالقوى الذى يفصل بين القاعدتين .. بل لئن لم أعد أفقه أى مشهد كان الكولونيل وفريقه يمثلونه ، ولا أية كلمة وقع عليها اختيارهم ، ولا كيف انطلقوا بعد ذلك .. ولكنى ما زلت أسمع المشاورة التى كانت تعقب كل مشهد - وأرى مستر روشستر وهو يستدير إلى مس الجرام ، وأراها وهى تستدير له ، كما شاهدتا وهى تميل برأسها حتى تمس كتفه بمجداتها الفاتحة وتترك خصلاتها تنموح على وجنته ! .. والحق أننى ما زلت أذكر حتى الآن بعض ما شعرت به فى تلك اللحظة إزاء ذلك المنظر .

ولقد أخبرتك .. أيها القارئ - أننى تعلمت أن أحب مستر روشستر : لم يكن فى وسعى ألا أمضى فى حبه مجرد أننى وجدته يكف عن الاهتمام بى ، أو لأننى كنت أنفضى ساعات فى حضرته فلا يعول عليه سوى مرة واحدة ، أو لأننى رأيت كل اهتمامه قد استحوذت عليه سيدة عظيمة ترأى أن يحسنى طرف ثوبها أثناء مرورها ، وتبادر فتشيع بعينها السوداوين عن وجهى إن اضق أن وقعنا على وكأنا كانت تحولها عن شىء أحقر من أن يستأهل أية ملاحظة أو اهتمام .. نعم ، لم أقو على أن أكف عن حبه مجرد أننى تأكدت من أنه لن يلبث أن يتزوج من هذه السيدة بالذات ، ولا لأننى كنت أقرأ يومياً نواياه نحوها فيما كان يبدو عليها من اطمئنان متعجرف ، ولا لأننى كنت أشهد منه نحوها فى كل ساعة ضرباً من التودد ، يبدو قاتراً ، ويرى

إلى حملها على أن تجرى هى وراءه ، إلا أنه كان فى فتوره أسراً .. وفى عجزته جارفاً لا سبيل إلى مقاومته !

● لم يكن فى هذه الظروف ما يختلف من وقدة الحب أو يقصيه .. بل كان فيها ما يدعو لليأس والقفوط . ولعل القارئ يرى فى كثير من هذه الظروف ما يثير الغيرة ، إذا كان فى وسع امرأة فى مكانى أن تغار من امرأة فى مكان مس الجرام . ولكنى لم أكن غيوراً أو أننى لم أشعر بالغيرة إلا فيما ندر ، لأن طبيعة الألم الذى كنت أقاسيه لا تنطوى على شىء من معنى هذه الكلمة .. لقد كانت مس الجرام تحت مستوى الغيرة ، أى أضعاف من أن تثير هذا الشعور « ومعذرة لهذا القول الذى يبدو متناقضاً فى ظاهره ، فإننى أعنى أن أقول : إنها كانت رائعة فى مظهرها . ولكنه لم يكن مظهرها أصيلاً غير مجلوب . وكانت حسناء ذات معلومات عديدة مشرقة » ولكن عقلها كان خلوياً بقدر ما كان قلبها مجدياً بطبيعته ، لا تتفتح فى تربته زهرة من تلقاء نفسها ، ولا يتبع ثمرة إلا عنوة واصطناعاً .. أجل ، لم تكن طبيعة للنفس ، ولا صادقة فى مظهرها ، ولقد كانت تردد ما تقرأه فى الكتب من عبارات طنانة ، دون أن تعرض رأياً أو تكون لها فكرة خاصة ، كما كانت تتظاهر بالإحساسات المرفهة دون أن تعرف كيف تعطف وترقى لأنها مجردة من الصدق والخنان . ولعلنا كما كشفت عن هذه الحقيقة بما كانت تنفس به - دون داع - من كراهية حقود الصغيرة أدبل « فكانت تدفعها بغلظة واحتقار

الترتيب فيها مصادفة .

بل إنها كانت تطرد ما أحياناً من الحجرة وتعاملها على الدوام ببرود وخشونة . وكانت عيون أخرى غير عيني ترقب هذه الظواهر الخلقية عن كتب وباهتمام ودقة .. نعم كان مستر روشستر — عريس المستقبل بالذات — يفرض رقابة مستمرة على العروس المزمعة . ومن هذه الفطنة ، وهذا الحذر ، وهذا الوعي منه لعيوب حسائه ، كان ينبع الألم الذي راح يفتني .. فقد رأيت أنه سوف يتزوجها لاعتبارات عاطفية ، وربما لأسباب سياسية . لأن مركزها وعلاقتها كانت تلامحه ، وشعرت بأنه لم يمنحها قلبه . لأن مؤهلاتها لم تكن جديرة بأن تقوِّم بهذا الكثر منه . وكانت هذه هي النقطة ! .. النقطة التي مست الأعصاب وأثارتها .. النقطة التي أكدت الحمى وغلبتها . أي أنها لم تستطع أن تغلب له وتستوى قلبه !

ولو أنها وفقت إلى الظفر في الحال . فخضع واستسلم لها ووضع قلبه عند قدميها ، لغطيت وجهي واستندت إلى الجدار ، ولآثرت الموت .. على سبيل المجاز .. من أجلهما .. ولو أن مس انجرام كانت امرأة طيبة نبيلة ، وهبت القوة والحكمة والحنان والعقل — لو وجدتني في نضال مع محرمين : الغيرة والفضول ! .. كنت إذ ذاك لا أملك إلا أن أعجب بها — ولو تمزق قلبي وتبدد — اعترافاً بتفوقها ، ولقضييت بقية أيامي في هدوء وسكينة .. وكلما زاد تفوقها المطلق ، تضاعف إعجابي بها وميلتي للحياة المسادة . أما وقد كانت الأمور على ما ذكرت ، فإن مشاهدة جهود مس انجرام لتفتن مستر روشستر ، ومشاهدة ما كانت تنمي به من فشل .. فشل لم تكن تفطن إليه ، وإنما كانت تخال أن كل

رمية كانت تصيب المرمى ، فكانت ترددي مغفرة بأنها نجحت . في حين أن كبرياءها واعتدادها بنفسها كانا يقضيان عنها الرجل الذي شاعت أن تقتنصه وتستويه .. كانت مشاهدة هذا كله ، تسلمني إلى انفعال لا ينقطع . وإلى كبت لا يرحم ! .. ذلك لأنني كنت أرى — عندما فشلت هي — كيف كان في وسعها أن تنجح ، فإن السهام التي كانت ترتطم بصدر مستر روشستر ثم تسقط عند قدميه دون أن تنال منه . كانت خليقة بأن تهز قلبه المتكبر ، وأن تبعث الحب في نظراته العاسية . وأن تلين من وجهه الساخر ، لو أن اليلدين اللتين أضلعتها كانتا أبرع وأكثر ثباتاً من يدي مس انجرام .. وأكثر من هذا . أن غزو قلب مستر روشستر كان ميسوراً دون ما أسلحة !

ورحت أسائل نفسي : « لماذا لا تقوى على أن تكون أكثر تأثيراً عليه . وقد تسنى خبا أن تقترب منه إلى هذا الحد ؟ » . إنها ولا شك لا تستطيع أن تحبه حباً صادقاً « ولا تستطيع أن توليه قلباً زائحاً بالحُب ، وإذن فلا حاجة بهما إلى رسم الابتسامات على شفاهها بهذا الإسراف . ولا إلى بذل نظراتها دون ما حساب ، ولا إلى اصطناع هذه المظاهر البالغة الإتقان . وهذه الرشاقة المتعددة الألوان .. وإنما يتجلى إلى أنها تغدو أقرب إلى فزاده ، لو أنها جلست ساكنة بجانبه ، واقتصدت في كلماتها ونظراتها .. ولقد شاهدت في وجهه آيات جده مختلفة عن هذا التجهم الذي يعلوه الآن ، وذلك عندما كانت تخاطبه في مرح منبهت دون ما تكلف أو افتعال ، وصادر عن غير اصطناع وتزييق ومناورات مرسومة . إنني لم تكن أكثر من تعجب من مواقف

على علائها .. فتجيب - عندما يسألها - في غير تظاهر ، وتخطبه ، عندما تدعو الحاجة ، دون اصطناع الابتسام .. قتل هذا الملك لا يلبث أن ينمو ، ويزداد رقة ، ويملاً قواد المرء دفناً وإشعاعاً ! .. ترى كيف سيتسنى لها أن ترضيه إذا ما أصبح زوجين ؟ .. ما أظنهما سيوفنان في ذلك .. ولكن ، لا بد من التوفيق .. إن في وسع المرأة التي تتزوج منه أن تغدو أسعد الزوجات في الدنيا ! ..

* * *

■ إنني لم أذكر حتى الآن أي شيء بنم عن استنكار لاعتزام ماستر ووشستر الزواج من أجل المصلحة وروابط النسب .. والحق أنني دهشت عندما اكتشفت أن تلك كانت نيته ، لأنني كنت أظنه رجلاً لا يتأثر بمثل هذه العوامل المستهجنة في اختيار زوجته . على أنني كنت كلما أمنت التفكير في مركزهما وتعليمهما وما إلى ذلك ، أزداد شعوراً بأنني غير محقة في الحكم عليه أو على مس انجرام ولومهما على إقدامهما على التصرف وفقاً لأراء ومبادئ غرست - ولابد - في نفسيهما منذ الطفولة .. كانت كل طبعتهما تدين بهذه المبادئ ، وأعتقد أنها تنشب بها لأسباب من نوع لا أملك أن أتصوره .. وخيل لي أنني لو كنت سيداً مثله ، ما ضمنت إلى صدرى سوى امرأة أستطيع أن أحبها . ولكن وضوح الميزات التي يجد فيها الزوج سعادته الشخصية من وراء هذا الرأى أقتضى بأنه لابد هناك من حجج وبراهين أجعلها ، تصد عن الأخذ به ، وإلا لعمل الناس بمثل ما أريد . على أنني ما لبثت أن بدأت أزداد تسامحاً مع مخدومي في نقاط أخرى ، كما فعلت في هذه

النفقة ، فتناميت العيوب التي كنت أحصياها عليه : فقد كنت - من قبل - أحاول أن أدرس أخلاقه من كل النواحي - الطيبة والخبيثة - لأزنها وأصدر عليها حكماً عادلاً ، ولكني الآن لم أعد أجِد فيها ما هو خيِّث على الإطلاق . وغدت روح الحكم التي كانت تنفرتني ، وروح الجفاء التي كانت يوماً ما تزوعني ، أشبه فقط بتوابل حريفة في طبق شهي ، وجودها لاذع ولكن غيابها يجعل الطبق (ماضاً) غير مستساغ ! .. أما ذلك الشيء المليم الذي لم أكن أدرى أكان يعبر عن شر أم عن أسمى ، وعن عزم أم عن قنوط ، والذي لم يكن يلصحه سوى الرقيب المتفرس : إذ كان يومض في عينيهِ من وقت لآخر ثم يبتحي قبل أن يسهر المرء ما يكشف عنه من أغوار : ذلك الشيء الذي كان يجعلني أوجس وأنكش وكأنني أنجذب بين تلال بركانية ، وأشعر بالأرض ترتجف وتغير أفواهاها .. ذلك الشيء ، ظلت أراه من حين إلى آخر بقلب واجف ، ولكن دون أن تشل أعصابي ؛ وبدلاً من أن أجفل منه أصبحت ألهف عليه وأنكهن به ، ونحلت أن مس انجرام سعيدة لأنها قد تصل يوماً إلى أعماق تلك الأغوار السحيقة - الكامنة وراء عينيهِ - فتكشف على مهبل عن أسرارها وتحلل طبيعتها : وفيما كنت أقصر تفكيرى عليه وعلى سياتي وعروسه المستقبلة - لا أرى غيرهما ولا أسمع سوى حائثهما ولا أحفل بغير حركاتهما - كان بقية المدعوين منهمكين في شئونهم الخاصة ومسراتهم ؛ فكانت السيدتان لين وانجرام ماستر ملتصقتين في حديثهما الهادئ ، وهما يتبادلان الإيماءات بعمائمهما ، وترفعان أيديهما الأربع عندما تعبران عن الدهش أو عن سر غامض أو فرح ؛

تبعاً لما كان يتخلل الحديث ، وتجري به الترتبة ، وكأنهما دميستان
مكبرتان ١.. أما مسر دنت الوداعة فكانت تتحدث مع مسر إيشتون
الطيبة القلب ، وكأنها - فى بعض الأحيان - تمنحني كلمة مجاملة
أو ابتسامة ملاطفة ، بينما كان السير جورج لين والكولونيل دنت
ومستر إيشتون يتناقشون فى الأمور السياسية أو شئون المناظرة أو العبالة ،
فى حين كان اللورد انجرام يغازل آنى إيشتون ، ولويزا تعرف وتغنى
مع أو لأحد ولدى السيد جورج لين .. وكانت مارى انجرام تصفى
فأتره إلى حديث الابن الآخر . وكان الجميع يتفقون - أحياناً - على
أن يكفوا عن ألعابهم ولهم ليراقبوا ويصنفوا إلى الممثلين الرئيسيين .
على أن مسر روشستر ومس انجرام - الوثيقة الارتباط به - كانا
روح الزمرة .. وكان إذا تغيب هو عن الحجرة ساعة واحدة ، جثم
الوجوم على نفوس الضيوف ، فإذا عاد ، ارتدت للأحاديث تشوتها
ودبت فيها الحياة .

وقد تجلبت الحاجة ملحة إلى تأثيره المنعش ، عندما دعى ذات يوم
إلى (ميلكوت) فى بعض الأعمال ، ولم يكن من المرتقب أن يعود
إلا فى ساعة متأخرة .. وكان الأصيل مطراً . وكان من المنفق عليه أن
يلهب المدعوون على الأقدام للفرج على إحدى خيام الفجر التى
أقيمت حديثاً على كسب من قرية (هاى) ، فرؤى العدول عن هذا
المقترح ، ومضى بعض الرجال إلى حظائر الخيل . وصعد الشبان
والشابات إلى غرفة البليارد ، وجلست اللىدى انجرام تلعب الورق مع
اللىدى لين ، بينما رفضت بلانش انجرام كل محاولة بذلتها مسر دنت

ومسر إيشتون لتحملها على مبادلتهما الحديث ، ثم عزفت على البيانو
بعض ألحان عاطفية ؛ ولكنها ما لبثت أن جاءت من المكتبة برواية ،
وألقت بنفسها على أريكة لعل سحر القصة يلهيها عن السأم الذى استشعرته
فى غياب زميلها . وكانت الغرفة والقصر يرزحان تحت وطأة السكون ،
فما عدا أصوات طروب تنبعث من حين إلى آخر من غرفة البليارد :

■ وتهادى القمى ، ودقت الساعة تنبه إلى أن الوقت قد حان
لارتداء ثياب العشاء ، وإذا بأديبل تصيح فجأة وهى جاثية بجاني على
قاعدة النافذة بعجرة الاستقبال : «ها هو ذا مسر روشستر قد عاد» .
فاستدردت ، واندفعت مس انجرام من أريكته . وشرأبت كذلك
أعناق الآخرين من حيث كانوا يجلسون ، عندما سمعت جلجلة عجلات
ووقع حوافر جياد على الطريق المغمورة بالمياه .. ثم اقتربت عربة
للبريد ، فقالت مس انجرام : «ماذا جعله يعود بهذه الوسيلة ١٢ .. لقد
كان يركب جواده الأسود (مسرور) عندما رحل . أليس كذلك ؟
وكان معه بايلوت .. لماذا فعل بالحيوانين ؟ »

وتقدمت - وهى تقول ذلك - نحو النافذة بقامتها الفارعة وثيابها
الطويلة ، مما اضطررى إلى الانحناء حتى كاد ظهرى أن يتقصم . وكانت
شدة فقها قد حالت دون أن ترائى ، فلما أحسّت وجودى زمت شفتيها
وانجهجت إلى نافذة أخرى . وتوقفت عربة البريد ودق السائق جرس
الباب ثم هبط سيد يرتدى بزة السفر ولكنه لم يكن مسر روشستر
ولما كان رجلاً غريباً طويل القامة متأقفاً ،

وجه أدبي : « كم تغيظني أيتها القردة المتعبة ! من حلك إلى النافذة لتعطي أبناء كاذبة ؟ ... ثم ألقت عليّ نظرة غاضبة ، كما لو كانت الغلظة غلظتي .

وسمع حديث في البهو ثم ظهر القادم الجديد على الفور ، فأنحني لليدي انجرام باعتبارها أكبر السيدات الحاضرات سناً ، ثم قال : « يبدو أنني جئت في وقت غير ملائم ياسيدتي ، لأن مسرر ووشستر متغييب عن المنزل ، ولكنني وصلت من رحلة طويلة جداً ، ولي من سابق معرفتي الطويلة به ما يعطيني أبقي هنا حتى يعود ! » .. وكان مهذباً في كلامه . وإن بدا لي في لهجته شيء غير عادي . لم تكن لهجة أجنبية تماماً ، ولكنها مع ذلك لم تكن إنجليزية ! : ولعله كان في سن مسرر ووشستر تقريباً . بين الثلاثين والأربعين - وكانت بشرته شاحبة اللون . وفيما عدا ذلك كان جميل الوجه لا سيما عندما يقع عليه البصر لأول مرة : ولكنك إذا أنعمت النظر إليه ، اكتشفت شيئاً في وجهه لا يروق : أو بالأحرى يفتق في أن يروق للعين : كانت أسنانه منتظمة ولكنها شديدة الارتخاء . وكانت عيناه واسعتين جميلتين ، ولكن الحياة التي كانت تلوح فيهما كانت خاملة خاوية : أو هذا على الأقل ما خيل لي !

ودوى جرس ارتداء الملابس فانتشرت الجماعة : ولم أر ذلك الضيف الجديد إلا بعد العشاء « فبدأ مطمئناً وادعاً ، بيد أنني ازدادت عدم ارتياح إلى أسنانه » فقد خيل لي أنه في الوقت ذاته كان غير متزن ، بل كان جامداً ، خالياً من الحياة : كانت عيناه تجرلان دون



وقد صدمت - وهي تقول ذلك - نحو النفاذة بقاتنها الفارمة وشبابها الطويلة ، مما اضطرني إلى الانحناء حتى كاد يظهرى أن ينقصه

أن يبدو في تجوالها أى معنى « مما أكسبه شكلاً غريباً لم أر له مثيلاً من قبل .. وكان مليحاً ، وليس في مظهره ما يصد عن الميل إليه ، ولكنه آثار نفورى إلى درجة كبيرة » إذ لم يكن في وجهه الناعم البشرة « ذى الشكل البيضاوى ، شئ من القوة .. ولا في أنفه الحاد وفيه الدقيق أى حزم .. ولم يكن يبدو على شئ من أسارره - حتى جبينه المنخفض الضيق - ما ينم عن أى تفكير .. كما لم يكن في تلك العين العسلى الخالية من التعبير ، أى مظهر لقوة الشخصية والسلطان !

وأخذت - وأنا جالسة في ركنى - أتأمل الرجل في ضوء الثريا الموضوعة على حافة الموقد ، وقد تسلط على وجهه . إذ كان يشغل مقعداً كبيراً بجوار المدفأة ولا يفتأ يقترب منها بين لحظة وأخرى وكأنه كان يشعر ببرد . ثم أخذت أقارن بينه وبين مستر روشستر . وأعقد مع الاحترام - أن الفارق بينهما لم يكن يعدو ما بين ذكر الوز المزيل وبين الباز الجارح ، أو بين الخروف وبين الكلب الكث الشعر الحاد العينين الذى يحرسه ..! ولقد ذكر مستر روشستر كصديق قديم له ، ولابد أنها كانت صداقة عجيبة ، تقوم صورة حبة للشل القديم عن اجتماع المنقيضين ..! وكان يجلس بالقرب منه اثنان أو ثلاثة من السادة ، فتنهت إلى أذنى - عبر الحجرة - تنف من محادثتهم ، ولم أستطع في أول الأمر أن أتبين معنى لما كنت أسمع : لأن الجدال بين مارى انجرام ولويز الميشتون - وكانتا أقرب منهم إلى - غطى على حديثهم .. وكانتا تتحدثان عن الضيف الجديد ، فوصفته كلناهما بأنه « رجل جميل » ، وقالت لويزا : « إنه « مخلوق محبوب » » و « إنها

شديدة الإعجاب به » . كما تحدثت مارى عن « قه الصغير الجميل ، وأنفه الديدع » ، وكأنه مثلها الأعلى للفتنة . وصاحت لويزا : « يا لجبينه الذى ينطق بطيعة الخلق ! .. إنه أملس جداً ، خال من التجاعيد غير المنتظمة التى أمقتها كثيراً ..! ويا لنظرته الوادعة ، وابتسامته الهادئة » . وما لبث مستر هنرى أن دعاها - لارتياحى - إلى الجانب الآخر من الحجرة ، لبث في أمر خاص بالترفة - التى أرجئت - إلى (هاى) . وإذ ذلك استطعت أن أركز انتباهى على الرجال الجالسين بجوار الموقد ، ومرعان ما اكتشفت أن الزائر الجديد يدعى مستر (ميسون) ، وأنه قادم لتوه إلى إنجلترا من إحدى البلاد الحارة « مما كان السبب .. ولا شك - في سمرته وجلوسه الجذ قريب من المدفأة ، وارتدائه المعطف في البيت . وما لبث ذكره لكلمات : « هايكيا ، وكينجستون ، وميانيش تاون . أن نم عن أنه كان يقيم في جزر الهند الغربية ، كما اكتشفت لدهشتى أنه قد التى لأول مرة بمستر روشستر في تلك الجزر ! وتحدثت عن كراهية صديقه لغرارة الشديدة « والعواصف والفضول المطر في ذلك الإقليم .. وكنت أعلم أن مستر روشستر رحالة - كما سمعت من مسز فيرفاكس - ولكنى لم أكن أعتقد أن أسفاره قد تجاوزت أوروبا ولم أسمع حتى الآن ما يشير إلى أنه سافر إلى بلاد نائية !

■ وفيما كنت أسرح الفكر في هذه الأشياء ، وقع حادث لم يكن في الحسبان قطع حبل تأملاتى .. فقد اتفق أن فتح أحد الخدم الباب ، فطلب منه مستر ميسون - وهو يرتعد - أن يحضر يدي من اللحم ببقية

في النار التي كانت قد خدلت . وعندما جاء الخادم بالفحم وهم بالخروج ، توقف بالقرب من مقعد مسر إيشتون ، وأسرَّ إليه ببعض كلمات لم أسمع منها سوى (امرأة عجوز) و (متعبة جداً) . وأجابه مسر إيشتون (القاضي) : « قل لها أن ترحل وإلا أمرت بإرسالها إلى السجن ! » .. فتدخل الكولونيل دنت ، قائلاً : « كلا .. قف ! .. لا تطردها يا إيشتون فقد نستفيد من الأمر .. الأفضل أن نستشير السيدات » .

ثم التفت إليهن وقال بصوت مرتفع : « لقد تحدثت عن الذهاب إلى قرية (هاي) لزيارة خيام الفجر . ولكن ها هو ذا (سام) يقول إن إحدى العجائز العجريات هنا في غرفة الخدم ، وتلح في المثل أمام السادة ، لتكشف لهم عن حظهم ، فهل ترغبن في مقابلتها ؟ .. فصاحت الليدي انجرام : « إنك بلا شك لن ترضى بتشجيع هذه المختالة الدينية . اطردها في الحال بأية وسيلة ! » .. فقال الخادم : « ولكنني لا أستطيع حملها على الانصراف يا سيدتي .. ولا أحد من الخدم يقدر . إن مسر فيرفاكس معها الآن ، نضرع إليها أن ترحل ، ولكنها جلست على مقعد في ركن من الغرفة ، وقالت إنه لن يستطيع شيء أن يزحزحها من مكانها ما لم يؤذن لها في الحضور إلى هنا ! » .

فسألت مسر إيشتون : « وما الذي تريده ؟ » .

— أن تنفي السادة بحظوظهم .. وهي تقسم على أنها يجب أن تفعل ذلك ، وأنها ستفعله .

فقالت ابنتا مسر إيشتون في وقت واحد : « وما شكلها ؟ » .

— مخلوقة شطاء ، تدخل اللب بلبامتها يا آنسة ! .. سوداء كالساج

فصاح فردريك لين : « إذن فهي ساحرة حقيقية ! .. دعوها تدخل بطبيعة الحال ! .. » وقال أخوه : « الحق أنه من دواعي الأسف الشديد أن تطرح عنا مثل هذه الفرصة للزواج » .. فصاحت مسر لين : « فيم تشكران يا ولدي العزيزين ! » .. وقالت ليدي انجرام تقلدها : « لا يمكن أن أتبل الإلحاح في مثل هذا العمل » . وقالت بلانش المتعالية وهي تدور بكرسيها أمام البيانو : « حقاً يا أمها .. بل أنت تستطيعين ! .. إنني أتليف على معرفة مستقبل .. مر المرأة يا سام بالدخول » .

— تذكرى يا عزيزتى بلانش ..

— إنني أتذكر كل ما تريدن ولكن إرادتي يجب أن تنفس :
نسرع يا سام !

وعندئذ صاح الشيايب من السيدات والسادة : « نعم .. نعم .. نعم ! دعها تدخل .. ستكون تسليية لطيفة » .. ولكن الخادم تكلأ ثم قال : « إنها تريد غاية في الغفظة ! .. فصرخت فيه مس انجرام : « اذهب ! » فتضى الرجل . واشتد هرج الجحاعة على الثر . وقد سرت فيهم من الفكاهة والنكات . إلى أن عاد (سام) يقول : « إنها الآن ترفض الشيء ، وتقول أن ليس من مهمتها أن تظهر أمام « قطيع مبتذل » .. فهذا نص تعبيرها .. بل لابد من أن أدخلها منفردة إلى إحدى الحجرات . وعلى الذين يرغبون في استشارتها أن يذهبوا إليها فرادى ! » .

فقالت الليدي انجرام : « ها قد رأيت يا ابنتي الجلييلة أنها تجاوزت حدودها .. اصغى إلى نصيحتي يا (ملاكي) و .. » فقاطعتها (ملاكها) قائلة للخادم : « أدخلها إلى المكتبة لأني أيضاً لا أريد أن أصغى إليها

أمام « القطيع المنبدل » ، بل يجب أن أدخلوها . هل بالكتابة مدفاة ؟ .

— نعم ياسيدى ولكن يبدو أنها ثرثرة !

— كفى ثرثرة أنت يا أحمق ، واصدع بأمرى !

ثم اختفى سام مرة أخرى « فعاد الغموض والانتعاش والترقب إلى الذروة .. وعاد الخادم يقول : « إنها الآن على استعداد وتريد أن تعرف من ستكون أولى زائراتها » .. فقال الكولونيل : « أرى أنه يحسن أن أتق عليها نظرة قبل أن تذهب إليها لإحدى السيدات . قل لها باسم إتنى قادم » .

فضى سام ولكنه رجع يقول : « إنها تقول يا سيدى إنها لن تقابل أياً من السادة ، وأن لا حاجة تدعوهم إلى إزعاج أنفسهم بالاقتراب منها » . ثم أردف بقول وهو يجاهد في حبس ضحكة تكاد تنفجر : « وهى لا تريد كذلك أى سيدات ولا تقبل إلا من كانت شابة ولم تزوج بعد ! » .

فصاح هنرى لين : « والله إنها حسنة النوف ! » .

وقامت مس انجرام في وقار ثم قالت بلهجة القائد المقبل على غطارة : « لسوف أكون الأولى في الذهاب » .. فصاحت أمها : « أواه يا حبيبتى ! . قى يا عزيزتى .. فكرى ! » .. ولكن الفتاة مرت من أمامها في صمت شامخ واجتازت الباب الذى فتحه الكولونيل ثم سمعتها تدخل المكتبة . وأعقب ذلك سكوت نسي .. وقتعت اللىدى انجرام من الأمر بلى يديها بأماً وقنوطاً « بينما صرحت مس مارى بأنها — من ناحيتها — لا تجرؤ على

مثل هذه المغامرة » في حين تضاحكت آمى ولويزا إيشتون في خفوت « وإن تجبى عليهما بعض الملح .

وانقضت الدقائق بطيئة كل البطء .. واكتملت خمس عشرة دقيقة قبل أن يفتح باب المكتبة ، وتعود إلينا مس انجرام خلال القبو .. ترى هل ستضحك ؟ .. هل ستأخذ الأمر على أنه دعاية ؟ .. واستقبلتها العيون جميعاً بنظرة فضول مشبوبة ، فقابلت الفتاة كل العيون بنظرة صمود وبرود ! ولم تكن تبدو مستاءة « ولا مرحة .. بل مضت إلى مقعدها بخطوات ثقيلة ، ثم جلست عليه في صمت وسكون . وعندئذ سألتها الأورد انجرام : « حسناً يا يلائش ؟ » .. وسألتها مارى : « ماذا قالت لك يا أختاه ؟ » .. وقالت لويزا وآوى إيشتون : « ماذا ترين ؟ بم تشعرين ؟ هل هى حقيقة عرافة ؟ » .

فأجابتهن مس انجرام : « على رسلكم يا ناس ! لا ترهقونى بالإلحاح . من السهل أن يثور العجب والشك في نفوسكم ، بل يغبل لى من اهتمامكم الذى تعلقونه جميعاً — بما فيكم والذى — على هذا الأمر ، أنكم تعتقدون اعتقاداً مطلقاً بأن لدينا ساحرة حقيقية . لقد شاهدت الآن نورية من الأوغاد الرحل ، مارست علم قراءة الكف فأخبرتني بمثل ما يقوله أمثالها عادة » وبذلك أكون قد أشبعت نزوتى . ولعله من الخير أن يرسل مستر إيشتون هذه الشمطاء إلى السجن في صباح الغد ، كما كان يتوعد » .

ثم تناولت كتاباً واضطجعت في مقعدها زاهدة في أى مزيد من الحديث . وراقبتها حوالى نصف ساعة .

من الكتاب الذي كانت تحمله في يدها ، بل رأيت وجهها يزداد اكتمل لرائي في كل لحظة ، وتبدى عليه أمارات الامتعاض وخيبة الأمل ، فأدركت تماماً أنها لم تسع كلمة مواتية ، وخيل إلى - من طول اكتئابها وإخلاصها إلى الصمت - أنها تعلق أهمية كبيرة . لا مبرر لها ، على ما قيل لها على الرغم من نظاها بعدم الاكتراث .. وفي تلك الأثناء صرحت ماري انجرام وآي ولويزا إيشتون أنهن لا يحررون على الذهاب منفردات رغم تلهفهن على الذهاب ، فجرت مفارقات على يدي الرميظ (سام) . انتهت بعد عناء بأن سمعت العرافة لمن بالظهور أمامها معاً . ولم تكن زيارتهن ساكنة كزيارة مس انجرام ، إذ سمعنا ضحكناهن المستيرية ، وبعض صيحات تبعث من المكتبة .. وأخيراً - بعد نحو عشرين دقيقة - ففتح الباب على مصراعيه بعنف ، وجئت يحرن عبر الباب كأننا « مسن الخيل » كل منهن تصيح ، في وقت واحد : « إني واثقة من أنها ليست من البشر ! .. يا للأشياء التي حدثتنا عنها ! .. إنها تعرف عنا كل شيء ! .. »

ثم غصن لاهئات في المقاعد التي أسرع الرجال يقدمونها إليهن . ولما أُلح الباقون عليهن في طلب المزيد من الإيضاح صرحن بأن المرأة أخبرتهن بأمور قلنها وفعلها وهن أطفال . كما وصفت الكتب وأصوات الزينة التي كانت لديهن في مخادعهن الخاصة ، ووصفت الهدايا التي قدمها إليهن الأقارب . وأكدت أنها قرأت ما كان يدور في رؤوسهن وأنها حسرت في أذن كل منهن باسم الشخص الذي تميل إليه كل الميل . وأخبرتهن بما تنوي إليه نفس كل منهن ! .. وهنا تدخل الرجال متوسلين أن يزدن النفطين الأخيرتين إيضاحاً ، ولكنهم لم يلقوا منهن سوى

تصرع الوجنات بعمرة الخفر والحياء وبعض صيحات واختلاجات وضحكات ! .. وفي تلك الأثناء قلعت غير الشابات روح النواذر والمراوح للفتيات . دليلاً على ما يساورهن من قلق ، لأن ما قدمته لمن من تحذير لم يعمل به في الوقف المناسب ! : بينا فقهه الشيوخ من السادة وتطويع الشبان بعرض خدماتهم على الحسنات الحائرات ، المتفعلات !

وفي عمرة ذلك المرح والمرج : وفيما كانت عيناى وأذناى منصرفة إلى ذلك المشهد تماماً « سمعت تحتة عند مرفقي « فاستندرت ورأيت سام للذي خاطبني قائلاً : « مدعرة يا أنسة فإن العنبرية تقول إنه ما تزال بالحجرة شابة غير متزوجة لم تذهب إليها بعد ، وتقسم ألا تذهب حتى تراها . وأظنها تعنيك ، إذ لم تعد هناك غيرك ، فإذا أقول لها ؟ » :

فأجبت : « أوه !! سأذهب من غير شك ! »

وفرحت بفرصة لم أكن أتوقعها لإشباع الفضول الذي كان يضطرم في نفسي ، فتسللت من الحجرة دون أن ترائي عين ، لأن الجميع كانوا ملتفين حول الثلاث المرتجفات العائدات لتوهن من لدى العرافة . ثم أغلقت خلفي الباب في هدوء . وقال سام : « إذا شئت يا سيدتي انتظرتك في الردهة ، وإذا أفرعتك ناديني فأدخل على الفور » .

— كلا ياسام . عد إلى المطبخ فلست خائفة بحال !

والواقع إني لم أكن خائفة ولكنني كنت شديدة الاغباط والاهفة :

الفصل التاسع عشر

● بدأت المكتبة تسبح في الهدوء عندما دخلتها ، وكانت العرافة — إذًا كانت تلك المرأة عرافة — مضطجعة في مقعد مريح ، عند ركن المدفأة . وقد ارتدت عباءة حراء وقلنسوة سوداء ، أو بالأحرى قبعة من قبعات العجر العريضة الحافة ، شدت بمنابيل مخططة إلى ما تحت ذقنها . وكانت على المضضدة شبعة مطفاة ، فانحنت العرافة فوق النار تقرأ على وجهها في كتاب صغير أسود مكتائب الصلاة . وكانت تغمغم لنفسها بالكلمات شأن العجائز عندما يقرآن . ولم تكف عن المطالعة فور دخولى ، وكأنما كانت ترغب في الانتهاء من إحدى الفقرات .

ووقفت فوق السجادة أدنى يدي اللتين بردتا لجلوسى الفولبل بعيداً عن المدفأة في حجرة الاستقبال .. وشعرت إذ ذاك برباطة الجأش كماعدت دائماً في الحياة ، إذ لم أجد في الحقيقة شيئاً في مظهر العجيرة يزعزع الهدوء والسكينة . وما لبثت أن طوت كتابها ، ورفعت عينها إلى ببطء . وكانت حافة فيعتها تظلل جزءاً من وجهها ، ولكنني استطعت أن أراه عندما وقفته ، فإذا به وجه غريب ، تتناوب فيه السمرة والسواد ، وقد برزت بعض خصللات من شعر خشن أشعث ، من تحت عصاية يبيضاء امتدت إلى ما تحت ذقنها ، مغطية أكثر من نصف خديها . وفكيتها .. ورمقني عنها على الفور بنظرة جريئة ، ممددة ، ثم قالت بصوت يماثل نظرتها جراً ، ويشبه أسارىها خشونة : « حسناً .. أنقذوني إذن أن تسمعي طالعك ؟ » .

— لا يهمني ذلك كثيراً يا أمه أنت وشأنك ! ولكنني أتبعك إلى
أنتي لا أومن بذلك !

— إن قولك هذا يماثل جرأتك التي توقعتها منك وسمعتها في خطوك وأنت تعبرين عتبة الباب .

— حقاً ؟ إنك حادة السمع .

— نعم وحادة البصر .. وحادة الذهن !

— إنك تحتاجين إلى هذا كنه في مهتك .

— فعلا ، وخاصة عندما نتعامل مع زبان مثلك . لماذا لا ترعدين؟

— لأنني لست (بردانة) !

— ولماذا لم يشحب وجهك؟

— لا أتقى لست مريضة .

.. ولماذا لا تستشيرين حرفتي ؟

- لَأَنْتِي لَسْتَ حَمَاءً !

فأطلقت العجوز الشمطاء ضحكة توارت تحت القلنسوة والعصا ،
ثم أخرجت غليوناً قصيراً أسود ، أشعلته وأخذت تدخن . وبها أن
نعمت فترة بذلك (المهدئ) لأعصابها ، رفعت ظهرها المقوس «
وانترعت الغليون من بين شفتيها ، ثم قالت في ترو بالغ وهى تمتمل في
النيران : « أنت بردانة .. أنت مريضة .. أنت حقاء ! .. » فقلت :
« برهني على ذلك » .

— سأفعل في إنجاز .. إنك تشعرين بالبرد لأنك وحيدة لا أشعل
نيرانك الكامنة احتكاك .. وأنت مريضة لأن أمي وأحلى ما هو حب من

المشاعر للرجال ، ينأى عنك ويتعد .. وأنت حتماء لأنك برغم ما تقاسين
لانتشيرين إليه ليقترّب منك ، ولا تتقدمين نحوه خطوة واحدة لتلتقي
به حيث يتريقك !

ثم أعادت غلبونها القصير الأسود إلى شفتها وراحت تدخن من
جديد ، بشدة ونهم ، فقلت : « في وسعك أن تقولى هذا لكل إنسان
تقريباً ، مادمت تعلمين أنه يحيا وحيداً وعالة في قصر كبير » .

— في وسعي حقاً أن أقوله لكل إنسان تقريباً « ولكن هل هو
يصدق على الجميع ؟

— إذا كانوا في ظروفي :

— نعم .. هذا صحيح :: في ظروفيك ، ولكن آتيني بإنسان آخر له
مثل ظروفيك تماماً .

— من السهل أن آتيك بالآلاف :

— يصعب أن تجدى مثلاً واحداً : ولعلك تعلمين أنك شاذة في
موقفك : إنك قريبة جداً من السعادة .. إنها في متناولك ، وكل المواد
اللازمة لها مهياة ، ولا تحتاج إلا إلى حركة تلمها وتجمعها : لأن المصادفة
فرقت بينها قليلاً :: ولو أنك قربت بينها مرة : لأنتجت الهناء !

— أنا لا أفهم الأحاجي ، ولم أستطع في حياتي حل لغز واحد .

— إذا أردت مني أن أكلمك بمزيد من الوضوح ، فأرني كيفك .

— أظن من اللازم أن « أرى بياضى ؟

قلت : « بالتأكيد »

■ وأعطيتها شلماً وضعت في جورب قديم — أخرجته من جيبيها ثم طوته
وأعادته إلى مكانه — قبل أن تطلب مني أن أبسط لها يدي ، فلما فعلت :
اقتربت بوجهها من كفي : ونظرت إليها ملياً دون أن تمسها ثم قالت :
إنها كف بضعة جيداً : لا يمكن أن أستبين فيها شيئاً « لأنها خالية من
الخطوط . ومع ذلك فماذا في الكف ؟ .. إن المصير لا يكتب فيها ! » ..
فقلت : « إنني أصدقك في هذا .. » ولكنها استمرت في حديثها قائلة :
« كلا .. إنه مسطر في الوجه : على الجبين ، حول العينين ، في العينين
ذاتهما . في خطوط الفم .. اركمى وارفعى رأسك ! » .. فقلت وأنا
أضأوعها : « آه . إنك بدأت تهتدين إلى الحقيقة ، ولذلك سأمنحك بعض
تقني مؤقتاً ! » .

ثم جنوت على بعد نصف ياردة منها . فحركت نيران الموقد إلى أن
تألفت قطعة من الفحم فأرسلت وهجاً ألقى على وجهها — وهي في
جلستها — ضلالاً أشد ظلمة وقاماً ، بينا أضاء وجهي :: ثم تفحصتني
قليلاً . وقالت : « إنني لأسألك : بأي شعور جئتني ، وأية أفكار كانت
تساورك أثناء الساعات الطويلة التي قضيتها جالسة في تلك الحجرة مع
أولئك الأغنياء ، وهم يتحركون أمامك كأطياف تنبعث من فانوس
حسرى : ولا يكاد يدور بيتك وبينهم حديث ودى ، وكأنهم أطياف في
أشكال بشرية : وليسوا أجساداً حقيقية ؟

— إنني كثير ما أشعر بالتعب : وأحس أحياناً بميل إلى النوم ،
ولكنني قبلًا أشعر بالخوف .

— إذن ، فهل يراودك أمل خفى يرفعك ويسعدك بما يهيمس إليك عن المستقبل ؟

— كلا .. إن أقصى أمل يراودنى أن أدخر من مرتبى ما يكتفى لإنشاء مدرسة فى بيت صغير أستأجره لنفسى .

— إنه لقضاء روحى تافه لا يقيم أوداً ! .. ثم إن جلوسك على قاعدة تلك النافذة .. ألا ترين أننى أعرف عاداتك ؟

— لقد عرفتها من الخدم .

— آه ! .. إنك تحسبن نفسك لبيئة حاذقة . حسناً .. ربما كان الأمر كذلك .. وإذا شئت الحق « فلأننى قد تعرفت إلى واحدة من الخدم .. مسز بول .

* * *

■ ووثبت واقفة إذ سمعت هذا الاسم « وأنا أقول فى نفسى : « هل تعرفت إليها ؟ .. إذن فى الأمر مكيدة ، برغم كل شئ » .. على أن المخلوقة العجيبة استرسلت فى حديثها قائلة :

— لا تروعى .. إنها مأمونة الجانب .. إن مسز بول أمينة وهادئة وفى وسع المرء أن يوليها ثقته . ولكنى أعود أقول : عندما تجلسين على قاعدة النافذة ، أما كنت تفكرين فى غير مدرستك المرجوة ؟ .. أليس لك اهتمام خاص بواحد من الذين يحنلون الأرائك والمقاعد أمامك ؟ .. أليس هناك وجه تدرسينه ، أو شخص تتابعين حركاته بشئ من الفضول ؟

— لئننى أحب أن ألاحظ كل الوجوه وكل الأشخاص ؟

— ولكن ، ألا تحسبن واحداً دون الآخرين .. أو ربما اثنين ؟
— أفضل ذلك كثيراً .. عندما يبدو لى أن حركات اثنين أو نظر اتهمما توحى بقصة .. فإذا ذاك يسلبنى أن أرفهمها .

— وأية قصة تؤثرين سماعها ؟

— أوه .. ليس هناك مجال للاختيار ، فكل القصص عادة تدور حول موضوع واحد : مطاردة غرامية ثم وعد ينتهى بنفس الكارثة .. وهى الزواج !

— وهل يروق لك هذا الموضوع المتكرر الممل ؟

— لئننى فى الواقع لا أحفل به ، لكنه لا يهمنى .

— لا يهمنى ؟ إذا جلست شابة زائخة بالصحة والحياة والجمال

القائن والثروة والجاه .. وراحت تهتم فى وجه سيد ، أنت ...

— أنا ماذا ؟

— أنت تعرفينه .. وربما كنت تكثرين من التفكير فيه .

— أنا لا أعرف السادة هنا ، وقلما تبادلت حرفاً مع واحد منهم ..

أما عن التفكير فيه ، فإنه لا يتجاوز لئننى أرى بعضهم جديرين بالاحترام .. فهم سادة مهيبون ، فى أوسط العمر — وأرى البعض الآخر شباناً جريئين على جانب كبير من الجمال والحياة والنشاط ، ولكن ، ما من ريب فى أن هؤلاء جميعاً كل الحرية فى أن يتلقوا ما يرضيهم من الابتسامات دون أن أشعر بأن الأمر يهمنى فى كثير أو قليل !

— إذن فأنت لا تعرفين السادة هنا ؟ ولم تبادلنى حرفاً مع واحد

منهم ؟ .. أنقولين هذا عن سيد البيت ؟

www.tad4arab.co

— إنه ليس في البيت ؟

— ملاحظة عميقة الغسور ، ومغالطة بارعة ! لقد ذهب إلى (مليكوت) في هذا الصباح وسيعود الليلة أو غداً ، قيل يقضيه هذا الظرف عن قائمة معارفك ويمسحه من الوجود ؟

— كلا ، ولكنني لا أرى أية علاقة لمستر روشستر بالموضوع

الذي قدمته !

— كنت أتحدث عن السيدات اللاتي يتسمن في عيون السادة .
ولقد انسكبت أخيراً ابتسامات لا حصر لها في عيني مستر روشستر .
حتى فاضتنا كوعالين اترعنا حتى الحافة . ألم تلاحظي ذلك ؟

— لمستر روشستر كل الحق في أن يتمتع بصحبة ضيوفه .

— لا جدال في حقه هذا ، ولكن ألم تلاحظي أنه قد أوثر بأكبر نصيب من الأقوال التي دارت حول الزواج ، وبأكبرها استمراراً ؟



● وكانت العجيرة قد لفنتي بنعيتها العجيب وصوتها وأطوارها فيما يشبه الحلم . فما كنت أتوقع أن تبعث العبارة تلو العبارة من بين شفتيها — بهذا الشكل — إلى أن وجدتي أنيغيط في نسيج من الحيرة والغموض .
وأتساءل : أية روح خفية تقبع بالقرب من قلبي . وترصد حركاته ونبضاته ؟ .. وقلت أحدث نفسي أكثر مما كنت أحدث العجيرة :
« إن لطف السامع تلهب لسان المتحدث ! »

— لطف السامع ! أجل لقد كان مستر روشستر يجلس الساعات وأذنه إلى الشفتين الفاننتين المغبطتين بمحادثته .. وكان يتلهف على

الإصغاء وهو بادي الامتنان بالوقت الممتع الذي يتاح له . أما لاحظت ذلك ؟

— بادي الامتنان !.. لا أذكر أنني اكتشفت على وجهه آيات الامتنان .

— اكتشفت !.. إذن فقد حلت وجهه ؟ أية آيات رأيتها إذن غير الامتنان ؟

فلم أقل شيئاً .. بينما استطردت العجوز تسألني : ولقد رأيت الحب .. أليس كذلك ؟ .. ثم تطلعت إلى المستقبل قرأته قد تزوج وأسعد عروسه ! ..

— ليس هذا بالضبط ... إن مهارتك في السحر تختلئ في بعض الأحيان .

— فماذا رأيت إذن ؟

— لا يهم .. لقد جئت إلى هنا لأسأل وليس لأعترف .. هل المعروف أن مستر روشستر سيتزوج ؟

— نعم .. من الحساء من الجرام .

— قريباً ؟

— إن الظواهر تؤكد هذه الخاتمة . ولا شك — وأقولها لأنه يبدو عليك أنك تريد أن تسأل عنها لولا أن الجراءة تعوزك — في أنهما سيكونان زوجين بالغتي السعادة .. إنه ولا بد خليق بأن يحب مثل هذه السيدة الجميلة النبيلة ، الذكية المهذبة . ومن المحتمل أنها تحبه .. لأن لم يكن لشخصه فلأمواله ، على الأقل ، وإن كانت تعبر أمواله مرفوقة

بعد أن أخبرتها - ساعني الله - بذلك منذ ساعة ، فارتسمت على وجهها
أمارات الدهشة والحزن ، وتدلّت شفها ، فتصعّتها بأن تبحث عن
خطيب آخر يجعل قاعة أطول بإيجاراته المستحقة ، والتي لا تخضع
لقيود !

- ولكنني لم أجنّ يا أماء لأسمع مستقبل مستر روشستر ، وإنما
جئتكم لأسمع حظي ، فإذا بك لم تخبريني بشيء عنه !

- إن حظك مازال موضع شك . وعندما درست وجهك وجدت
كل سطر فيه يناقض الآخر ، وإن كنت أعرف أن القدر قد وهبك
قسماً من السعادة .. عرفت ذلك قبل مجيئي إلى هنا هذا المساء .. نعم ،
وهبك القدر قسماً من السعادة ، والأمر يتوقف على أن نمدى يدك
لتأخذ هذا القسط ، فهل ستمد يدك ؟ .. هذه هي المشكلة التي
أدرسها . اركعي ثانية على السجادة !

- لا تستبقيني طويلاً لأن النار تفلح وجهي .

■ وجثت أمامها فلم تنحن فوق ، وإنما راحت تمحلق في وهي
مضطجعة على ظهر مقعدها ، ثم بدأت تغغم قائلة : « اللهم يتراقص
في العين .. العين تأتلق كاللدى ، فتبدو رقيقة زاهرة بالإحساس وتنبس
لرطائي .. إنها حساسة ، سريعة التأثر ، يتجلى في عيظها الصافي الأثر
تلو الأثر ، حتى إذا كفت عن الابتسام بدا فيها الحزن ، وثقل جفناها
بتعب لاشعوري يوحى بالأمسى الناجم عن الوحدة .. لقد تحولت عني
الآن ، لأنها لم تعد تحتمل مزبداً من الفحص والتدقيق ، وكأنها تنكر

حقيقة هذه الاكتشافات بنظرة ساخرة متبكرة ! :: إن العين تبشر
بالخير ! .. أما القم فيضحك أحياناً وقد استخفه الفرح والابتهاج . وهو
يميل إلى الانصاح عما يدركه العقل ، وإن أخذ إلى الصمت في كثير مما
يختلج به القلب ، إنه لم يخلق مرنأً ليناً لكي يزوج تحت صمت الوحدة
الأبدية ، وإنما هو فم خليق بأن يتكلم كثيراً ، وأن يحس بالمودة البشرية
نحو من ينجيه .. إن القم هو الآخر يبشر بالخير !

« إنني لا أرى غريماً لطالع سعيد ، إلا في الجبين .. هذا الجبين
للذي يعترف قاتلاً : إن في ومعنى أن أعيش وحيداً إن اقتضاني ذلك
احتراماً لنفسى ، ونظائته ظروف الخاصة ، ولا حاجة تدعوني إلى بيع
روحي ، لأستري بها النعيم المقيم ، فقد ولد معي كثر في أطوائى
يمكنني من أن أظل حياً إذا حبست عني كل المباحج العارضة ، أو إذا
لم تنح لي إلا مقابل ثمن أعجز عن أدائه . ويقول الجبين : إن العقل
يجلس ثابتاً وقد أمسك بأعنة المشاعر ، لا بدعها تفلت وتسدق إلى
المهاوى الموحشة .. إن الأهواء قد تحتاج في غضب وعنف ، والشهوات
قد تتوهم كل ضروب الأمانى الكاذبة ، ولكن العقل سيكون صاحب
الكلمة الأخيرة الفاصلة شأنه في كل جدال .. فهو الذي يبدى بالصوت
الراجح في كل قرار . وقد تمر العاصفة والزلازل والنيران ، ولكنني
سأبقي إرشادات هذا الصوت الصغير الذي يترجم ما عليه الضمير » .
« لقد أجدت الحديث أيها الجبين ، وسيلني رأيك كل احترام ..
وقد رسمت خططي - وهي خطط سليمة في رأيي - وفيها أصغيت إلى
ما يهيب به الضمير ويشير به العقل . وأنا أعلم كيف يذبل الشباب

سريعاً وتضوى زهرته : إذا ماخالطت كأس النعم قطرة واحدة من خزى أو ندم . إننى لأشد التضحية والأسى والفجور .. فمثل هذه الأمور لا تلائم مزاجى . وإنما أريد أن أكون مصدر تغذية وتنمية ، لا مصدر سم وموت .. أريد أن أكتسب الشكر والاعتراف بالجميل ، لا أن أعصر قطرات الدم .. لا ، ولا قطرات الدموع : يجب أن يكون حصادى من الأيتسام والاعتزاز الحلو المذاق ، كفى ، كفى : أظننى قد أصبت بلوثة من الهديان ، وخليق بي أن أطيل هذه اللحظة إلى ما لا نهاية ، أولاً أننى لا أجرو . لقد سيطرت حتى الآن على نفسى ، وتصرفت وفقاً لما عاهدت عليه نفسى ، ولكن القادى قد يقضىنى فوق ما تحتمل قواى .. ألا انهضى يا مس إير ، وفارقينى - لقد انتهت المسرحية ! :

* * *

■ أين كنت ؟.. هل ترانى استيقظت ، أو أننى استغرقت فى النوم ؟.. هل كنت أحلم ؟.. وهل ما زلت أحلم ؟.. كان صوت العجوز قد تغير ، وبدت لى لهجتها وحركاتها مألوفاً .. تماماً كصورة وجهى فى المرأة ، وكحديثى الذى يتعلق به لسانى . ونهضت ، ولكننى لم أبرح مكانى ، بل تأملت ما حولى ، وحركت نيران الموقد ، ثم عدت أنلفت نحو العجوز التى جذبت قلنسوتها وعصابتها حول وجهها ، ثم أشارت لى مرة أخرى بأن أرحل .. وأضاءت النيران فظهرت يدها الممدودة . وكنت قد أفقت من ذهولى فلاحظت على الفور أن اليد الممددة لم تكن يد عجوز عجفاء ، وإنما كانت يداً ملفوفة رخصة ،

ناعمة الأصابع متناسقتها : وقد التقع خاتم عريض فى خنصرها ! .. وانحنيت أتأمله ، فرأيت جوهرة شاهدها مائة مرة من قبل ! .. وعدت أنطلع إلى الوجه الذى لم يكن فى هذه المرة معرضاً عنى . فوجدته - على التقيض - قد تجرد من القلنسوة والمنديل ومال نحوى يسألى بصوته المألوف : « حسناً يا جين .. هل عرفتنى ؟ »

— اخلع عنك عبائك يا سيدى ثم ..

— ولكن فى الخيط عقدة .. ساعدينى !

— اقطعها يا سيدى !

— ها هى ذى .. إليك عنى أيتها الشيايب المستعارة !

وتبدي مستر روشتر خارج الشيايب التنكرية فصاحت : « ياها

من فكرة عجيبة يا سيدى ! »

— ولكنها تغدت بدقة . أليس كذلك ؟.. ألا ترين ذلك ؟.

— لقد وفقت مع السيدات كل التوفيق .

— وهل لم أوفق معك ؟

— إنك لم تمثل دور العجيرة معى .

— وأية شخصية مثلكا إذن ؟ شخصيتى بالذات ؟

— كلا .. شخصية لا يمكن تعليلها . وقصارى القول أعتقد أنك

كنت تحاول استدراجى . وكنت تهذى لكى أهدى مثلك . وليس

هذا من الإنصاف يا سيدى .

— أنصحين عنى يا جين ؟

— لا أستطيع القول حتى أقلب وجود الفكر ، فإذا وجاءت بعد

التفكير والتأمل أنني لم أترد في مخافة شنيعة ، فسوف أحاول أن أصفح عنك .. ولكن ذلك ما كان يصح أن يحدث .

— أوه . لقد كنت جد مستقيمة ، مدققة ، عاقلة !

فتأملت وفكرت في كل ما حدث « وشعرت بارتياح » إذ كنت في الواقع قد اتخذت حلوى منذ بداية المقابلة ، وتشككت في وجود إحدى المهازيل . فقد كنت أعلم أن العنجر وقارئي الكف لا يكشفون عن أنفسهم بمثل ما كشفت تلك العجوز عن نفسها ، فضلاً عن أنني لاحظت صوتها المصطنع وحرصها الشديد على أن تخفي أسرارها .. ولكن ذهني انصرف إذ ذاك إلى جريس بول — تلك المرأة التي كانت تبدو لي لغزاً حياً .. لغز الألغاز « كما كنت أعتبرها .. ولكن مستر روشمستر لم يخطر ببالي مطلقاً . وما لبث أن قال : « حسناً .. فيم تفكرين ؟ وما معنى هذه الابتسامة الوقور ؟ ! » .

— الدهشة وتهنئة النفس يا سيدى .. والآن : أظنني قد استأذنتك في الانصراف .

— كلا . ابقى لحظة « وأخبريني ماذا يفعلون هناك في حجرة الاستقبال ؟

— إنهم يتباحثون في أمر العجيرة على ما اعتقد :

— اجلسي .. دعيني أسمع ما قالوه عني .

— يحسن ألا أبقى طويلاً يا سيدى ، لأن الساعة قد قاربت الحادية عشرة . آه ، هل علمت يا مستر روشمستر ، أن غريباً وصل إلى هنا بعد أن غادرتنا أنت في الصباح ؟

— غريب « كلا .. من عساه يكون ؟ لم أكن أتوقع حضور أحد ! .. وهل انصرف ؟

— كلا ، فقد أخبرتنا أنه يعرفك منذ زمن بعيد ، وأن في وسعه أن ينتم بحرية البقاء هنا حتى تعود .

— يا للشيطان ! هل ذلكم على اسمه ؟

— اسمه ميسون ياسيدى . وهو قادم من جزائر الهند الغربية ، من (ميانس تاون) في (جامايكا) على ما اعتقد .

● وكان مستر روشمستر واقعاً بجانبى وقد تناول بدى ، وكأنه يقودني إلى أحد المقاعد ، فلما سمع مني حديثي ، شد على معصمي بحركة تشنجية وقد تجمدت الابتسامة على شفتيه . وظهر جلياً أنه فعلاً قد تشنج .. ثم قال ما يخاله الإنسان عبارة آلية تجمعت في كلمات : « ميسون جزائر الهند الغربية ! .. وراح يكررها ثلاث مرات ، وهو يزداد في كل مرة شحوباً .. ولاح أنه لا يكاد يدرى ما كان يقول ، فسألته : « أتشعر بمرض يا سيدى ؟ » فقال وهو يرتج : « لقد أصابني صلصة .. أصابني لطمة يا جين ! »

— اتكى على يا سيدى .

— لقد قلمت لي كتفك يا جين مرة من قبل « فدعيني أتكئ

عليها اليوم !

— نعم يا سيدى نعم .. وذراعى !

فجلس ودعاني إلى الجلوس بجانبه ، وهو ما زال مسكاً يدي بين

راحتيه ، يكاد يستحيها .. كما كان يحملني في وجهي بنظرة زاحرة بالقلقي والفرح : ثم قال : يا صديقتي الصغيرة ! .. بودي لو كنت في جزيرة هادئة معك أنت وحدك ، وقد انجاب عني الكدر والخطر والذكريات المقيتة .

.. هل في وسعي أن أعاونك يا سيدى ؟ - انتهى أضحى يحياي في خدمتك !

.. سأشيد العون من يديك يا جين إذا ما احتجت إليه ، أعدك بذلك : أشكره يا سيدى . خبرني ماذا أفعل ، وسأحاول على الأقل أن أؤديه .

.. آتيني الآن يا جين بكأس من النبيذ . من قاعة المائدة ، لأنهم الآن يتناولون العشاء . وأخبرني عما إذا كان ميسون معهم . وماذا يفعل ؟

وإذا ذهبت وجدتهم جميعاً في قاعة المائدة يتعمشون ، كما قال مستر روشستر .. ولم يكونوا جالسين حول المائدة ، بل كان الطعام فوق (البوفيه) يختار كل منهم ما طاب له منه ، وقد وقفوا جماعات هنا وهناك ، وصحافهم وأكوابهم في أيديهم ، والسرور والابتهاج يسودانهم .. وكانت ضحكاتهم وأحاديثهم عامة ، منتشرة . أما مستر ميسون ، فكان واقفاً بالقرب من المدفأة يتحدث إلى الكولونيل ومسر دنت في ابتهاج ومرح كالآخرين ، فلأت كأساً من النبيذ - ومس انجرام ترقينى عابسة بمثل ما كنت أرقبها - ثم عدت إلى المكتبة :

كان شحوب مستر روشستر قد تلاشى وعاد إليه ثباته وعيونه ،

فتناول للكأس من يدي وقال : « في صحتك أيتها الروح المواسية ! » ثم ازحذ ما في الكأس واستدار إلى يقول : « ماذا يفعلون يا جين ؟ » -

لأنهم يضحكون ويتحدثون يا سيدى .

.. ألا يبدو عليهم العوس والدهشة ، وكأنهم سمعوا شيئاً عجيباً ؟

.. كلا . إطلاقاً .. إنهم يمزحون وبطريون :

.. وميسون ؟

.. كان يضحك هو الآخر :

.. لو جاء أولئك الناس وبصقوا في وجهي ، فإذا تفعلين يا جين ؟

.. أطردهم من الحجرة يا سيدى .. إذا استطعت !

فارتسمت على أساريره نصف ابتسامة وقال : « وإذا ذهبت إليهم فنظروا إلى في يرود وهايمسا فيما بينهم ساخرين ، ثم انصرفوا وغادروني الواحد بعد الآخر ، فإذا بعد ذلك ؟ هل تنصرفين معهم ؟ »

.. لا أظن يا سيدى ، بل سوف يتضاعف اغتيابى بالبقاء معك :

.. لتعزيني ؟

.. نعم يا سيدى « لأسرى عنك ما استطعت .

.. وإذا شبروا بك لتسكك في ؟

.. قد لا أعرف شيئاً عن هذا التشير ، ولكنني لن أحفل به

لو عرفته .

.. إذن فلديك من الجرأة ما يجعلك تحتملين تنديدهم ، في سبيلي ؟

.. لأنني أجزؤ على ذلك إكراماً لخاطر أى صديق يستحق - مثلك -

أن أتمسك به .:

— عودى الآن إلى الحجرة ، واذهبى إلى ميسون على عجل ،
وامسى فى أذنه أن مستر روشتر قد عاد ويرغب فى مقابلته ، ثم
أدخله وأتركنا !
— كما تريد يا سيدى :

ونفذت مشيئته .. وحددنى الجميع بنظراتهم عندما سرت وسطهم
وانجهت مباشرة إلى مستر ميسون فالتفت إليه الرسالة وقدمته إلى
المكتبه ، ثم صعدت إلى الطابق العلوى . وهناك رقدت فى فراشى إلى
ساعة متأخرة ، سمعت عندها الضيوف وهم يأوون إلى مخادعهم .
وثبتت صوت مستر روشتر وهو يقول : « من هنا يا ميسون ..
هذه غرفتك » .

وكان يتكلم مبتهجا ، فاطمأن قلبى للهجته المرحه ، ولم ألبث أن
استغرقت فى النوم .

* * *

الفصل العشرون

● نسيت فى تلك الليلة أن أرخى ستارتى — على غير عادتى — كما
غفلت عن إسدال الستر الخشبى (الشيش) على النافذة ، فكان من
جراء ذلك « أن القمر لم يكديبلغ فى سراه تلك الرفعة المواجهة لحجرى
من صفحة السماء ، حتى أطل على خلال زجاج النافذة العارى من
الحجب ! .. وكان بدرأ فى أمه ، والبلية صافية الأديم .. وأيقظنى
طلعه البهية « إذ صحت فى جوف الليل ، ففتحت عيني على قرصه :
قرص فى بياض الفضة وشفافية البلور .. كان جيلا « ولكنه جسد

مهيب ، جليل .. واستويت نصف جالسة فى الفراش ، ومددت
ذراعى لأجذب الستار ، ولكن .. رحماك يارب ! .. يا لها من صرخة !
فقد مزقت ثيل الليل « وهدوءه وسكونه ، صرخة مروعة حادة
ملوية ، سرت فى قصر (ثورنيلد) من أقصاه إلى أقصاه ! .. وكف
وجيب قلبى ، بل جمد قلبى فى صبرى ، وشلت يدى الممدودة ، بنيا
تلاشت الصرخة ، فلم تنجد .. وما من ريب فى أنه لم يكن فى وسع
الشخص الذى أطلق هذه الصرخة المروعة — أيا كان — أن يكررها
سراعاً — بل إن الكوامر المجنحة على قمم جبال الأنديز ما كانت لتقوى
على أن تطلق مثل هذه الصرخة — التى تنكش لها السحب واجفة —
مرتين متاليتين ! .. ولا بد لمن يبعث مثل هذا الصوت القوى من أن
يستريح قبل أن يكرر الجهد !

وكانت صادرة من الطابق الثالث ، لأنها دوت من فوق رأسى ..
وفوق رأسى — أجل ، فى الحجرة القائمة فوق سقف حجرى — لم
ألبث أن سمعت عراكاً .. وكان صراعاً عنيفاً ، كما لاح لى من الضجة .
وهتف صوت نصف غنى : « النجدة ! .. النجدة ! .. النجدة ! »
ثلاث مرات متتابعة فى عجلة ! .. ثم صاح : « ألا يأتى أحد ؟ » .. ثم
تبينت خلال ألواح السقف الخشبية ، وملاط الجدران ، صوتاً يقول ،
والصراع والارتطامات دائرة فى عنف وحشى : « روشتر ..
روشتر ! ألا أقبل بالله عليك ! »

وفتح باب إحدى الحجرات ، وجرى شخص ما ، أو اندفع ،
فى الردهة .. وضربت قدم أرض الغرفة العليا مرة أخرى ، ثم هوى

جسم .. وساد السكون ! وكنت قد ارتديت بعض الثياب ، ورغم أن الرعب كان يهز كل أطرافى ، وانطلقت من غرفتى .. وكان لناغون قد استيقظوا جميعاً ، وترددت فى كل حجرة صيحات ونغمات مدعورة .. وفتحت الأبواب ، الواحد تلو الآخر ، وغصت الردهة بالسادة والسيدات الذين هجروا مضاجعهم على السواء ، يتساءلون فى ارتباك : « أوه ، ما هذا ؟ .. » من الذى أصيب بالضرب ؟ .. « ما الذى جرى ؟ .. » « هاتوا ضوءاً ! .. » هل شب حريق ؟ .. « هل هناك لصوص ؟ .. » إلى أين تجرى ؟ .. ولولا نور القمر لكانوا فى ظلام دامس .. وأخذوا يخرجون هنا وهناك ، ويلمون فلوهم .. وراح بعضهم يبكي ، وبعضهم يتعثر ، وقد سادهم اضطراب لم يجدوا سبيلاً للخلاص منه .. وصاح الكولونيل دنت : « أين روشستر بحق الشيطان ؟ .. » إننى لم أجده فى فراشه ، فواته الرد : « ها أنذا ! ها أنذا ! .. » هذنوا روعكم جميعاً ، فلأننى قادم !

ثم فتح الباب القائم فى نهاية الدهليز ، وأقبل منه مستر روشستر يحمل شمعة . وكان هابطاً لنوره من الطابق العلوى ، فجرت إليه إحدى السيدات وأمسكت بلباوعه .. تلك كانت مس بلانش التى سألته : « أى حادث مروع وقع ؟ .. » تكلم ! .. دعنا نعلم أسوأ ما فى الأمر ! .. « فأجاب : « فقط حافزون أن توقعضى أو تحقننى ! .. » إذ كانت ابنتا اللىدى إيشتون قد تعلقتا به كذلك ، بينما اندفعت السيدتان الوالدتان - ليدى انجرام وليدى إيشتون - نحوه فى عيائهما الناصعتين ، أشبه بمركبين شراعتين .. وما لبث أن صاح : « لا شئ هناك ! .. لا شئ !

إنها مجرد محاولة لتخيل مسرحية « أسمع جعجعة ولا أرى طحناً » لشكسبير .. ألا ابتعدن ياسيداتى : وإلا أصبحت خطراً ! »

والواقع أنه بدا خطراً . إذ أخذت عيناه السوداوان تطلقان الشرر بيد أنه هادئ نفسه جاهداً ، وعاد يقول : « لقد انتاب كابوس إحدى الخادومات ، وهذا كل ما هناك .. ففى مخلوقة عصبية ، سريعة الهياج ، خيل إليها - فى المنام - أنها ترى شعباً ، أو شيئاً من هذا القبيل ، فتولتها رغبة من الفرار ! .. » والآن ، لابد من أن أراكم جميعاً فى مخادعكم إذ لا سبيل للعناية بالخادم إلا بعد أن يهدأ المنزل ويستتب السكون .. هيا : سادة تفضلوا فاضربوا المثل للسيدات . وإنى لوائق من أن مس انجرام تستطيع التغلب على مخاوفها العقيمة . هيا يا آنى ولويس إلى مخدعكما كـ .. « كـ .. » وأنتما ياسيدتى (فطاباً الوالدتين) ستصانان ببر .. بكل تأكيد - إذا بقيتاً أكثر من ذلك فى هذا الدهليز القارس الجوى ! ..

* * *

■ وهكذا استطاع بالمداخنة نازة وبالأمر نازة أخرى ، أن يحصل الجميع على العودة مرة أخرى إلى مخادعهم . أما أنا فلم أنتظر حتى يأمرنى . بل انسحبت عائدة إلى غرفتى دون أن ينتبه أحد ، كما غادرها من قبل دون أن أثير انتباهاً .. على أننى لم أندس فى فراشى ، بل شرعت - على العكس - أرئدى ثيابى بأعناء .. فلعلنى كنت الوحيدة التى منعت الجلبة التى أعقبت الصرخة ، والكلمات التى تخللتها ، لأنها كانت منبعثة من الحجرة التى تعلو مخدعنى . وقد أكدت لى أن الذى

أشاع الفزع في القصر لم يكن كابوس خادم ، وأن الإيضاح الذي ذكره مستر روشستر لم يكن سوى ابتكار منه لتهديئة جأش ضيوفه . ولذلك ارتديت ملابس استعداداً للطوارئ ، حتى إذا انتهت من ذلك جلست طويلاً بجوار النافذة وأنا أطلع إلى الأرض الساكنة ، والحقول المموهة بالفضة ، في ارتقاب ما قد يحدث ، إذ خيل إلى أن حادثاً لن يلبث أن يتلو تلك الصبحة وذلك العراك وذلك النداء !

كلا .. لقد عاد السكون ، وتلاشت تدريجاً كل همهمة وكل حركة ، فلم تنقضى ساعة حتى هدا القصر هدوء الصحراء ، وكان النوم والليل قد استردا سلطانهما ، بينما أقل القمر وأوشك على الغروب .. ولم أرنح إلى الجلوس في البرد والظلام ، ففكرت في أن أرقد على فراشي بملابسي . ومن ثم غادرت النافذة ، واجتازت السجادة في هدوء ، وفيما كنت منحنية لأخلع حذائي ، نقرت الباب يد حلوة « نقرأ خفيفاً ، فسألت : « هل ثمة حاجة إلى ؟ .. وسألني الصوت الذي توقعت أن أسمعه وأعني به صوت سيدي : « هل أنت مستيقظة ؟ »

— نعم يا سيدي .

— وفي ملابسك ؟

— نعم .

— إذن « فاخرجي بهدوء ؟

فأطعت .. وكان مستر روشستر واقفاً في الدهليز ، يحمل شمعة ، فقال : « إنني أريدك ، فتعال من هذه الناحية .. على مهل ، ولا تحدثي ضجة ! .. وكان نعلاي (شبشي) رقيقين ، فاستطعت السير في خفة

الخفة على البلاط المكسو بالسجاد .. وتسلل السيد في البهو ، ثم صعدنا السلم ، وما لبث أن وقف في الردهة المظلمة ، ذات السقف المنخفض — بالطبق الثالث المشحوم — ثم سألتني هامساً : « هل لديك إسفينج في غرفتك ؟ »

— نعم يا سيدي .

— وهل لديك أية أملاح طيارة .. نوشادر مثلاً ؟

— نعم .

— ارجعي وهاتي الاثنين .

فعدت وأخذت الإسفينج من فوق حوض الماء بغرفتي ، والأملاح من درجي . ثم قذفت عائدة مرة أخرى . وكان في انتظاري يتمل في يده مفتاحاً . فاقترب من أحد الأبواب الصغيرة السوداء ، وأولسج المشاح في القفل . وتوقف يخاطبني ثانية : « ألا تغني نفسك لمشهد السدم ؟ »

— لا أظن وإن لم أجرب ذلك من قبل .

وصرت في جسدي رعشة وأنا أجيء ، وإن لم أشعر ببرد أو إعياء . فقال : « ألا أعطيني يدك . فلن أجازف وأتركك معرضة للإغماء ! .. ووضعت أصابعي في يده ، فقال : « إنها دافئة ، وثابتة الأعصاب ! .. ثم أدار المفتاح ودفع الباب . ورأيت غرفة أذكر أنني شاهدتها من قبل عندها فرجتني من فيرفاكس على القصر : وكانت ثمة ستارة خلف الباب ، ولكن هذه الستارة بدت الآن مشدودة إلى أنشودة في أحد الجوانب ، وظهر من خلفها باب كان موارباً ، يقضي إلى حجرة

أخرى داخلية . كان ينبعث منها نور ، وتتصاعد منها زجاجة أشبه
بكلب يتعارك . فوضع مستر روشستر شبعته وقال : « انظري لحظة ! »

■ وتقدم إلى الحجرة الداخلية . فاستقبلته ضحكة عالية . بدت
ساحية في البداية ، ولكنها اتبعت بتهقئة جريس بول ! .. إذن فقد
كانت المرأة هناك ! .. وقام مستر روشستر ببعض ترتيبات . دون أن
ينبس ببنت شفة . وإن كنت قد جمعت صوتاً خافياً مخاطبه . ثم خرج
وأغلق الباب خافه . وأوغل في الحجرة التي كنت أنتظره لدى بابها .
وهو يناديني : « تعالى يا جين ! » .. فسرت إلى الجانب الآخر من
مرمر كبير . بحيث أستاره المسدولة جزءاً كبيراً من الغرفة . وكان
بالقرب من رأس السرير مقعد مريح . جلس فيه رجل يرندى كل
ملابسه فيما عدا سترته .. وكان ساكناً : مائل الرأس إلى الخلف .
مغمض العينين . فرفع مستر روشستر الشمعة فوقه . وإذا ذاك عرفت
في وجهه الشاحب .. الذي يكاد يخلو من معالم الحياة — ذلك الغريب :
ميسون ، كما رأيت جنبه وذراعه مخضيين بالدماء !

وقال مستر روشستر : « أمسكي الشمعة ! .. فنأولها . وجاء
بخوض من الماء وقال : « وأمسكي هذا ! » .. فأطعت . وعندئذ
أخذ الإسفنجة ومحمسها في الماء . وبلل وجه الرجل الذي كان أشبه
بثقة هامدة . ثم طلب مستر روشستر قارورة (الوشادر) . وقربها
من خياشيم مستر ميسون ، فأبث هذا أن فتح عينيهِ وهو يش . فأزاح
مستر روشستر قميص الجريح — الذي كانت ذراعه وكنته مضمدتين —



وعندئذ أخذ الاسفنجة وغسلها في الماء ،
وبلل وجه الرجل الذي كان أشبه بثقة هامدة

ثم أزال الدماء التي كانت تندفق بسرعة . ونغم ممر ميسون : « هل ثمة خطر عاجل ؟ »

— أوه . كلا .. إنه حدث بسيط . فلا تضطرب يا رجل .
وتجلد ! .. سأتيك بنفسى الآن بهراج . وأرجو أن تستطيع الانتشال في الصباح من هذه الحجرة .. اسمعى يا جين ..
— سيدى ؟

.. سأضطر إلى مغادرتك في هذه الحجرة مع هذا السيد نحو ساعة وربما ساعتين . وعليك أن تمسحى الدم بالإسفنجة — كما فعلت الآن .
إذا عاد يتزف من جديد . أما إذا شعر السيد بالإغماء . فضمعى على شفتيه كوب الماء الذى فوق حوض الغسيل . وقربى من أنفه قارورة أملاحك الطبية .. وعليك ألا تتحدثى معه بأية حجة ! .. وأنت يا ريتشارد . لا تخاطبها وإلا عرضت حياتك للخطر . ولن أكون مسؤولاً عما يحدث لو أنك فتحت شفتيك أو تحركت من مكانك !

وتأوه الرجل المسكين ثانية ، وبدأ أنه لا يتجرأ على الحراك وكأنما شل حركته الخوف .. من الموت أو من شيء آخر — وعندئذ وضع مستر روشستر في يدي الإسفنجة التي تشبعت بالدماء ، فشرعت أستعملها بمثل ما كان يفعل . وبعد أن راقبني لحظة قال : « تذكرى ! لا حديث ! .. » ثم غادر الحجرة . وساورني شعور عجيب عندما دار المفتاح في القفل ، وتلاشى وقع قدميه .. هأنذا في الطابق الثالث حبيسة في إحدى حجراته المنخفضة السقف التي يحث بها النصوص .. والليل يلفنى ، وتحت عيني ويدي منظر شاحب ، دموى ، ولا يكاد

ينفصلنى عن امرأة قاتلة سوى باب واحد ! .. نعم كان ذلك مروعاً ..
أما ما عداه . فكان في مقبورى احتاله . ولكننى كنت أرتعد لمجرد التفكير في أن جريس بول قد تنقض على !

ومع ذلك . فقد كان حسماً على أن أبقى في مكافئ ، وأن أرتب هذه السحنة الشاحبة . وهاتين الشفتين الزرقاوين اللتين حرم عليهما أن تنفجرا . وهاتين العينين اللتين أخذتا تغمضان ، وتفتحان ، وتجلوان في الغرفة . وتحدثان في .. على التوالي بين القينة والقينة — وفقد أرتطم فيها الملعق .. كما كان على أن أغمس يدي بين آونة وأخرى في حوض مليء بالماء والدماء . فأمسح الدم المنسال . وأرقب ضوء الشمعة وهو يخفت ويتلاشى . والظلال وهي تتكاثف على الستائر العتيقة التي كانت حولي . أو تشدد أسوداداً تحت أستار السرير الواسع المزدحم . وتخرج بخوذة غريبة فوق أبواب صوان كان في مواجهتي .. وكانت تلك الأبواب تحمل اثني عشر لوحاً من الزجاج « عليها رسوم كالحة لرؤوس اثني عشر من الرسل ، يتوسط كل رأس منها لوحاً كأنه الإطار .. وكان ينصب فوقهما صليب من الأبنوس بهلوه تمثال للمسيح وهو في سكرات الموت .. وأخذت الظلال وبصيص ضوء الشمعة يرحمان أشكالا وهما يهتران ويخومان هنا وهناك ، فتملت في صورة الطيب المنجى (لوك) وهو يحن رأسه ، وصورة القديس (يوحنا) بذعره الطويل المتوج ، ووجه (يهوذا) الشيطاني المقيت وقد تبدى خارجاً من أحد الأكواح الزجاجية ولاح أنه يوشك أن ينجلي عن صورة الشيطان نفسه ! .. ووسط كل هذا كنت مضطربة إلى أن

أنصت كما كنت أرفب .. أن أنصت إلى حركات تلك الوجود الكامرة أو الشيطانية القابعة في مخدعها ، بالحجرة الداخلية .. على أنها - منذ زيارة مستر روشستر .. كانت ساكنة . وكأنها استوى عليها سر غريب ، فلم أسمع طيلة الليل سوى أصوات ثلاثة . في فترات متباعدة صريف حاد صدر عن ألواح خشبية ، وزجاجة زهية كتلك التي سمعتها في البداية وكأنها منبعثة من كلب ، وأنين آدمى عميق !

* * *

■ وما لبثت أفكر أن أزعجني ، إذ رحلت أتساءل : أية جريمة هذه التي تعيش متجسدة في هذا القصر المتزل . دون أن يقوى صاحبه على إقصائها أو إخضاعها ؟ .. وما هذا السر الذي يتجلى مرة في شكل حريق ، ومرة أخرى في صورة دماء في سكون الليل ؟ .. وأى مخلوقة هذه التي تنكرت في صورة امرأة عادية تنطق كأنها شيطانة ساحرة ، أو طائر من الطيور الجارحة التي تجرى وراء الرمح ؟ .. ثم هذا الرجل النافه ، الأجني ، الغريب ، الذي كنت أعني به .. ما الذي زج به في هذا الشرك من الرعب والفرع ؟ .. ولماذا انصب عليه الحق والغيظ ؟ .. وماذا جاء به إلى هذا الركن من القصر في وقت غير ملائم كان يجب أن يكون فيه ملازماً قراشه ؟ .. لقد سمعت مستر روشستر يخسر له حجرة بالطابق الأسفل ، فما الذي جاء به إلى هنا ؟ وما الذي جعله الآن وادعاً ذلولاً لزاء الغبار العتيق الذي أحاق به ؟ .. ولماذا يتصاعق في هدوء إلى هذا الخبأ الذي أكرمه مستر روشستر على الاحتماء فيه ؟ .. ولماذا اختار له مستر روشستر هذا الخبأ بالذات ليدفعه إليه

دفعاً ؟ .. لقد تعرض ضيف السيد للعدوان ، بل إن حياة السيد نفسه تعرضت في مناسبة مضت لمؤامرة أئيمة . ولكنه حاول أن يستر على كل من الحادئين . وأن يدفعهما إلى الظلام والنسيان ، فلماذا ؟ وهأنذا أخيراً أرى مستر ميسون يخضع لمستر روشستر ، وأرى إرادة الأخير القوية تسيطر سيطرة تامة على جهود الأول . فقد أكد لي ذلك ما دار بينهما من حديث قصير . كما يداني من لقاءهما الأول تأثير مستر روشستر في الآخر . فلماذا اكتأب السيد عندما سمع نبأ وصول مستر ميسون ؟ ولماذا كان مجرد ذكر اسم ذلك الرجل - الذي لا يعرف المقاومة وليست له إرادة - وقع الصاعقة على نفس روشستر منذ بضعة ساعات ؟ آه - إنني لن أستطيع أن أنسى نظرتيه وشحوبه عندما همس لي : « لقد أصابني صدمة باجبن ! » . ولن أستطيع أن أنسى كيف كانت ذراعه ترتعد وهو يعتمد بها على كتفي ! .. لم يكن أمراً خفيفاً ذلك الذي أمكنه أن يحني روح فيرفاكس روشستر القوية ، وأن يبرز كيانه المتين ■

وعندما طال الليل وطال ، صحت في أعمامي : « متى يأتي ؟ متى يأتي ؟ » .. فقد كان مريض الذي يدي ، بين وبين دون أن يأتي النهار أو يأتي العون . وكم رفعت المياه إلى شفتي ميسون الشاحبتين ، وكم قبعتم له الأملاح المنعشة . فكانت جهودي تذهب سدى ، لأن قواه أخذت تخور بسرعة . سواء لفرد آلامه الجفائية والعقلية ، أو بسبب ما فقدته من دماء . أو لحديث السبين مما . ومن ثم أخذ أتيته بزداد ، وتبدى عليه الخور . واهتاج كأنه هالك لا محالة ، فخشيت أن يكون مشرفاً على الموت قبل أن أستطيع حتى مخاطبته .

وأخيراً ، انطلقت الشمعة ، وفيما كانت تلتظ أنفاسها الأخيرة ، شاهدت خيوطاً من الضياء فوق أهداب ستر النافذة ، فأدركت أن الفجر يقترب . وسرعان ما سمعت بإيلوت يتبع خارجه بيته البعيد في الحديقة ، فانتعش الأمل في قلبي .. ولم يذهب هذا الأمل عبثاً . إذ لم تمض خمس دقائق أخرى حتى سمعت المفتاح يولج والتفل يفتح . بشيراً بأن مهمتي في المراقبة قد انتهت . وهي مهمة لا يمكن أن تكون قد استغرقت أكثر من ساعتين . وإن خلت أنها ظلت أسابيع طويلة . ودخل ستر روشستر ومعه الجراح الذي ذهب لاستدعائه . ثم قال لهذا الأخير : « والآن انتبه يا كارتز إلى .. إنني لن أمنحك سوى نصف ساعة لتضميد الجرح وعصب الضمادة ونقل الجريح إلى أسفل . وإتمام كل شيء ! »

— ولكن : هل هو يقوى على الانتقال يا سيدي ؟

— بلا شك فليس الأمر خطيراً ، ولكنه عصبي ولايد من تهديده نفسه . تعال اشرع في عمالك !

ثم جذب ستر روشستر الستارة الكثيفة : ووقع (الغيش) ليدع الضوء ينفلد ما استطاع . وأدهشني وأبهج نفسي زحف الفجر ، إذ رأيت خيوط النهار الوردية تشرق في إضاءة الشرق .. ثم اقترب ستر روشستر من ميسون ، الذي أخذ الجراح يضمده له جراحه . وسأله : « والآن يا صديقي الطبيب . كيف حالك ؟ » .. فأجاب بصوت واهن : « أخشى أن تكون قد قضت عليّ ! »

... لا شيء إطلاقاً .. تشجع ! لن يمضي أسبوعان حتى تسترد

صحتك . كل ما هنالك أنك قدقت قليلاً من الدم . أكد له يا كارتز أن لا خطر عليه .

فقال كارتز وقد انتهى من حل الضمادات : « في وسعي أن أؤكد لك ذلك وضميري مرتاح .. فقط كنت أود أن أكون هنا قبل الآن ، حتى أوفر عليه كل الدم الذي فقدته . ولكن ما هذا ؟ .. إن لحم الكتف مزق . ومقطع كذلك ! .. لم ينشأ هذا الجرح من سكين .. هذا أثر أسنان ! .. فمدم ميسون : لقد عضتني .. انقضت عليّ كمنمرة ضارية عندما انتزع منها روشستر السكين » .. وقال روشستر : « كان يجدر ألا تستسلم . بل كان واجباً أن تصارعها في الحال » .. فأجاب ميسون : « ولكن ما الذي يملك الإنسان أن يفعل في مثل هذه الظروف ؟ .. كان الأمر خطيراً ! .. وارتجف وهو يسترسل قائلاً : « ولم أكن أتوقع منها ذلك لأنها كانت في البداية يادية المدبوء تماماً » .. فكان رد مدينته : « لقد أنذرتك . وطلبت منك أن تكون علي حذر عندما تقترب منها .. هذا إلى أنه كان في وسعك أن تنتظر إلى الغد لأكون معك . كانت حافة منك أن حاولت مقابلتها الليلة .. وحدهك ! »

كنت أعتد أنني أستطيع القيام بعمل ذي فائدة .

اعتقد ! .. تعتقد ! .. إنني أنسبق بسماع ذلك . ومع هذا فبأنشد قد قاميت وسوف نقايمي كثيراً ما لم تستمع إلى نصيحتي « ولن أقول شيئاً بعد ذلك . هيا أسرع يا كارتز .. أسرع ! .. فسوف تشرق الشمس بعد قليل . ويجب أن أراه وهو يتصرف .

.. حالاً يا سيدي .. لقد ضمدت الكتف . ويجب أن أهتم

بهذا الجرح الآخر في ذراعه ، أظنها قد أعمت أسننها هنا أيضاً .

فقال ميسون : « لئلا امتصت دمي وهددت بأن تستزف دماء قلبي ! » .



■ وشاهدت مستر روشستر يرتعد وقد تجلبت عليه صورة عجيبة من الاشمئزاز والرهبة والكراهية كادت تشوه أسنانه . ولكنه اكتفى بأن قال : « هيا التزم الصمت بإريشارد ولا تهجم بترديد هذيانها .. فكان الجواب : « ليتني أقوى على نسيانها ! » .

— ستفساها عندما تغادر البلاد ، وفي وسعك متى عدت إلى جهايك أن تحسبها قد ماتت ودفنت . أو بالأحرى لاحاجة بك إلى التذكير فيها على الإطلاق !

— يستحيل أن أنسى هذه الليلة !

— هذا غير مستحيل . تشجع قليلا يا رجل . لقد حسبته منذ ساعتين أنك قد ماتت وغدوت كسمكة مقعدة ، ومع ذلك فهنا أنتما حي تنحدث إلينا .. ها قد انتهى كارتز منك أو كاد ، وسوف أعيد إليك هندا ملك حالاً (ثم التفت نحوى لأول مرة منذ عودته وقال) خذنى هذا المفتاح يا جين . واذهي إلى غدعى فامضي مباشرة إلى خزانة ملاهسي . واقتحي درج الصوان فأخرجي قيصاً نظيفاً ورباط رقبة . وهاتيهما إلى هنا .. هيا أسرعى ! » .

فذهبت وبخشت عن الخزانة والدرج اللذين ذكرهما : وتناولت ما طلبه ثم عدت به فقال : « والآن اذهبي إلى الجانب الآخر من القرائش .

إلى أن يبدى من تريته . ولجرك لا تعادى الحجرة فقد احتاج إليها ثانية ! » .. فانسحبت إلى حيث وجهني ، وسرعان ما سألتني : « هل كان إنسان ما يتحرك في الطابق الأسفل عندما هبطت إليه ؟ » . — كلا يا سيدي . كان بكل شيء هادئاً ساكناً .

— مستفكك بخدر من هتما يا ريتشارد ، لصالحك وصالح تلك المخوفة الشقية . لقد ناضلت طويلاً لتحاشي التعريض والتشهير ، ولا أريد أن يحدث شيء من ذلك أخيراً .. هيا يا كارتز وساعده على ارتداء صداره .. لم تترك معطفك القوي ؟ .. إنك لا تستطيع الرجيل ميلا واحداً يدونه في هذا الطقس اللعين الباردة . أهو في حجرك ؟ أجرى يا جين واهبطي إلى حجركه المتجورة لحجرتي « فأحضرتي المعطف الذي تريته هنالك !

وجريت مرة أخرى : مرة أخرى عدت وأنا أحمل معطفاً ضخماً مبطناً ومزينا بالفراء . فقال سيدي الذي لا يعرف التعب : « لدى مهمة أخرى لك : يجب أن تعودى إلى حجرتي مرة أخرى . إنك للأسف قد غدوت بلون الخمل . ولن يفضنا في وقت الشدة رسول أخرج ! .. اذهبي إلى الدرج الأوسط في منفذة زينتى . فأخرجى منه قارورة صغيرة وكأساً صغيرة تجديهما هنالك .. أسرعى ! » .. فجريت وعدت أحمل الوعاءين المطلوبين فقال : « هذا حسن . والآن سأخذ مطلق الحرية يا دكتور في إعداد جرعة بمعرفتي وعلى مسئوليتي الخاصة : هذا دواء متعش اشتريته في روما من دجال إيطالي كان يمكن أن تركله بقدمك : وهو شيء يا كارتز لا يستعمل بلا تمييز وبلا حساب . ولكنه يصلح

■ وكلت للساعة قد بلغت - إذ ذاك - الخامسة والنصف ، وأوشكت الشمس على الشروق ، ولكنني وجدت الماطيخ مازال مظلماً ساكناً ، وباب الممر الجانبي مغلقاً ، ففتحته بأقل ضوء ممكن ، وكان الملوء يعشى الفناء ، ولكن البوابات كانت مفتوحة على مضاريحها . وشاهدت العربية في الخارج وقد ناهت الجياد وجلس السائق في مقعده ، فاقتربت وأبلغته بأن السيد قادم . وأوما برأسه . فتطلعت حوالى بعناية واهتمام . ثم نعتت فوجدت السكينة ما زالت تغمض العيون ، وستائر نوافذ الخدمه ما تزال مسدولة . وقد شرعت الطيور تشفق في أشجار الحديقة المردهرة . التي مالت أغصانها كأكاليل بيضاء . على الجدار الذي كان يؤلف جانباً من سياج الفناء . وكانت جياد العربية تضرب الأرض بأقدامها من حين إلى آخر .. وفيها عدا ذلك كان السكون يكتنف كل شيء .

واقترب السيد إذ ذاك مستنداً إلى مسرر روشستر والجراح . ولكنه كان يسير بسهولة ويسر . ثم ساعده الرجلان حتى ركب العربية ، وتبعه كارتر . وعندئذ قال مسرر روشستر للجراح : « اعتن به وأبقه في منزلك حتى يسترد صحته تماماً . وسأق بعد يوم أو اثنين لأرى كيف حاله .. وأنت يا ريتشارد : كيف حالك ؟ »

— إن الهواء العليل ينعشني يا فيرفاكس .
— حسناً . دع النافذة مفتوحة من هذا الجانب يا كارتر ، فليست ثمة رياح . في حفظ الله ياديك !
— يا فيرفاكس ...

في حالة كهذه على سبيل المثال .. قليلاً من الماء يا جين ! .. ثم مدي يدك بالكأس الصغيرة فلأتها له حتى النصف : فقلت : « هذا يكفي . والآن بللى حافة فومة القارورة » . فلما فعلت قطر اثني عشرة قطرة من سائل قرمزي اللون ، ثم قدمها إلى ميسون قائلاً : « اشرب يا ريتشارد وسيمنحك هذا الشجاعة التي تعوزك لساعة أو أكثر ! »

— سوف يؤذي لأنه ملهيب !

— اشرب ! اشرب ! اشرب !

وأخيراً رضع ميسون . بعد أن وجد ألا فائدة من المقاومة .

وكان قد انتهى من ارتداء ملبسه إذ ذاك ، ولكنه لم يعد ملطخاً بالدماء أو مكتئب الأسارير . وبعد أن تجرع الدواء . وانقضت ثلاث دقائق . تناول مسرر روشستر ذراعه وقال : « الآن : أنا واثق من قدرتك على الوقوف على قدميك .. حاول ! » . فقبض الجريح . وقال مسرر روشستر مستطرداً : « أسأله يا كارتر من تحت الكنف الأخرى . وثبت ياريتشارد . أبسط أسارك واخط إلى الأمام .. هكذا ! » .. فغمغم مسرر ميسون : « إنني أشعر بتحسناً فعلاً ! »

— أنا واثق من ذلك . والآن . سيرى أماننا يا جين إلى السلم الخلفي واقتحي باب الممر الجانبي . ثم اطلبي من سائق مركبة البريد أن يستعد لقدمونا . وسوف يجديبه في الفناء ، أو في الخارج غير بعيد . لأنني أمرته بالأقتراب بعربته من الرصيف . وإذا شاهدت أحداً هنا أو هناك فتعالى إلى قاعدة السلم و (تنحني) .

... اعتن بها وعاملها برفق ما استطعت ودعها ..

ثم توقف وانفجر في البكاء ، فأجابه مستر روشستر : « سأبذل قصارى وسأفند ما تريد .. » ثم أغلق الباب ومضت العربة في طريقها . وفيما كان مستر روشستر يغلق أبواب القناء ، قال : « لكم أتمنى على الله أن ينتهي ذلك كله ! » .. ثم سار بخطو بطيء نحو باب في الجدار المحيط بالحديقة . وكنت أحسب أنه قد فرغ مني : فتأهبت للعودة إلى القصر . ولكنني ما لبثت أن سمعته ينادي : « يا جين ! » .. وكان قد فتح البوابة ووقف ينتظرني ثم قال : « تعالى حيث يوجد بعض الهواء المنعش .. لضع دقاتك .. فإن القصر مجرد سجن .. ألا تشعرين بذلك ؟ » ..

... إنه يبدو لي قصراً مثيراً يا سيدى .

فأجاب : « إن عينيك يغشاها نقاب من عدم الخبرة والتجربة ، ومن ثم فأنت ترين الأمور خلال طبقة سطحية زائفة السحر ، لا تتبينين معها أن القشرة الذهبية مادة لزجة غروية ، وأن الجوخ الناعم مجرد نسيج عنكبوت ، وأن الرخام حجر أروازى خميس ، وأن الأثاث المصقول مجرد نفايات من الخشب ولحاء خشن . أما هنا (وأشار إلى خلوة موزقة دخلناها) فكل شيء حقيقى جميل نقي ، .. وأخذ يمشى في طريق نقشى حواشيه أشجار البقس والتفاح والكمثرى والكريز من جهة . ونحف به من الجانب الآخر شتى أنواع الزهور التي تزدهر وتأتلق بعد أمطار أبريل وإشراق الربيع الجميل .. وكانت الشمس إذ ذاك تصعد في

الشرق ، وقد أضاعت بتورها أشجار الحديقة الزندية المزهرة وما تحتها من نماش وطرقات هادئة .

... هل لك في زهرة يا جين ؟

وقطف أول زهرة على الفصن وقامها إلى . فقلت : « أشكرك يا سيدى ! » ..

... هل تحبين هذه الشمس المشرقة يا جين ؟ .. وهذه السماء بسحبها العالية الخفيفة . التي ستفزع حتماً عندما تدفأ أوصال النهار ، وهذا الطقس المادئ العليل ؟

... نعم .. أحبها كل الحب .

... لقد فضيت ليلة يا جين ؟

... نعم يا سيدى .

... ولقد امتنع وجهك بسببها .. هل خفت عندما تركتك وحداك مع ميسون ؟

... خفت أن يخرج أحد من الحجرة الداخلية .

... ولكنني أغلقت الباب جيداً وحملت المفتاح في جيبى . إننى أكون

راعيةً مهملاً إذا أنا تركت حلاً .. حلى العزيز المدلل .. على مقربة من

كهف ذئب كاسر دون حراسة ! .. لقد تركتك في مأمن !

... هل ستظل جريس عائشة هنا يا سيدى .

... أوه . نعم . لا تشغلي بالك بها .. أفضيها من زيارتي

... ومع ذلك يبدو أن حياتك ستظل في خطر ما بقيت هنا امرأة غداً

... لا تخافى أبداً فسوف أهتم بنفسى

-- هل ذهب الآن يا سيدى ذلك الخطر الذى كنت تخشاه ؟
 -- لا أستطيع الجزم بذلك حتى يخرج ميسون من أنجلترا .. ولا حتى بعد ذلك ! .. إن من يريد الحياة لأجل إنما يقف على أديم بركان قد يتشجر يوماً ويرسل حمماً من نار .

-- ولكن مستر ميسون يبدو رجلاً سلس القيادة . واقعاً تحت تأثيرك بحيث لا يقوى إطلاقاً على أن يتحداك أو يتعمد إيذاهك .

-- أوه .. كلا ؟ إن ميسون لن يتحدانى ولن يمسي عامداً بأذى ولكنه ربما تسبب عن غير قصد ، وبكلمة يتفوه بها . فى حرمانى إلى الأبد من السعادة ، إن لم يكن من حياتى !

-- اطلب منه يا سيدى أن يكون على حذر .. دعه يعرف ما تخشاه .
 بين له كيف يتحاشى الخطر .

فضحك فى استخفاف ، وأسرع يتناول يدى . ولكنه سرعان كذلك ما ألقاها عنه قائلاً : « إذا كان هذا فى وسعى يا ساذجة فنأين يتأتى الخطر ؟ خطر الموت والإعدام فى لحظة واحدة ؟ .. منذ عرف ميسون وأنا أقول له : « افعل هذا » فيفعله . ولكنى لا أستطيع أن ألقى عليه أوامرى فى هذا الصدد .. لا يمكن أن أقول له : « حذار من إيذاى يا ريتشارد ! » .. إذ ينبى أن يعمل أن إيذاى أمر ممكن . والآن يبدو لي أنك حائرة ولن أحبرك أكثر من هذا .. إنك صديقتى ، أليس كذلك ؟ »

-- بودى أن أخدعك يا سيدى وأن أطيءك فى كل ما هو حق .
 -- تماماً .. أراك تغفلين ذلك ، وأرى آيات الرضاء التام فى مشيتك

وفى طاعتك وفى عينيك ووجهك عندما تعاونينى وتحاولين إرضائى وتعملين من أجلى ومعى « فى كل ما هو حق » كما تقولين .. ولو أننى طلبت إليك أن تفعل ما تريه خطأ لما تجلت عليك إمارات النشاط فى خطوطك الرشيقة . ولا هذه الخفة فى يديك النفلتين ، ولا هذه الحياة والملاحقة فى أساريك . ولا استدارت صديقتى بوجه هادئ شاحب قائلة : « كلا يا سيدى . هذا مستحيل . لا أستطيع أن أعمل ذلك لأنه يخاف الحق والصواب » .. دون أن يزعزعها أو يغيرها شيء . وكأنها نجم ثابت فى مكانه . وأنت .. إن لك سلطاناً على ، وفى وسعك أن تؤذينى ، ومع ذلك لا أجرؤ على أن أكشف لك عن موضع الضعف والألم فى نفسى . خشية أن تطعنينى فى الحبال بالرغم من إخلاصك وصداقتك !

-- إذا كانت خشيتك من مستر ميسون لا تعدو خوفك منى فاطمنى إلى سلامتك يا سيدى .
 .. هذا ما أرجوه من الله .. هذه ظلة ياجين فاجلسى !

● وكانت الفتاة عابرة عن قبر فى الجدار . مبطناً بأشجار العليق » وتضم أريكة قديمة جلس عليها مستر روشستر بحيث أفسح لى مكاناً لى جانبه . ولكنى وفنت أمامه فقال : « اجلسى فإن الأريكة طويلة تسع لنا نحن الاثنين .. لا ترددى فى الجاوس بجانبى . أليس كذلك ؟ هل هذا بجانب الحق والصواب يا جين ؟ » .. فرددت بالامثال لأتني رأيت فى الرقص ما لا يتفق مع الحكمة .

راحة البال ويجد حياته ؟ .. فأجبت : « إن راحة الشريد وإصلاح الخاطيء لا يتوقفان - يا سيدي - على رفيق من المخلوقات . لأن الرجال والنساء يموتون ويتضون ، ولأن الفلاسفة يخطئون في حكمهم والأتقياء قد يتخطئون في طبيعتهم وإخلاصهم ، فإذا كان بين من تعرفهم شخص يتعذب ويشعر بأنه مخطئ ، فأنصحك أن يتطلع إلى ما فوق أكتافه في التماس القدرة على إصلاح ذات نفسه وشفاء أمراضه .

— ولكن الأداة .. الوسيلة .. إن الله الذي يفرض العمل . يبيء له الوسيلة . لقد كنت أنا .. وهذه حقيقة وليست على سبيل المثال .. رجلاً دنيوياً شفوياً لا يقر له قرار ، وأعنتك أنني اعتنيت إلى الأداة لشفاي من ..

● وسكت : بينما مضت الطيور في تغريدها ، وأوراق الشجر في حفيفها ، وكانت أعجب : كيف لا تتوقف عن شلوها وهمساتها لتلتقط هذا الاعتراف المعلق على شفتي الرجل . ولكنها كانت خليقة بأن تنتظر طويلاً ، لأن الصمت طال . وأخيراً رفعت رأسى إلى المتحدث المتكلم الذي كان يلثمهني بأنظاره . وما لبث أن قال بلهجة أخرى . وبأسارى غير أسارىه السابقة إذ زابتها الرقة والرزانة وغدت فظة متهمكة : « لقد لاحظت ولعى الرقيق بمس الجرام . فهل تعتقدين أنها تستطيع أن تلهب في قلبي نار الانتقام ، إذا أنا تزوجت منها ؟ .. ثم نهض على الفور وسار إلى نهاية الممشى . وما لبث أن عاد يدندن بإحدى التغاث . وإذا وقف أمامي قال : « جين ! جين ! إنك شديدة الشحوب

من جراء السهر الطويل ، فهل تسخطين على لإفلاق راحتك ؟ »

— أخط عليك ؟ .. كلا يا سيدي !

— صافحني إذن : تأكيدياً لقولك .. يا لأصابعك الباردة ! لقد كانت دافئة في الليلة الماضية عندما لمستها عند باب الغرفة السرية ! والآن متى تسهرين معي مرة أخرى يا جين ؟

— متى كانت في غاندة يا سيدي .

— قبل ليلة زواجي مثلاً : حين لا أقوى على النوم ؟ أتعتدقني بالجلوس معي واحتفال رفقتي ؟ .. إليك أستطيع التحدث عن (محبوبتي) لأنك رأيتها وعرفتها !

— نعم يا سيدي .

— إنها نادرة . أليس كذلك يا جين ؟

— هو ذلك يا سيدي .

— هيفاء .. هيفاء حبيبة يا جين : فارعة . سمراء . بمنزلة صخرة وعاقبة « ويشبه شعرها شعر سيدات قرطاجنة .. يا إلهي ! ها هما دنت ولين في حظائر الخيل ! اذهبي عن طريق الدغل ، لتلال هذا الباب الصغير !

فذهبت من طريق . ومضى هو من طريق آخر . ومعه في الفناء يقول في ابتهاج : « لقد بكر ميسون عنكم جميعاً في الصباح ، ورحل قبل أن تشرق الشمس . وقد صحت في الرابعة لأودعه » .

● إن الهواجس أمور غريبة .. وكذلك العواطف والمشاركة انوجدانية ،
والسمات .. وهذه الأمور الثلاثة مجتمعة - تؤلف لغزاً واحداً - لم توقع
الإنسانية إلى حله بعد - إننى قلت لم أخفر من الهواجس فى حياتى ، لأننى
خبرت ألواناً غريبة منها . كما أننى أؤمن بوجود العواطف - التى تخير
مظاهرها العقل البشرى - ومثال ذلك ما يحدث بين قوم بعدت الشقة
بينهم - وطال غيابهم ، أو بين أقارب يعيشون غرباً بعضهم عن بعض -
ولكنهم على تباعدهم يعززون وحدة الأصل - الذى ينسب إليه كل
منهم - إذا ما قدر لهم أن يلتقوا .. أما السمات ، أو النذب الخفية ، فحايق
بنا أن نعرف أنها ليست سوى مشاركة وجدانية بين الطبيعة والإنسان !!
ولقد حدثت عندما كنت صغيرة ، لا أتجاوز السادسة من عمرى -
أن سمعت (ييسى ليفن) - المربية بقصر (جينسبيد) - تقول ذات
ليلة لخادم (مارتا آبوت) إنها رأت فى المنام طفلاً صغيراً ، وأن روية
الأطفال فى الأحلام نذير مؤكد بمناعب توشك أن تعطل بالمره - أو أحد
أقاربهم . وكان من المحتمل أن ينمى هذا الحديث من ذاكرتى ، لولا أن
وقع فى أثره مباشرة ظرف الصقة بذاكرتى . إذ دعيت ييسى فى اليوم
التالى إلى أهلها ، حيث كانت أحبها الصغيرة تحضر !

وكثيراً ما تذكرت هذا الحادث وذلك الحديث ، فى الفترة الأخيرة
إذ لم تكن عمرى ليلة - خلال الأسبوع الماضى - دون أن أحلم بطفل
وليد - أهدهه أحياناً بين ذراعى ، أو أدله على ركبتى فى أحيان
أخرى ، أو أرقبه وهو يلعب بالزنانق فى المروج ، أو يغرس يديه

شـارلوت برونتى

١٨٢

فى المياد الجارية :- وكنت أراه طفلاً كثير العويل فى إحدى الليالى وطفلاً
ضاحكاً فى ليلة أخرى - يتمسح فى أحياناً ، ويهرب منى أحياناً أخرى .
وكيفما تشكلت الرؤيا ، وأياً كان موضوعها - فإنها ظلت تتبعنى سبع
ليال متوالية ، تواتينى بمجرد دخولى عالم النعاس !

وتم يستهوى ذلك التكرار لفكرة واحدة .. ذلك التواتر الرتيب
لصورة لا تتغير ، حتى لقد غدت أعصابى تحتاج كلها حان موعد إيوائى
للقراش واقتربت ساعة ظهور الرؤيا . ولقد كنت فى رفقة طيف هذا
الطفل عندما صحت فى تلك الليلة المقمرة على صرخة ميسون . وبعد ظهر
اليوم التالى - دعيت للتزول إلى الطابق الأسفل ، لأن شخصاً كان يريدنى
فى حجرة مسز فيرفاكس . وهناك وجدت رجلاً ينتظرنى ، ويبدو من
مظهره أنه خادم لأحد السادة .. وكان يرتدى ثوب الحداد ، ويمسك
بيده قبعة حولها شريط أسود . فلما رأتى ، وقفت قائلاً : « أغلب الظن
أنت لا تكادين تذكرينى يا آنسة . ولكن اسمى ليفن ، وقد عملت حوزياً
لدى مسز ريد عندما كنت فى (جينسبيد) منذ ثمانى أو تسع سنوات .
وما زلت أعمل هنالك حتى الآن » .

- أوه . روبرت ! .. كيف حالك ؟ إننى أذكرك جيداً ، فقد
كنت أحياناً تسمح لى بأن أركب فرس مس جورجيانا . وكيف حال
ييسى ؟ .. إننى متزوج ؟

- نعم يا آنسة . إن زوجتى موفورة السجدة - تذكرى - وقد ولدت
فى طفلا آخر منذ شهرين - قصار لدينا الآن ثلاثة - وهم جميعاً جيدون !
- وهل الأسرة فى القصر بخير كذلك بلندن ؟

— يوسفنى أننى لا أحمل لك أبناء سارة عنهم ، لأنهم الآن فى حالة سيئة جداً .

فقلت وأنا أرنو إلى ملبسه السوداء : أرجو ألا يكون قد مات أحد منهم .

— لقد مات مستر جون فى مثل الياحة من الأسبوع الماضى بمسكنه فى لندن .

— مستر جون ؟

— نعم .

— وكيف احتملت أمه المصاب ؟

— لم يكن يا آنسة مصاباً عادياً ، فقد كانت حياته غاية فى التوتر . إذ انغمس فى السنوات الثلاث الأخيرة فى مسائل عجيبة ، وكانت وفاته أليمة !

— سمعت من بيسى أنه لم يكن يحسن التصرف .

— يحسن التصرف ؟ .. لم يكن هناك أسوأ مما فعل . فقد قضى على صحته وأمواله بين أسوأ الأقران من رجال ونساء . وغرق فى الديون ودخل السجون .. ولقد أعانته أمه مرتين ، ولكنه كان يعود — كلما أطلق سراحه — إلى رفاهة القداى وعاداته السابقة ، ولم يكن عقله سليماً فاستغفله الأوغاد الذين كان يعيش بينهم . إلى أكثر مما سمعت .. وقد جاء إلى (جيتسهد) منذ حوالى ثلاثة شهور ، وطالب إلى والدته أن تترك له عن كل شيء ، فرفضت بعد أن قلت موارد كثير يسبب إسراره وتبذيره ، فارتد عائداً ، ولم يسمع به أحد حتى جاءنا خبر موته .

ولا يعرف غير الله كيف مات : ولكنهم يقولون إنه انتحر !

* * *

● وأخذت إلى الضمت لأن الخبر كان مروعاً ، فاستطرد ليفن يقول : « ولقد كانت سياتى ذاتها معتلة الصحة من زمن ، فهى وإن ازدادت بدانة . إلا أنها لم تكن قوية ، وكان ضياع الأموال ، والخوف من الفقر يعضمانها .. ثم هبط عليها موت جون والطريقة التى قضى بها هبوط الصاعقة . فتفادت أنطق ثلاثة أيام . ولكن يبدو أن حالتها تحسنت فى يوم الثلاثاء الماضى ، إذ أظهرت أنها تريد أن تفضى بشيء ، وظلت تبكى إلى زوجتى إشارات وهى تتمم ، إلى أن فهمت بيسى بالأمس فقط أنها تنطق باسمك . وأخيراً تفوّهت قائلة : « جيتونى بيجن .. إنشوا عن جين إير .. أريد أن أتحدث إليها ! » . ولم تكن بيسى وافقة من أنها فى تمام عقلها . ومن أنها تعنى ما قالت ، ولكنها أخبرت ابنتها ، وأشارت عليها بدعوتك ، فأهملت الانشغال الأمر فى البداية . ولكن القلق استبد بأفهامها ، وراحت تردد اسمك كثيراً ، ولذلك قبلنا أخيراً أن ترسلانى فى طلبك ، فغادرت (جيتسهد) بالأمس . فإذا أمكنك التاهب يا آنسة عدت بك فى ساعة مبكرة من صبيحة الغد :

— نعم ياروبرت ، أسوف أسمعك ، إذ يبدو من الجدبى أن أذهب إليها :

— هذا هو رأيى كذلك يا آنسة ، وقد قالت بيسى إنك لن ترفضى ، ولكنى أظنك فى حاجة إلى الاستئذان قبل الرجوع .

— نعم وسأفعل هذا الآن :

ثم قادته إلى حجرة اخنوم . وأوصيت به زوجة جون : بل وجون نفسه ، ثم خرجت تبحث عن مستر روشستر .. ولكنه لم يكن في أية غرفة من غرف الطابق الأرضي : ولم يكن كذلك في القناء . ولا في حظائر الخيل . وسألت مسز فيرفاكس عما إذا كانت قد شاهدته ، فأخبرتني بأنها رآته ، وأنها تعتقد أنه يلعب البليارد مع مس انجرام . فأسرعت إلى غرفة البليارد ، وكان صوت ارتطام الكرات - ومجموعة الأصوات تنبعث من هناك - حيث وجدت مستر روشستر ومس انجرام وفتاتى إيشتون والمعجبين بهما . وقد انهمكوا جميعاً في اللعب . وكنت في حاجة إلى جرأة لكي أزعج خاطر مثل هذه الجماعة اللامية . ولكن مهجنى لم تكن من نوع أملاك إرجاهه . فاقتربت من السيد . وكان يقف بجانب مس انجرام التي استدارت ناحيتي عندما اقتربت منهما ، وتطلعت إليّ في تعال وكبرياء وقد بدا في عينيها أنها تسأل : « ماذا يمكن أن تريد هذه الحشرة الزاحفة الآن ؟ » . وعندما قلت في صوت خافت : « مستر روشستر ! » . تحركت وكأنها تهم بطردى . وما زلت أذكر الآن منظرها وهي تبدو غاية في الجمال والفطنة . وقد ارتدت ثوباً للصباح من الحرير الأزرق ، وعقدت حول شعرها وشاحاً هفهافاً بلون السماء . وكانت مبهجة النفس باللعب . ولم تخفف عجزقتها المهتاجة من الطرب الذي تجلب على قسايتها الشقاء .. وتحولت تسأل مستر روشستر : « هل تريدك هذه المخلوقة ؟ »

ولفتت مستر روشستر ليقين المخلوقة التي كانت تريد . وسرعان ما اختلج وجهه بحركة عجيبة - حتى إحدى ظواهره العجيبة المبهمة -

ثم ألقى عصا البليارد ، وتبعني إلى خارج الغرفة ، فأسند ظهره إلى باب حجرة الثمارة . بعد أن أغلقه . وقال : « ماذا يا جين ؟ »
 .. أرجوك يا سيدى أن تمنحني إجازة لأسبوع أو اثنين .
 .. ماذا تصنعين بها .. إلى أين تذهبين ؟
 .. لأرى سيادة مريضة أرسلت في طابى .
 .. أية سيادة مريضة ؟ .. وأين تقيم ؟
 .. في (جينسبيد) في مقاطعة ... ؟
 .. مقاطعة ... ؟ إنها على بعد مائة ميل !.. من تكون هسلد التي ترسل في طلب الناس من هذه المسافة ليروها ؟ ؟
 .. استميا ريد .. مسز ريد .
 .. ريد من (جينسبيد) ؟ لقد كان في (جينسبيد) قاض يادعى ريد .
 .. إنها أرملته يا سيدى .
 .. وما شأنك بها ؟ كيف تعرفينها ؟
 .. كان مستر ريد خالى .. شقيق والدتي .
 .. يا ربة !.. إنك لم تخبرينى بذلك قط من قبل . بل كنت تقولين دائماً إنه ليس لك أقارب .

.. ليس لى أقارب يعتزون بانتسابي إليهم يا سيدى . فإن مستر ريد قد توفى ، ثم تيمدتني زوجته .

.. لماذا ؟

.. لأننى كنت فقيرة ، وعبئاً ثقيلاً .
 .. ولكن هل ترك ريد أطفالاً ؟ لا بد أن يكون لك أولاد خان .

وبالأمس كان السير جورج لين يتحدث عن شاب يدعى ريد في (جيتسهد) ، قال عنه إنه من شر الأوغاد في المدينة . كما ذكرت انجرام اسم فتاة تدعى جورجيانا ريد من نفس المكان . كانت موضع الإعجاب الشديد للرجال منذ موسم أو اثنين في لندن .

— لقد توفي جون ريد هو الآخر ياسيدى . فقد أقلس ! وكاد يتسبب في إفلاس أسرته ، ويقال إنه انتحر . وقد صدمت أمه بنبأ وفاته صدمة أصابها بالفالج .

— وماذا في وسعك أن تفعل من أجلها ؟ هراء يا جين ! لن أفكر قط في قطع مسافة مائة ميل لأزور سيدة ربما يعاجلها الموت قبل أن أصل إليها .. هذا إلى أنك تقولين إنها نيفذك .

— نعم ياسيدى ولكن كان ذلك منذ زمن بعيد وعندما كانت ظروفها تختلف كثيراً عما هي عليه الآن .. لن يستريح بالي إذا أنا أهملت الآن وغابتها .

— كم ستمكثين هناك ؟
— أقصر مدة ممكنة ياسيدى .
— عديني بأن تمكثي أسبوعاً .
— يجدر ألا أعديك ، فقد أضطر إلى الحثث بهذا الوعد .
— ستعودين على أية حال . ولن يفركك أى عثر بأن تقبلي معها إقامة دائمة .

— أوه . كلا .. سأعود حتماً . إذا جرت الأمور كما ينبغي :

— وعن ميرافنك ؟ .. لن تسافري مائة ميل بمفردك ؟

— كلا ياسيدى . فقد أرسلت سائق عربتها .

— أوه شخص يرون به ؟

— نعم ياسيدى . فقد أقام مع الأسرة عشر سنوات .

■ وفكر مستر روشستر لحظة ثم قال : « ومتى ترغين في السفر ؟ »

— في ساعة مبكّرة من صبيحة الغد ياسيدى .

— حسناً .. لا بد لك من بعض المال ، إذ لا يمكن أن تسافري دون نقود .

وأردف مهتسماً : « أظنك لا تملكين كثيراً ، لأنني لم أعطك مرتبك بعد . كم تملكين في ذيلك يا جين ؟ »

فأخرجت كيس نقودى .. وكما كان هزلاً .. وقلت : « خمسة شلنات ياسيدى ! » . فنناول الكيس ، وأفرغ في راحة يده ما كنت أدخره . ثم راح يقبضه وكأنه يتلوى بضالة هذا (الكتر) . وسرعان ما أخرج حافظة نقوده . وقال وهو يقدم لى ورقة مالية بمبلغ خمسين جنياً : « إليك ! .. وكان مديناً لى بخمسة عشر جنياً ، فأخبرته بأننى لم أكن أملك ما أرد منه الباقى . فقال : « لست أريد نقوداً كما تعلمين .. خذى هذا أحرك ! » .. ولكننى رفضت أن أخذه أكثر مما كنت أستحق . فتنجهمت أساورى فى أول الأمر ، ثم قال وكأنه تذكر شيئاً : « حسناً .. حسناً .. يجدر لى ألا أعطيك كل مالك حتى الآن . فقد تمكثين ثلاثة شهور إذا أخذت خمسين جنياً .. هاك عشرة جنيهات - ألا تكفى ؟ »

إنك تخاطرين بالإعلان ، فليتي أعطيك جنياً واحداً بدلاً من عشرة .
أعیدی إلى تسعة جنيات يا جين . فإنتي بحاجة إليها . : فقلت وأنا
أخفي يدي والكيس خلف ظهري : « وأنا في حاجة إليها كذلك ،
ولا أستطيع التخلي عنها بحال من الأحوال ! »

— يا لك من بخلية صغيرة !.. أترفضين تقديم مساعدة مالية لي ؟
هاتي خمسة جنيات يا جين :

— ولا خمسة شلنات يا سيدي .. بل ولا خمسة بنسات .

— دعيني فقط أأتي نظرة على نقودك .

— كلا يا سيدي فلست أثق بك .

— جين !

— سيدي ؟

— عديني بشيء واحد .

— سأعذك بكل ما أراني قادرة على الوفاء به .

— لا تعلني في الصحف ، واركعي التماس الوظيفة لي ، وأعدك

بأن أجدها لك في الوقت المناسب .

— يسهلني أن تفعل ذلك يا سيدي ، على أن تعلني بدورك أن

أكون وأديلي في مأمن بعيد عن القصر ، قبل أن تلجئه عروسك .

— حسن جداً .. حسن جداً .. أقسم على ذلك !.. هل ستسافرين

غداً ؟

.. نعم يا سيدي ، في ساعة مبكرة .

.. هل ستترلين إلى حجرة الاستقبال بعد العشاء ؟

جيني إيسلمير

١٩٠

— نعم يا سيدي وستكون الآن مديناً لي بخمسة :

— عودتي لأخذها إذن ، وسأكون بمثابة مصروف تودعين فيه

أربعين جنياً !

— في وسعي يا مستر روشستر أن أذكر لك موضوعاً خاصاً بالعمل

ما دامت الفرصة سانحة .

.. موضوعاً في العمل ؟.. إنني متلهف لسماعه !

.. لقد تفضلت فأبلغتني يا سيدي بأنك ستزوج في القريب العاجل .

— نعم وماذا بعد ذلك ؟

— ينبغي في هذه الحالة يا سيدي أن تذهب أديلي إلى المدرسة ..

وأنا واثقة من أنك ستلمس ضرورة ذلك .

— لأبعدنها عن طريق عروسي التي قد تدوسها بتقدميها بشدة ؟..

إن اقترحك معقول ، ويجب بلا شك أن تذهب أديلي إلى المدرسة كما

تقولين . أما أنت فيجب بطبيعة الحال أن تمضي مباشرة .. إلى الشيطان ؟

— أرجو غير ذلك ، ولكن يجب أن أبحث عن عمل آخر في

مكان ما !

فصاح بصوت رنان وقد تقلصت أسارير وجهه بصورة غريبة

تبعث على الضحك : « أظنك ستوسلين إلى مدام ريد العجوز أو ابنتها

أن تبحث لك إحداهن عن عمل ؟ »

— كلا يا سيدي ، لست على وفاق مع قريباتي بحيث أسألن

فضلاً .. ولكنني سأعلن في الصحف :

فزجر قائلاً : « إنك لن تلبث أن تطمعي في تسلق أهرام مصر !.. »

- كلا يا سيدى ، يجب أن أتبعك للرحيل .
 — إذن ألا يجب أن يودع أحدنا الآخر لفترة وجيزة ؟
 — أظن ذلك يا سيدى .
 — وكيف يؤدى الناس الوداع يا جيم ؟ .. علمنى لأتقن لست خبيراً بذلك .
 — لأنهم يقولون : « مع السلامة » ، أو شيئاً من هذا القبيل يفضلونه .
 — إذن ، قولى ذلك .
 — أستودعك الله يا مستر روشتر إلى حين :
 — وماذا ينبغي أن أقول ؟
 — نفس العبارة إذا شئت يا سيدى .
 — أستودعك الله يا مس لير إلى حين .. أهذا كل شيء ؟
 — نعم .
 — أرها عبارة لا تروق لنوفى .. فهى جافة ، غير ودية : بل أحب عبارة أخرى تضاف إلى هذه الطقوس « كأن نتصافح » ولكن كلا .. هذا أيضاً لا يكفينى « فهلا تفعلين غير قولك » أستودعك الله « يا جيم ؟
 — هذا يكفى يا سيدى ، فإن النية الطيبة يمكن أن تتمثل فى كلمة واحدة صادرة من القلب « تؤدى ما تؤديه الكلمات المتعددة »
 — هذا محتمل ، ولكن عبارة « أستودعك الله » هذه جوفاء باردة ■
 — سألت نفسى : « إلى متى سيقف هكذا وظهروه إلى الباب ؟ »
 — إننى أريد أن أسرع إلى حزم أمتعتى !

ودق جرس العشاء ، وعندئذ غادرنى على الفور دون أن ينطق بحرف آخر . ولم أراه مرة أخرى طوال اليوم . ثم رحلت قبل أن يستيقظ فى الصباح .

* * *

■ بلغت قصر (جيتسبيد) فى حوالى الخامسة بعد الظهر من أول مايو ، فدخلت إلى مسكن البواب قبل أن أسعى إلى البهو . ووجدت المسكن نظيفاً ، أنيقاً ، وقد تدلت على النوافذ المزينة ستائر صغيرة بيضاء . وبدت الأرضية غاية فى النظافة ، بينما كانت المدفأة تلمع وقد اشتعلت فيها النيران المتوهجة ، ورأيت بيسى جالسة على أريكة بقرب المدفأة . ترضع وليدها ، بينما كان روبرت وأخته — ابناها الآخران — يلعبان بهو . فى أحد الأركان . وعندما دخلت صاحبت مسر ليقن : « لباركك الله ! كنت أعرف أنك سوف تأتين ! » .. فقبلتها وقلت : « نعم يا بيسى ، وأرجو ألا أكون قد تأخرت . كيف حال مسز ريد ؟ أرجو أن تكون على قيد الحياة » .

— نعم إنها على قيد الحياة ، بل هى أكثر انبهاً واستجاءاً لقواها عما كانت ، ويقول العلييب : إن حياتها قد تطول أسبوعاً أو اثنين ، ولكنه لا يؤمل فى أن تشفى نهائياً :
 — هل ذكرت اسمى أخيراً ؟

— كانت تتحدث عنك صباح اليرم وتمنى بحبك ، ولكنها الآن نائمة ، أو هى كانت كذلك ، عندما كنت بالطابق العلوى منذ عشر دقائق . وهى تغرق عادة فى سبات عميق طوال النهار ، ولا تصحو قبل

السابعة أو السابعة . هل تستريحين هنا ساعة يا آنسة ثم تسعد معك ؟
وعندئذ دخل (روبرت) - زوجها - فوضعت حقيبتها الناعم في
مهدمة . ومضت لتستقبله : ثم ألقت في أن الخلع قلنسوتي . وأن أتناول
الشاي . لأنني - كما قالت - كنت أبلى شاحبة متعبة . وفرحت
بخصاوتها . فتركها تلعب عنى معطف السفر . كما كانت تفعل وأنا طفلة
صغيرة . وتزاحمت على رأسى ذكريات الماضي . وأنا أرنو إليهما
وهي تتحرك هنا وهناك : تعد الصينية وطباقاً أنيقاً من الصيني : ثم
تقطع الخبز والزبد . وتقدم الكعك . وترتب بين الفينة والأخرى على
روبرت الصغير . أو جين الصغيرة . بمثل ما كانت تفعل معي في
الأيام السالفة . فقد ظلت بيسى محتفظة بظاهرها الرشيق وخطوها
الخفيف ونظراتها الطيبة !

ولما أعد الشاي . هممت بالاقتراب من المنضدة . ولكنها طلبت
منى - بلهجتها القديمة الخازمة - أن أجلس في مكانى . كي تقوم هي
بخدمتي وأنا في جلستي بخوار المدافاة . ثم وضعت أمامى منضدة صغيرة
بعلوها قلمح وطبق به الخبز المقدد . تماماً كما اعتادت أن تتوفر على
راحتي . وتقدم لى بعض الطعام اللذيذ الخاص . الذى كانت تسرقه
وتحمله إلى ! فابتسمت وأذعنت كما كنت أفعل في الأيام الخالية .

وأرادت أن تعرف هل كنت سعيدة في قصر (ثورنفيك) .
وكيف كانت بخدومتى . فلما أخبرتها بأن سيد القصر أعزب . سألتني
عما إذا كان ظريفاً . وهل ملت إليه . فقلت لها إنه رجل دميم .
ولكنه سيد بالمعنى الصحيح . وأنه يعاملنى برفق . مما يجعلنى راضية .

ثم أخذت أصف لها المدعوين المرحين الذين كانوا يقيمون في القصر
منذ عهد قريب . فراحت تصفنى إلى التفاصيل باهتمام . لأنها كانت من
الموضوعات التى تحبها وتبتهج لساعها . وسرعان ما انقضت ساعة
في مثل هذا الحديث . فقامت تلبسنى قلنسوتي . ومعطى . ثم غادرت
مسكن البواب إلى القصر وأنا في رقتها . كما كنت أرافقها منذ تسع
سنوات . يوم هبطت الممر - الذى أخذت أصعبه الآن - مغادرة
القصر في صباح يوم غائم قارس من أيام يناير . وقلبي زاحر بالألم
والمرارة لذهابى إلى ملجأ (لوود) البعيد . كما لو كنت مذنبسة
أو متبوءة . ومرة أخرى تهض أمأى ذلك السقف الذى كان يحيم على
أعداء لى . فلذا الشك يملأ قلبي والألم يمز في نفسى . فأشعر بأننى
شريدة تيم على وجه الأرض . ولكن سرعان ما عاودتنى الثقة بالنفس
وبقائرتى . فنحنت حدة الشعور بالفلم . والتأم جرح الشرور التى
نزلت فى . وانطفأت نيران السخط المتأججة في صدرى . وقالت
بيسى وهي تتقدمنى خلال البو : « ستذهبن أولاً إلى سحجرة الإفطار
لأن السيدتين الصغيرتين ستكونان هنالك » .

● ودخلت الحجرة بعد لحظة . فوجدت كل شئ بها كما كان يوم
قمت لأول مرة إلى ممر بروكلهيرست . ولكنى وجدت أهل القصر
قد تغيروا حتى كدت لا أعرفهم . فقد ظهرت أمامى شابتان . إحداها
فارهة الطول - في قامة مس اثبرام تقريباً - مسرفة النحافة . ذات
وجه شاحب زاده ثوبها الأسود البسيط شحوباً . وقد علقت في صدرها

مسيحة وصلياً كإحدى الرهبانيات ، فأيقنت أنها (اليزا) - وإن لم أعثر على شيء من وجوه الشبه بينها في حاضرها وبين ما كانت عليه وهي طفلة صغيرة .. وكانت الأخرى (جورجيانا) ، بلا ريب . ولكنها لم تكن (جورجيانا) الفتاة النحيلة التي أذكرها عندما كانت في الحادية عشرة من عمرها . وإنما صارت شابة بدينة ، جميلة الأساور . ذات عينين ناعستين زرقاوين . وشعر ذهبي . وكانت ترتدي ثوباً أسود كذلك . ولكنه من طراز حديث . غير طراز ثوب أختها المحترمة . وكان في كل من الفتاتين شبه بأهلهما . وإذا تقدمت نحوهما . قامتا لتحيتي . وخاليتني كلتاهما باسم (الآنسة إير) . ونطقت (اليزا) تحيتها بصوت مقضب دون أن تبسم ثم عادت فجلست وراحت تحديق في الموقد وكأنها نسيته . أما (جورجيانا) فقد أضافت إلى قولها : « كيف حالك ؟ » . وبضعة أسئلة عادية عن رحلتي والطقس وغير ذلك بصوت مترامخ . بطيء . وهي ترمقني من زاوية عينها ، وتنفضني من مفرق إلى أخمص قدمي :

ولقد كان للفتاتين طريقة خاصة في التهكم على دون أن تعبها عن ذلك بالكلام ، وذلك بالاستعانة بنظرة خاصة متعجرفة . وبلهجة باردة ترخر بعدم الاكتراث ، دون الالتجاء إلى كلمة أو عمل ينم عن فظاظة . على أن السخرية لم تعد تؤثر في - سواء كانت مستترة أو صريحة - كما كانت تؤثر من قبل . وأدهشني - إذ جلست بين ابنتي خالي - أن أتبين كيف احتملت في يسر إهمال إحداهما لثأني ، وسخرية الأخرى مني : ذلك لأنني كنت أفكر في أشياء أخرى : فقد استيقظ في نفسي خلال الشهور الأخيرة من المشاعر ما لا يقوى أي شيء آخر على إثارتها ..

واحتاجت في صدرى من الآلام والمسرات ما كان يفوق أي شيء في وسعهما أن يبيجا . ومن ثم فلم أحفل بما كان يبدو منهما من طيبة أو شر . وما لبثت أن التفت إلى جورجيانا متسائلة في هدوء : « كيف حال مسز ريد ؟ » . فقالت : « مسز ريد ؟ .. آه ، تعين ماما ! .. إنها في حالة سيئة ، وما أظنك ستتمكنين الليلة من رؤيتها ! » .

- أكون شاكرة لو صعدت إلى غرفتها وأبلغتها أنني قد وصلت .

فارتجفت وأمعنت في النظر إلى بعينيها الزرقاوين .. واستطردت أقول : « الذي أعلمه أنها ترغب في رؤيتي بصفة خاصة . ولا أحب أن أوجع رغبتها هذه ما استطعت » .. فقالت اليزا : « إن والدتي تكره أن يفلق راحتها إنسان في المساء » .. وسرعان ما نهضت فتناولت قلنسوتي وفقازي يده . قائلة إنني سأذهب إلى بيبي التي أتوقع وجودها في المطبخ . لأسألهما إذا كان في وسعي أن أقابل مسز ريد في تلك الليلة : وإذا وجدت بيبي بحث بها في تلك المهمة . وبدأت في اتخاذ إجراءات أخرى . ولقد كنت فيما مضى أجفل من التحدي ، ولو أنني قبلت منذ عام يمثل هذه الغفلة الفاترة لكننت قد غادرت (جيتسريد) في الصباح التالي .. ولكنني - في هذه المرة - رأيت أن مثل هذا التفكير ينطوي على حماقة . لاسيما بعد أن قطعت مائة ميل لأرى خالتي . ومن ثم كان لا بد من أن أمكث حتى تتحسن حالها أو تموت . أما صلف ابنتها أو حماقتها فسأله كان من الواجب أن أدعها جانباً وألا أفكر فيها ، ولذلك خاطبت مديرة المنزل . وطلبت إليها أن تعد لي حجرة ، وأخبرتها بأنني قد أظلي ضيفه هنا لمدة أسبوع أو اثنين . ثم أمرت بأن

تحمل حقيقتي إلى حجرتي وتبعها إلى هنالك . ولكنني التقيت بيسي عند رأس الدرج ، فلما رأني قالت : « إن السيدة مستيقظة . وقد أخبرتها بقدمك . تعالي لترى هل تعرفك الآن ! » .

■ ولم أكن في حاجة إلى من يقودني إلى الغرفة المعروفة التي طالما استدعيت إليها في الماضي ، لأستمع إلى كلمات التأنيب والشرع . فتقدمت بيسي . وفتح الباب بدهوء .. ورأيت مصباحاً يحيط به خطة على المنضدة : إذ كان الظلام قد بدأ يرخي أستاره . وكان السير الكبير . ذو الأعمدة الأربعة ، والستائر العنبرية المألون . قائماً كما عهدته منذ زمن بعيد .. كذلك شاهدت منضدة الزينة . والمقعد ذا المسننين . والمقعّد الصغير الذي كثيراً ما حكم على بأن أركع عليه وأطلب المغفرة واعتنق عن الذنوب التي لم أرتكبها .. وتطلعت إلى ركن قريب . وأنا أتوق أن أرى جسداً نحيلاً يقضي أيقع فيه . في ارتقاب أن يتنفس على كالغريت ويوثق يدي المرتعدة أو عنق .. وأعني جسد (جون ريد) كما كان في الماضي !.. ثم اقتربت من الفراش . وفتح الستائر وانحبت على الوسائد العالية .

« وكنت أذكر وجه مسز ريد . فنظرت في لفة إلى صورتها المألوفة . ومن بواعث الغبطة أن الزمن يطغى الرغبة الجائعة في الانتقام . ويخمد جذوة الحقد والكراهية .. فلقد غارت هذه المرأة وفي زاحز بالحرارة والبعضاء . ولكنني عدت إليها الآن وليس في نفسي سوى الأمل لآلامها والرغبة القوية في أن أنسى وأصفح عن كل أذاها . وأن تصافي



ثم اقتربت من الفراش ، وفتح الستائر وانحبت على الوسائد العالية

وأمسك يدها في حب ومودة .. ورأيت الوجه المألوف بصرامته وقوته .
وشاهدت عينيها الغريبتين اللتين لم يكن أي شيء يتقوى على أن يلين
نظراتهما .. ورأيت الجبين المرتفع الأمر المستبد ، الذي طالما قطب
في وجهي متوعداً ، ناعماً .. وعادت إلى ذاكرتي فظائع الطفولة وأحزانها
وأنا أقرب ذلك الجبين .. ومع ذلك فإني ملت عليها وقبلتها . فتنظرت
إلى وقالت : « أهذه جين إير ؟ »

— نعم يا خالتي ريد . كيف حالك يا خالتي العزيزة ؟

وكنت قد أفسدت ذات مرة ألا أدعوها خالتي ، ولكني لم أر ذنباً
في أن أنقض هذا القسم الآن . وكانت أصابعي قد أطيقت على يدها .
التي أبرزتها فوق الغطاء ، ولو أنها أطيقت بدورها على أصابعي لشعرت
بفجطة صادقة . ولكن يبدو أن الطبايع الجافة لا تلين بتلك السرعة .
وأن البغضاء الطبيعية لا تجتث بسهولة . إذ أن مسر ريد سميت يدها بعيداً .
وأشاحت عني بوجهها ، وقالت إن الليل حار ، ثم عادت ترمقني بنظرات
باردة كالجليد ، فأدركت في الحال أن رأياً قوياً وشعوراً غموضياً لم
يتغيرا ولا يمكن أن يتغيرا ، كما أدركت من عينا الجائدة المتعجزة التي
لا تلين أو تدمع ، أنها مصممة على أن تنتهي بالشر إلى النهاية . لأنها
إذا اعتقدت أنني طيبة فلن تصيب سروراً من ذلك وإنما سينتولها شعور
بالكد والغم .. وأحسست بألم ، ثم غيظ ، ثم بغزم على إذلالها .. على
أن أكون سيدتها برغم طبيعتها وإرادتها معاً .. وكانت دموعي قد
طفرت كعادتي في الطفولة ، ولكني سرعان ما رددتها إلى مآقي ، وجئت
بمقعد إلى جوار الفراش : وجلست ثم انحيت على الوسادة قائلة : « لقد

أرسلت في طليي : وهأنذا وقد اعترمت البقاء حتى أرى كيف تتطور
حالتك ؟

— أود . بالطبع . هل قابلت ابنتي ؟

— نعم .

— حسناً .. يمكن أن تخبرنيهما أنني أريد أن يتي هنا إلى أن أتمكن من
محادثة نيك في أمور تدور برأسي . لقد تأخر الوقت اليلة ، وإلى لأجد
مشقة في أن أتذكرها . ولكن ثمة شيئاً واحداً أريد أن أقوله .. دعيني
أر ..



● وتبين لي من نظرتها الحائرة وتغير لهجتها مبلغ ما أصاب جسمها
القوى من ضعف وهزال . وفيما كانت تتقلب في فراشها ، جذبت
الغطاء حول جسمها . ولكن مرفقي كان مرتكراً على طرف منه ،
فاهتاجت وقالت :

— اعتلى في جلستك . لا تضايقيني بالتشبث بالغطاء . هل أنت

جين إير ؟

— أنا جين إير .

— لقد لاقيت من هذه الطفلة ما لا يتصوره إنسان . فيالها من عبء
ثقيل على كاهلي . وبيا المضايقات التي كانت تهددني في كل يوم
وفي كل ساعة . بما كانت تبديه من نزعات غير مفهومة ، ونوبات
فجائية من العناد والهياج . ومراقبة دائمة لكل حركة من حركاتنا . بل
إني لأجهش بأنها خاطبتني ذات مرة وكأنها مجنونة أو شيطانة !

أبداً لم يتحدثني طفلة أو تنظر إليّ في حياتي كما فعلت هذه الطفلة . ولذلك فقد اغتبطت عندما تخلصت منها وأبعدتها عن القصر . ما حظيَ معها في (لو وود) ؟ لقد تشقت الخفى هناك ومات كثير من التاميزات . ومع ذلك فإنها لم تمت . ولكنني قلت إنها ماتت . وأتيت أن تموت ؟ قلت : « ياها من رغبة عجيبة باسمز ويد ! لماذا تكرهينها إلى هذا الحد ؟ »

— لقد كنت أكره أمها دائماً . لأنها كانت غريبة زوجي الوحيدة . وكان يحبها . وقد عارض إرادة الأسرة كلها عندما تيرأت منها لزوجها الوضيع . وعندما جاءه خبر موتها بكى كالمنعوه ، وأرسل في طلب الطفلة رغم توسلاتي إليه أن يعهد بها إلى مربية ويداع لثقات تربيتها . ولقد كرهتها عندما وقعت عليها عيناى لأول مرة . إذ كانت مخلوقة سقيمة دائبة العويل والبكاء .. تبكى طوال الليل في مهدها . ولم تكن تصرخ من قلبها كغيرها من الأطفال . وإنما كانت تفسح وتأوه وتبكي بصوت خافت . ولقد رثى (ريد) لها . فكان يحلف عليها ويرعاهما بنفسه ، ويعني بها كما لو كانت ابنته .. بل وأكثر مما كان يعنى بأولاده حين كانوا في سنها .. وكان يحاول أن يغري أولادى بالتودد لهذه المسنولة الصغيرة : ولكن أطفالي الأعزاء لم يكونوا يطيعونها . فغضب منهم عندما أظهروا نفورهم منها . ولقد اعتاد — أثناء مرضه الأخير — أن يرفدها معه في فراشه . حتى إذا لم يبق على موته إلا ساعة . أكرهني على أن أقسم له على أن أكفلها .. وكنت أؤثر أن يعهد إليّ بطفل مسكين من أبناء الملاجئ ، على أن يعهد إليّ بهذه المخلوقة ! .. ولكنه كان ضعيفاً

بفطرته ! .. إن جون لا يشبه أباه . وإنما يشبهني ، ويشبه إخوتي : فيور يشبه آل جيبسون ، لا آل ريد .. آه . كم أتيت أن يكف عن تعذيبني بنشاطاته التي يرسلها يومياً في طلب نفوذ . لم يعد لدى مال أمتدح إياه ، فنحن نحدو إلى الفقر . ولابد من أن أمرح نصف الخلد « وأن أغلق جزءاً من القصر ، أو أن أؤجره . . . ولست أحتمل ذلك ، ولكن ما حيلتي ؟ .. إن ثأني موارد يدهيان في تسديد فوائد الديون ، فإن جون يقامر بدرجة بشعة ، ويخسر دائماً .. مسكين ولدي ! .. إنه فريسة للمحتالين .. لقد انحط وتدهور .. أصبحت نظرتة فظيعة . ويظهره .. إنني لأشعر بالهجل عندما أراه !

وكان الانفعال قد استبد بها ، فقلت لبيسى التي كانت تقف عند الجانب الآخر من الفراش : « يحسن أن نتركها الآن . »

— ربما يحسن بك ذلك يا آنسة ، ولكنها كثيراً ما تتحدث هكذا عندما يقترب الليل . فإذا جاء الصباح هدأت ..

وعندما نهضت صاحبت مسز ريد : « قفي .. لدى شيء آخر أود أن أقوله : إنه يتهددني .. يتهددني دائماً بموته أو موتي . وقد حلمت به أحياناً كثيرة وهو ماتي وفي عنقه جرح ، أو بوجه مفتوح ، أسود . لقد غلوت في مآزق وثقلت حموى ، فماذا أفعل ؟ وكيف أحصل على نفوذ ؟ فأخذت بيسي تغريها بتناول جرعة مهدئة . وتمكنت من ذلك بصعوبة شديدة : فلم تلبث مسز ريد أن هدأت ، ثم استغرقت في النوم ، وإذا ذاك فارقتها .

● وانقضى أكثر من عشرة أيام قبل أن أستطيع مخاطبتها مرة أخرى . فقد ظلت تهرف أو تستغرق في سبات عميق . فأمر الطبيب بمنع كل ما قد يثير أعصابها . واستطعت في خلال هذه الفترة أن أوثق علاقتي مع إلزبا وجورجيانا . وكانتا تبديان في أول الأمر بروداً شديداً نحوي ، فكانتا إلزبا تنقضي سواد يومها في الحياكة والتطريز . أو في القراءة والكتابة ، وهي لا تكاد تخاطبني أو تخاطب أختها بحرف . أما جورجيانا فكانت : جه إذ ذلك حديثاً فارغاً إلى عصفورها (الكناري) . دون أن تكثرت في ا ولكني كنت قد عقدت العزم على ألا أدع الحيرة والخرج يتولياني لافتقاري إلى ما يشغلني ويسليني . فبحثت معي بأدوات الرسم ، ووجدت فيها ما أشد . ورحت أحمل أقلامى وأوراقى وأجلس بجوار النافذة بعيداً عنهما ، وأتأمل فيا يعنى في من مناظر تمثل لخياي ، إلى أن شرعت صباح يوم في رسم وجه إنسان لم أحفل بشكله ولا بمحايته ، بل تناولت قلماً أسود طرياً ، شحذت منه ، وعكشت على العمل ، وسرعان ما رسمت على الورق جيئاً بارزاً . عريضاً . ووجهياً شبه مربع .. وسرني هذا الشكل ، فراححت أصابعي تعمل مسرعة لتلاؤ الوجه بالملامح ، وكان لابد من حاجبين مستقيمين . تقبلين . تحت هذا الجبين .. وتلا ذلك ... بحركة طبيعية ... أنف بدع الشكل . مستقيم . واسع الفتحنتين ، ثم فم من . ليس ضيقاً . فذقن . على العزم . تنوسلها ثغرة غائرة .. وكان لابد من شاربين أسودين . وبعض الشعر الأسود المسدل على الصدغين ، تهدل منه خصلات على الجبين .. وبقيت العينان ، إذ تركتهما للنهاية ، لأنهما كانتا تتطلبان عناية وجهياً . فرسمتهما

واسعتين جبيلتين ، بأهداب طويلة ، سمراء ، وإنسانين مؤلفتين ، كبيرتين . وقلت لنفسى : « بدع ! .. ولكنه ليس دقيق الشبه .. لا تزال الملامح بحاجة إلى مزيد من القوة والعزم ! .. » فضاغت من دكنة الظلال السوداء . حتى تزداد الملامح البيضاء إشراقاً .. وما لبثت لمسة أو لمستان حتى حفتنا التبحر المشهود .. وإذا أمامي وجه صديق ، فقيم كان يعتني أن توليني خاتان الفتاتان ظهرهما ؟ .. وتأملته ، ثم ابتسمت لهذا الشبه الناطق . واستغرقت في التأمل . معتبلة .

واقتربت مني إلزبا دون أن أشعر بها وسألني : « هل هذه صورة لإنسان تعرفينه ؟ .. » فأجبها بأنها مجرد صورة رأس من وحي الخيال ، ثم بادرت أخفياً تحت الأوراق الأخرى . ومن الطبيعي أنني كذبت ، لأن الصورة كانت في الواقع تمثل مستر روشستر تمثيلاً أميناً جداً ، ولكن ماذا كان يهمها أو يهم أحداً سواي من أمرها ؟ .. وتقدمت جورجيانا بدورها ، فألقت نظرة .. وسرنتها الرسوم الأخرى ، ولكنها وصفت الصورة الأولى بأنها : « رجل دميم » . وتبدت الدهشة والعجب عليهما لمهازتي . فقرضت أن أرسم لكل منهما صورة ، فجلست كل منهما بدورها أمامي . حتى رسمت لها صورة تخطيطية . وعند ذلك أخرجت جورجيانا مجموعة من صورها في (الألبوم) ، فوعدها بأن أضيف إليها بعض الألوان المائية . فسرعان ما صفت نفسها . واقترحت أن نمشي في الحديقة .. وقبل أن تنتهي ساعتان أخريان . فخصنا معاً في أمور خاصة وحديث شخصي ، وأخففتي بوصف الشتاء الذي قضته في لندن منذ عامين . والإعجاب الذي أثارته في قلوب الناس هناك . وما لقيته

من صروب الرعاية والاهتمام ، بل لقد أملت للماعاً إلى بعض غزواتها .
وفي أثناء العصر والمساء ، توسعت جورجينا في هذه الموضوعات .
فذكرت لي أحاديث عديدة متباعدة ناعمة ، ووصفت لي وقائع غرامية .
وقصارى القول قصت علي رواية ضخمة عن الحياة العصرية الراقية ..
وأخبرتني الأحاديث تتابع يوماً بعد يوم . وكانت تدور دائماً حول
موضوع واحد .. حول نفسها ، وعشاقها ، وشجونها . ومن عجب
أنها لم تشر بكلمة واحدة إلى مرض أمها . ولا إلى وفاة شقيقها . ولا
إلى الخلل السينة التي تردت فيها الأسرة ، إذ كان يبدو أن أفكارها لم تكن
منصرفة إلا إلى ذكريات المرح الماضي ، والأمل في العودة إلى المبادئ ! ..
أما أمها المريضة . فكانت لا تراها في اليوم سوى بضع دقائق ، لا أكثر !

■ وظلت إلينا لا نتحدث إلا لماماً . وكان جلياً أن ليس لديها وقت
للكلام « فإني لم أر في حياتي إنساناً أكثر اهتماماً منها في العمل . ومع
ذلك فقد كان من العسير معرفة ما تعلمه . أو بالأحرى اكتشاف عمرة
كدها وجهتها ! وكانت تنبهني إلى وجوب إيقاظها في ساعة مبكرة .
ولأن لم أدر فيم كانت تشغل نفسها قبل تناول الإفطار .. على أنها كانت
بعد الفطور ، توزع وقتها أجزاء منتظمة ، وتجعل لكل ساعة مهمة
معينة ، فكانت تخصص ثلاث حصص من يومها للمطالعة والقراءة في
كتاب عرفت بعد البحث والتفتيش أنه كان كتاباً للصلاة . وإذا
سألنا عن أهم ملاحظاتها فيه ، قالت : « قواعد الصلاة » . كذلك كانت
تخصص ثلاث ساعات لتطريز قماش قرمزي مربع بخيوط من القصب :

ولما سألتها عن هذا القماش الذي كان في حجم السجادة ، قالت إنه غطاء
خرايب في كنيسة جديدة أقيمت حديثاً في (جيتسهد) . كما أنها كانت
تكرس ساعتين لكتابة مذكراتها . وساعتين للعمل بنفسها في حديقة
المطبخ . حيث كانت تزرع الخضر . وكانت تخصص ساعة لتنظيم
حساباتها ... ثم بدأ أنها كانت بذلك في غنى عن أي زمالة أو أي حديث .
واعتقد أنها كانت سعيدة بطريقتها الخاصة في الحياة : وأنها كانت
مكتفية بهذه المعيشة الرتيبة التي كانت تسير على وتيرة واحدة . فلم
يكن يغضبها سوى أمر واحد . هو أن يقع حادث عارض يحملها على
تغيير نظامها الدقيق !

وأخبرتني ذات مساء - وهي أكثر رغبة في التحدث معي عن
عادتها - أن سلوك جون وما كان يشاهد الأسرة من خراب . قد سببها
لها حزناً شديداً . ولكنها حزمت أمرها ، لتعني بتأمين مستقبلها .. فإذا
ما ماتت أمها - إذ لم يكن من المحتمل أن تشفى ، أو أن تبقى طويلاً على قيد
الحياة . كما قالت في هدوء - سوف تبادر إلى تحقيق أمنية طالما تأقت
إليها . وهي أن تأوي إلى مكان تسوده عادات منتظمة . ولا تنفذ إليه
المتاعب أبداً . حيث تقيم بينها وبين العالم المستهتر سياجاً . وإذا سألتها
عما إذا كانت جورجينا ستوافقها . قالت : « بالطبع لا ! » .. فما كانت
تجمع بينها وبين جورجينا مشارب مشتركة في أي يوم من عمرهما ..
وما كانت لتحتمل معاشرتها مهما تكن الاعتبارات . ومن ثم فلهذا جورجينا
أن تسير في طريقها الخاصة ، ولما - إلينا - أن تتطلق في الطريق التي
اختارتها :

وكانت جورجيانا - عندما لا تقضى إلى بلخيلتها - تقضى معظم وقتها في الاضطرار على الأريكة وهي مبرمة باكتئاب القصر ، مطهقة على أن تطلق من خالتها دعوة إلى المدينة ، قائلة : « آه لو استطعت أن أبعد شبرا أو اثنين ، حتى ينتهي كل شيء ! .. ولم أشأ أن أسألهما كانت تعنيه بقولها : « حتى ينتهي كل شيء » . ولكني أحسبها كانت تشير إلى موت أمها المنتظر ، والفترة الكئيبة التي تستغرقها مراسم الجنازة . ولم تعد إلزا تكثر عموماً ببلادة أختها وشكاواها ، ولكنها حلت عليها ذات يوم بعد أن فرغت من دفتر حساباتها . وطوت نظريتها إذا قالت لها : « لم يدب على الأرض قط يا جورجيانا حيوان أخف وأشد عجرفة منك ، ولنتك لم تخلق لأنك لا تستغدين من الحياة .. وبدلاً من أن تعيش من أجل نفسك وفي نفسك ومع نفسك - كما ينبغي لكل عاقلة أن تعيش - تسعين لأن تكوني عالة على غيرك ! .. وإذا لم تجد من يرضى بحمل هذا العبء السمين ، الواهن ، الغث ، العديم الجدوى ، رحمت تصرخين شاكية من سوء المعاملة والإهمال وسوء الحظ ! .. ثم إنك ترين العالم جئناً بغيضاً ، إذا لم تكن حياتك مشهداً دائم التعير والإثارة ! .. إنك لتحتمين على الناس أن يعجبوا بك ، ويتوددوا إليك ، ويتملقوك ، كما تحتمين وجود الموسيقى والرقص والاحتفالات وإلا تولاك الجمول وأدركك الموت ! .. أليس لك عقل يساعدك على ابتداء وسيلة تجعلك مستقلة عن كل جهد وعزيمة إلا جهدك وعزيمتك ؟ .. خذني يوماً وقسمي ساعاته بنظام ، وخصصي لكل ساعة منها عملاً تؤدينه ، ولا تتركي ربع ساعة ، بل ولا عشر دقائق ، ولا خساً دون أن تقيدي

منها . وأدى كل مهمة في موعدها وفقاً للجدول ، وبنظام دقيق ، فإذا اليوم ينتهي قبل أن تطغى إلى أنه بدأ ، ولا تدبني لأحد بفضل مساعدتك على التخلص من لحظة خالية .. ولستوف تجدني أنك لم تحتاجي إلى أن تشدني بحجة أحد . ولا حديثه ، ولا عطفه ، ولا مواساته : « ستجدني - بإيجاز - أنك عشت كما ينبغي لأي امرئ مستقل أن يعيش . خذني هذه النسيجة - وهي الأولى والأخيرة التي أقدمها لك - فلانعودي محتاجة إلى .. ولا إلى أي امرئ آخر ، مهما يحدث .. أما إذا أهملتها ، فامض في توسلاتك ، وشكواك ، وخوذك ، وتحمل نتائج حافلتك مهما تسو وتقسو . والآن دعيني أحذثك ببساطة وصرامة ، فاستمعني إلى : لسوف أنفض يدك منك بعد موت أمنا .. ومنذ اليوم الذي ينقل فيه جثاتها إلى القبر - في كنيسة (جيتسميد) - ستفترق ، وكان كلا منا لم نعرف الأخرى .. ولا داعي لأن نحسي أنني سأدعك تربطين في بأي رباط يشقني . مهما يكن تافهاً . فحذر أن القدر شاء أن نولد من أم واحدة وأب واحد .. ألا دعيني أخبرك بأنه لو قدر للجنس البشري بأسره أن يعي ، فيما عدان - أنت وأنا - وأنا مكثنا وحيدتين على ظهر الدنيا ، فسوف أتركك في هذا العالم القديم ، وأذهب إلى العالم الجديد » .

وأغلقت شفتها بعد ذلك . فردت عليها جورجيانا قائلة : « ما كان أغناك عن هذه الحملة القاسية ، فإن كل إنسان يعرف أنك أكثر الخلقوات الكاثنة أنانية وجحوداً . كما أنني أعرف كراهيتك الخالدة لي ، فقد جربتني من قبل في الدور الذي لعبته فيما يتعلق بالورد فير ، إذ لم تطبقي أن أرتفع إلى مستوى أرفع من مستواك ، أو يكون لي لقب

رفيع ، أو أقابل بمظاهر الإعجاب في الأوساط التي لا تجريز من الظهور فيها بوجهك هذا . فليت دور الجاسوسة والنووية . وقضيت على آمالي إلى الأبد ! .. وأخرجت جورجيانا من بينهما . فراحت تمتخط باكية زهاء ساعة . بينما جلست إليزابا في جماعة منهنكة في التطريز بيد واجتهاد .

* * *

■ إن بعض الناس لا يقيمون وزناً كبيراً للشعور الصادق الكريم . ولكن ما هما نفسان جعلهما الافتقار إلى هذا الإحساس جده مختلفتين . فكانت إحداها لأذعة لا تطلق ، والأخرى تافهة تستوجب الأزدواء . ذلك لأن الشعور الجرد من التفكير والتمييز ليس في الحقيقة سوى جرعة شقيقة : بينما التفكير الذي لا يتخلله شعور ولا إحساس ، لا يعنو أن يكون لقمة شديدة المرارة . عسيرة المضغ : يشق على الإنسان أن يزدردوها .

وكان الأصيل مغطراً شديداً الرياح . فما لبثت جورجيانا أن نامت على الأريكة وهي تنصنع إحسان الروايات . بينما ذهبت إليزا إلى الكنيسة الجسدية ، لحضور قداس بمناسبة عيد أحد القديسين . فقد كانت محافظة في أمور الدين على الشكليات والرمزيات . لا يفسدها أي طمس عن أن تؤدي ما تعتبره من واجباتها الدينية . وكانت تذهب إلى الكنيسة ثلاث مرات في يوم الأحد - وفي الأيام التي تقام فيها الصلوات - سواء أكان الجو جميلاً أو رديئاً .

ورأيت من واجبي أن أصدق إلى الطابق العلوي . فاتفقت حال

المريضة التي رقدت في فراشها مهملة من الجميع تقريباً ، حتى من خدمها ومن مرضتها التي كانت تسلم من العرفة ما استطاعت . ولقد كانت يمسى أمينة حقاً . ولكنها كانت مضطرة إلى العناية بأسرتها ، فكانت لا تأتي إلى البور إلا إذا سحت لها الفرصة . وصبح ما توقعت فعلاً . فإذا المريضة لم يكن يرعاها أحد ، ولا تقف بجانبها ممرضة . وكانت نائمة وقد غاص وجهها الشاحب بين الوسائد ، وبدأت النيران في المدفأة تحرق وتنفث . فجددتها وربتت الفراش ، ثم وقفت أحرق انظر فيمن لم تعد تقوى على أن تحرق في .. وما لبثت أن مضيت إلى النافذة ، فإذا الأمطار تصفع زجاجها ، والرياح تهب قوية مزعجرة ، فقلت في نفسي : « هنا ترقد مخلوقة سرعان ما سوف تبتعد عن حرب العناصر الأرضية . فإلى أين تذهب الروح التي تناضل الآن لتفادر مسكنها المادي بعد أن تنطلق متحررة ؟ »

وفيا كنت أقصر في هذا السر العظيم « تذكرت هيلين بيرنز - زميلة الدراسة - وكلماتها الأخيرة ، وهي على فراش الموت ، عن إيمانها واعتقادها في المساواة بين الأرواح التي تحررت من أجسادها . وكنت ما أزال أصغي بفكري إلى لحنها التي ما زلت أذكرها « كما كنت أتمثل وجهها الشاحب الواهن « وفطرتها السامية وهي راقدة في فراش الموت تتعجل العودة إلى رب الأرباب ، حين سمعت خلقي في الفراش مخمخة صوت واهن : « من هذا ؟ » .. وكنت أعلم أن ممزريد لم تكلم منذ أيام . فهل تراها أفأقت ؟ .. وذهبت إليها وقلت : « أنا .. أيتها الخالة ريد ! .. فكان جوابها : « من .. أنا .. من أنت ؟ »

وتطلعت إلى في دهشة ، ونوع من القزع ، وإن لم يبلغ حد الذعر
المحتاج ، ثم قالت : « إنك غريبة عني تماماً .. أين بيبي ؟ »

— في المبنى الخارجى بالخالى ؟

— خالك ؟ .. من ذا الذى يدعوك خالته ؟ .. أنت لست من
آل جيبسون ! .. إننى أعرف هذا الوجه وهاتين العينين وهذا الجبين ..
إنك تشبهين .. تشبهين (جين إير) !

ولم أقل شيئاً خافه أن أسبب لها صدمة إذا أن أصبحت لها عن
شخصيتي .. فاسترسلت : « ومع ذلك أخشى أن أكون عظيمة لأن
أفكارى تغدغننى .. إننى أريد أن أرى جين إير ، ومن ثم أتوهم فيك
شبهاً ، حيث لا شبه بينكما ! هذا إلى أنها لا بد قد تغيرت كثيراً في
الأعوام الثمانية التى مضت ! » .. فأخذت أؤكد لها في رفق أنى
(جين إير) التى تريد رؤيتها ، حتى إذا أدركت أنها وعت ما قلت
تماماً « أخبرتها كيف أرسلت بيبي زوجها إلى (ثورنفيلد) . وكيف
لبيت الدعوة وجئت على عجل ، فقالت بعد قليل : « أنا أعلم أننى جد
مريضة ، فقد حاولت منذ دقائق أن أتقلب في فراشى . فوجدتني
لا أستطيع الحراك : يحذر بي أن أريح ضميري قبل أن أموت . لأن
ما نستخف به ونحن في صحة جيدة . ينقل كاهلنا في مثل هذه الساعة
التى أنا فيها الآن .. هل الممرضة في الغرفة ؟ .. هل هناك أحد غيرك
في الغرفة ؟ »

● وإذا كنت لها أننا كنا وحدنا ، قالت : « حسناً ، لقد أخطأت
في حقلك مرتين . خطأً أتدم عليه الآن . فأنا أولاً نكثت بالعهد الذى
قطعته على نفسي لزوجى ، وهو أن أربيك كما لو كنت ابنتى .
وثانياً .. ثم سكنت وراحت تحدث نفسها قائلة : « وعلى كل فليس
لهذا الأمر أهمية .. إننى قد أشئى . فيكون شعورى بأننى أذلت نفسي
لها ، مبعث ألم إلى .. »

وحاولت عبثاً أن تتقارب على الجنب الآخر . فبدلت أسرارها ،
ولاح أنها كانت تعاني إحساساً داخلياً ، لعله كان نديراً بآخر آلامها
في الحياة . إذ أنها لم تلبث أن قالت : « يجب أن أتغلب على ذلك ، لأن
العالم الآخر أسمى . ويحسن بي أن أخبرها .. اذهبي إلى صوان ملبسى
وافتحيه . وأخرجني منه خطاباً تربته هناك » .. فأطعت أوامرها ..
ثم قالت : « افترق الخطاب ! » .. وكان قصيراً ، جاء فيه :

سيدتى .

هل تذكرين بأن ترسل عنوان ابنة أختى جين إير ، وأن تخبرينى
كيف حالها ، لأن فى نيتي أن أكتب في القريب العاجل طلباً إليها أن
تأتى لى في ماديرا . بعد أن يبارك الله جهودى وأصبحت في سعة :
ولما لم يكن لى زوجة ولا ولد ، فلننى أرغب في أن أتبناها في حياتي ،
وأوصى لها عند موئى بكل ما أتركه .

وتفضلنى يا سيدتى ... إلخ

جون آير — ماديرا

وكان تاريخ الخطاب يرجع إلى ثلاث سنوات ، فسألتها : « لماذا

لم أسمع بهذا من قبل ؟ »

— لأننى كنت أكرهك كراهية بالغة ، حالت دون أن أمد لك
 بداً تنشلك وترفعك . ولن أنسى سلوكك معى يا جين ولا الحقد الذى
 عصفت به فى وجهى ذات يوم ، ولا اللمحة التى صارحنى بها بأنك
 تمغيتنى وتعتبرينى شر مخلوقة فى الوجود . ولا النظرة والصوت اللذين
 لم يكونا يناسبان طفولتك عندما أكدت لى أن مجرد التفكير فى يسفك
 وأنتى عاملتك بقسوة شديدة . لم يكن فى وسعى أن أنسى إحساساتى
 عندما هببت ونفثت سموم ذهلك . لقد خفت وكأنك كنت وحشاً
 ضارياً ، ضربته أو دفعته ، فتألمت ببعين آدميتين . وراح يلغنى بصوت
 إنسانى .. أعطيتنى بعض الماء .. هيا أسرعى !

فقلت وأنا أقدم لها جرعة الماء التى طلبتها : لا تعودى يا مسز
 ريد العزيزة إلى التفكير فى كل هذا ، دعيه ينجاب عن رأسك .
 واغفرى لى حدة اللسان ، لأننى كنت يومذاك طفلة فى الثامنة أو التاسعة
 من العمر .. فلم تكثرت لشيء مما قلت « وإنما تنهدت — بعد أن
 تذوقت الماء — ثم استطردت تقول : « أقول لك إننى لم أستطع أن
 أنسى ما مضى ، ولكنى انتصمت لنفسى » لأننى لم أظن أن أرى عمك
 يقيناً ، أو أن أراك فى راحة وهلوه ، فكشيت إليه أنتى أسفة إذ أجب
 رجاءه ، فإن جين لم ير قد توفيت بحمى التيفوس (لو وود) !
 والآن .. لك أن تكبى ما تشائين ، وأن تكذبنى قولى ، وأن تكشنى عن
 زيفى بأسرع ما تستطيعين : لقد ولدت — على ما أظن — لتكونى سبباً
 فى تعذيبى ، ولولاك لما افترقت الجرم الذى تنقص ذكراه ساعاتى
 الأخيرة ! »

— ليلتك تكفينى عن هذه الأفكار باخالتى وتظنن لى بعين
 العطف والاعتذار .

— إنك طبعاً رديئة يا جين .. طبعاً لا أستطيع إلى اليوم أن أفهمه ،
 إذ كيف استغفرت اهدوء والصبر سبع سنين على معاملتنا . ثم هببت
 فى السنة العاشرة كالنار العاتية الضيقة ؟ هذا ما لم أستطع إدراكه !

— ليست طابعى سيئة بمثل ما تتوهمين ، أنا فعلاً عصبية . ولكنى
 كنت حقوداً أو حجة للاستفهام . ولست كان يسعدنى — فى طفولتى —
 أن أجبك لو أنك حياتى فى السيل . وكما أننى الآن فى إخلاص أن
 أكون معك على وثام وصفاء .. هيا قبلينى يا خالتى !

وقدمت لها خدى حتى التصق بشفتها : ولكنها لم تقبله قائلة إننى
 أضايقها بالالتكاء على الفرائش . ثم رغبتم مرة أخرى فى أن تشرب ..
 ولما أسندتها بذراعى ، أسكت يدها الباردة كالثلج . فجلبت أصابعها
 الواهنة ، ونأت بنظرها عني .. وأخيراً قلت : « سواء أأحببتنى أم
 أم كرهتنى . فإننى قد صفحت عنك كل الصفح . فاطلبنى من الله
 غفرانه . واهلئى بالا ! »

مسكينة هذه المرأة المعذبة ! لقد ضاعت الفرصة أمامها لمحاولة
 تغيير طابعها وأفكارها . وما دامت قد عاشت تكرهنى ، فسوف
 تقضى وهى ما تزال تكرهنى :

ودخلت الممرضة إذ ذاك تبعها ييسى . فتمهل لعلى أرى دليلاً
 عني حياً . ولكنها لم تبد شيئاً من ذلك . ثم اشتدت بها الغيبوبة فلم تفق
 منها حتى أسست الروح فى منتصف الليل : ولم أحضر موتها لأعفى

عينها ، ولا حضرته واحدة من ابنتها ، ولكنها أخبرتني في الصباح أن كل شيء قد انتهى ، فذهبت مع إليزا لترآها ، بينما انفجرت جورجيانا في بكاء عال . وقالت إنها لا تجرؤ على الذهاب معنا - وهناك .. كانت سارة ريد مسجاة .. سارة ريد - التي كانت ذات يوم قوية نشيطة - أصبحت جامدة ساكنة ، وقد غطي جفنها البارد عنها المتحجرة . وكان جيبها وملامحها الصارمة ما تزال نكسوها مسحة الروح المتصلبة التي لا تلين . فكانت جثة عجيبة كنيبة . ورنوت إليها في أمسي وألم ، دون ما شعور رقيق أو رثاء . أو رجاء . أو قسوط .. مجرد ألم من أجل همومها وشغائنها ، لا لمصاى فيها ، واكتئاب وحزن - بغير دموع - أمام رهبة الموت على هذه الصورة !

ونظرت إليزا إلى أمها في صمت ، ثم قالت في النهاية : « كان يمكن ببنتها القوية أن تبلغ من العمر أزدله ، لولا أن قصف عمرها ألم والكدر ! » .. ثم أمسكت لسانها نوبة من البكاء للخطئة . حتى إذا انقضت ، تحولت وغادرت الحجرة . فتبعها دون أن تذرف إحدانا دموعا واحدة !

الفصل الثاني والعشرون

■ لم يكن مستر روشستر قد منحني إجازة لغير أسبوع واحد ، ومع ذلك انقضى شهر قبل أن أغادر (جيمسهد) . ولقد أردت أن أسافر بمجرد تشييع الجنائز ، ولكن جورجيانا توسلت لي أن أبقى إلى أن تتمكن من السفر إلى (لندن) حيث دعاها خلالها مستر جيبسون الذي

كان قد جاء ليشرّف على دفن أخته ويسوى أمور العائلة . وحدثنني جورجيانا عن خوفها من أن تترك وحدها مع إليزا ، التي لا تلقى منها عطفاً في حزنها : ولا عوناً على مخاوفها ، ولا مساعدة في استعداداتها للسفر ، فاحتملت من ولولتها وتأوهاتنا الأنانية قدر ما وسعني ، وبذلت قصارى جهدي في حياكة ملابسها وحزمها ، ولو أنها كانت تؤثر الكسل والخمول وتركني لأعمل وحدي ، حتى لقد قلت لها في سريري : « لو قدر عليك وعلى أن نعيش معاً على الدوام - يا ابنة الخال - لوجب أن تبدأ حياتنا على أساس جديد ، فما كنت أقبل في استخذاء أن أحلّ العباء وحدي ، بل كنت أعين لك نصيحتك من العمل . وأضطرك إلى أدائه ، وإلا بقي كما هو بلا أداء .. وكنت أصر أيضاً على أن تكتمني في صلدك بعض هذا القشديق بالكلام ، وهذه الشكاوى غير الصادقة ! ولولا أن قرأنا هذه مؤقتة وزائلة ، ولولا أن هذا الظرف عجز ، لما رضيت من ناحيتي بهذا الوضع وهذا الإذعان ! »

وأخيراً ، ودعت جورجيانا عند سفرها .. ولكن جاء دور (إليزا) إذ طلبت مني هي الأخرى أن أبقى معها أسبوعاً آخر ، لأن خططها كانت تحتاج إلى كل وقتها واهتمامها . وكانت تعزم الرحيل إلى بلد غير معروف ، فكانت تنقضي نهارها في حجبها وقد أغلقت عليها بابها بالمرلاج ، وراحت تملأحقائها وتفرغ أدرجها وتحرق أوراقها ، دون أن تتصل بأحد ، تاركة في شئون المنزل ومقابلة الزوار والرّد على خطابات التعزية . ثم جاءتني صباح يوم تخبرني أنني مطلقة الحرية ..

وقالت : « إنني أشكر لك خدماتك الغالية : وسلوكك الرشيد ! ..
ولأنه لفارق كبير بين أن يعيش الإنسان معك وبين أن يعيش مع مخلوقه
مثل جورجيانا ! .. إنك تؤدي واجبك في الحياة بنفسك . دون أن
تكوني عالة على غيرك .. ثم استرسلت قائلة : « غدا سأقنع إني
أوروبا ، وسأقيم بالقرب من مدينة (ليل) في دار « إين » . لك أن تسميها
ديراً . وهناك سأقضي العمر في راحة بال وهدوء . وسوف أكرس
نفسى بعض الوقت لأداء الامتحان في المبادئ الكاثوليكية الرومانية ..
ثم لدراسة نظمها . حتى إذا وجدتتها - كما أكاد أعتقد - خير ما يبي
العسل بنظام وترتيب . اعتنقت المذهب الروماني ، وربما دخلت الدير : »

ولم أبدأ دهشى إزاء ما اعترفته . كما لم أحاول أن أنفي إرادتها -
لا اعتقادي بأن هذا ربما ناسها . وربما كان أجلى لها . وعندما ودعني
قالت : « أستودعك الله يا ابنة العسة . أرجو لك أطيب التحيات .
فإنك ذات عقل لا بأس به » .. فأجبنا قائلة : « وأنت لست بمجودة من
العقل يا ابنة الخال ليزا ، ولكنتك بعد عام واحد سوف تغيرين نفسك
في دير فرنسي . وإن كان هذا ليس من شأني ولا يهمني ما دمت تمجدين
في عملك هذا ما يلائمك » .

.. إنك على حق !

ثم سارت كل منا في طريقها الخاص . وبما أنه لن نمنع فرصة
أخرى « لذكرها ثانية » أو الإشارة إلى شقيقتها ، فقي ومعنى أن أذكر
أن جورجيانا اقترنت برجل غنى طاعن في السن . وأن إليزا التحقت

فعلا بالدير وهي الآن رئيسة ، بعد أن اجتازت المراحل الدينية ،
وقد وقفت عليه حياتها .



■ بأي شعور يعود الناس إلى أوطانهم بعد غياب طويل أو قصير ؟ ..
نست أدري لأنني لم أجرب هذا الشعور من قبل .. ولقد خبرت فيما
مضى شعوري عند العودة إلى (جيستيد) - وأنا طفلة - بعد نزحة
طويلة على الأقدام : لألقى الترحيب والتأييد بسبب ما كان يبدو على من
برودة أو اكتئاب ! .. كما عرفت فيما بعد ، شعوري وأنا عائدة من
الكنيسة إلى (لو وود) متلهفة على وجبة طيبة ونار قوية فلا أجد هذه
أو تلك ! .. وما شعرت في عودتي إلى إحداها بسرور واشتياق ! إذ لم
تكن هنالك جاذبية تتضاعف كلما اقتربت .. أما العودة إلى (ثورنغيلد)
فلأنني لم أكن قد جربتها بعد !

وبدت رحلتي شاقة .. شاقة جداً ، إذ قطعت في اليوم الأول خمسين
ميلاً ، ثم خمسين أخرى في اليوم الثاني .. وكانت أفكارى تدور في اليوم
الأول حول مسر (ريد) وصاعاتها الأخيرة وموتها وجنازتها .. وحول
جورجيانا التي تمثلها في خاطري تمرح في قاعة الرقص .. وحول ليزا
وقد قبعت في إحدى حجرات الدير الموحشة .. ثم رحلت أحمل ما كان عليه
سلوك كل منهما ، وما كان لديها من شاذ ، إلى أن جن الليل فتبددت
هذه الأفكار ، حتى إذا رقدت على فراش السفر ، عاودتني من جديد ..
كنت عائدة إلى (ثورنغيلد) .. ولكن ، كم كان مقدرًا لي أن
أملك هناك ؟ .. مدة قصيرة كما أعتقد جازمة ، فقد علمت من الخطابات

التي أرسلتها مسز فيرفاكس أن الضيوف غادروا القصر : وأن مستر روشتر سافر إلى لندن منذ ثلاثة أسابيع . ولكنه لن يلبث أن يعود بعد أسبوعين . وقد استنجت مسز فيرفاكس من سفره . أنه ذهب لبعده العدة لحفلة زواجه . إذ تحدث عن شراء عربة جديدة . وكانت ترى في زواجه بالآتسة انجرام شيئاً غريباً ، ولكنها بعد كل ما سمعته من الناس . وما رأته بعيني رأسها ، لم تعد تشك في أن هذا الزواج واقع بعد قليل . ولما تذكرت هذه الأقوال — أثناء رحلتي — قلت في نفسي أن ذا أن تشك ما شامت . ولكني لا بأسورني أدنى شك أو اوتياب .

وكان السؤال الذي تلا ذلك هو : « إلى أين أذهب ؟ » . لقد حلمت أمس بالآتسة انجرام ورأيتها تغلق أبواب (ثورنفلد) في وجهي ، وتشير إلى طريق آخر . كما رأيت مستر روشتر في منأى وقد عقد ذراعيه على صدره ، وراح ينسهم منها ومنى . ابسامة زاحرة بالسخرية والاستخفاف : ولم أكن قد ذكرت لمسز فيرفاكس موعد عودتي بالضبط . لأنني لم أشأ أن تنظري العربية في (ميلكوت) - بل عولت على أن أقطع الطريق سيراً على الأقدام في صمت وهدوء . وفعلاً ، غادرت فندق (جورج) - بعد أن تركت حقيبتي لدى حارسه - في حوال الساعة السادسة من إحدى أمسيات شهر يونيو . واتخذت الطريق القديم إلى (ثورنفلد) .. وكان طريقاً يمتد الشطر الأكبر منه خلال الحقول . وكان قليلاً ما يجتازه أحد . ولم تكن الليلة من ليالي الصيف الصحو ولا البديعة ، وإن كان الهواء عليلًا .. وكان الفلاحون مهمكين في الحصاد على طول الطريق : ومع أن السماء لم تكن خالية من السحب ،

إلا أنها كانت تبشر بحو طيب إلى فترة طويلة ، فإن زرقها — حينما كان من الممكن رؤية الزرقة — كانت خفيفة « وثابتة » .. كما كانت تحبها عابية ورقية .. كذلك كان الغرب دافئاً ، لا بين فيه مطر ولا رطوبة .. وكان يلوح وكأنا اشتعلت فيه نار .. أو كأنه معبد أوقدت فيه النار ، خلف ستار من البخار المرمى .. وخلال ثغرات السحب ، كانت أشعة الشمس الراحلة ، تبدو ذهبية مشوبة باحمرار ..

ورحت أشعر باعتماد كلياً قصر الطريق أمامي .. وقد بلغ من عنفوان غبطتي أن توقفت مرة عن السير لأسائل نفسي عن سر هذا الفرح . ولأذكر عقل بأن هذا الذي كنت أسعى إليه ليس مثلي ، ولا هو بقر دائم لي . ولا هو بمكان يضم أصدقاء مشغوفين بي ، يترقبونني وينتظرون وصولي . وقلت : « من المؤكد أن مسز فيرفاكس ستقابلني بآسنة . وستحقق أذيل ونجوى لاستقبالي ، ولكنك تعرفين جيداً أنك إنما تفكرين في شخص آخر غيرهما ، وأن هذا الشخص لا يفكر فيك ! » ..

ولكن ما أشد عناد الشباب ، وما أشد العمى الناشئ عن قلة التجارب ! لقد أكد لي الشباب وقلة التجربة أنني سوف أعتمد كل الاغتياب إذ أحظي برؤية مستر روشتر مرة أخرى ، سواء أنظر إلى باهامت أم لم ينظر . وراحا يبييان بي قائلين : « أسرع ، أسرع » كوني إلى جانبه بضعة الأيام أو الأسابيع القليلة الباقية ، قبل أن تفارقه إلى الأبد ! .. وكظمت إذ ذاك في صدري ألماً متجدداً مبرحاً ، وأسرع في طريق لا ألتوي على شيء :

● وكان النمل يحصدون في أراضي (ثورنيلد) - أو بالأحرى كانوا قد فرغوا من عملهم وبدأوا يعودون إلى منازلهم - ولم يعد أمامي سوى حقل أو اثنين أجتازهما ثم عبر الطريق إلى أبواب القصر الخارجية. وكانت الزهور كثيرة متناثرة على طول الطريق ، ولكن الوقت لم يكن يتسع لأتلفف شيئاً منها ، فقد أردت الوصول إلى القصر بأسرع ما كنت أستطيع .. وأخيراً عبرت الطريق - لأجد مستر روشستر جالساً على مقعده فوق سلم السياج ، وفي يده قلم ودفتر يكتب فيه .. ولم يكن شيخاً ، ومع ذلك فقد خارت أعصابي ، وبقيت لحظة لا أملك زمام حواسي .. فما معنى هذا ؟ لم يكن يخطر لي ببال قط أنني سوف أرتجف هكذا عندما أراه ، وأنتى سوف أفقد القدرة على الكلام والحراك في حضرته . إذن فلا بد لي من العودة - متى استطعت التحرك من مكاني - حتى لا أضع نفسي أمامه موضع السخرية والتهكم ! وكنت أعرف طريقاً آخر إلى المنزل .. ولكن ما كان ليحيدني أن أعرف عشرين طريقاً . إذ أن عيني مستر روشستر وقمنا على ، فسرعا ما ألتى دفتره وقلمه جانباً ، ثم هتفت قائلاً : « هالو .. هل عدت ؟ ! تقدمي .. من فضلك ! » .

وأحسبني تقدمت وإن لم أدر كيف تقدمت - لأنني لم أكّد أظن إلى حركاتي ، بل قصرت همي على التظاهر بالندوة . وعلى السيطرة على عضلات وجهي التي شعرت بها تمرد في قحة على إرادتي . ومحاوّل جاهدة أن تطيع على أسارى صورة كنت معولة على إختائها . ولكنني كنت أحلّ قناعاً ، فأسدلت على وجهي وتقدمت من السيد فابترني قائلاً : « واهي ذى جين إير ؟ حل أنت قادمة من (ميلكوت) .. سيراً

على الأقدام ؟ » . نعم فيده إجلنى حيلك .. لم ترسلي في طلب العربة وتأتى كغيرك من الناس العاديين - ولكنك آثرت الحبىء خفية في الفسق مثل حلم أو خيال ! بالله ماذا فعلت طوال هذا الشهر ؟ » .

... فضبت مع زوجة خالي التي توفيت ، يا سيدي .

... هذا جواب من إجاباتك المأثورة عنك يا جين ! احفظيني يا ملائكة ، لقد جاءت جين إير من العالم الآخر .. من مدينة الموتى .. وبأدوت تخبرني بذلك بمجرد أن لقيتني هنا وحيداً وسط الظلام ! .. لم تني أوتيت الجرة لمستك بيدي لأتبين هل أنت جسم أو خيال يا شيطانة ! .. ولكني لو وجدت الجرة فلن أمسك بغير سراب خادع » .

أزرق اللون . يالك من شاردة .. وأية شاردة ! » .

وتوقفت لحظة عن الكلام : ثم استرسل قائلاً : « لقد غبت عنى شهراً كاملاً ونسيت كل النسيان .. أقسم على ذلك ! » .

وكنت أعلم أن في لقاء سيدي مرة أخرى سروراً وإبهاجاً ، رغم أنه لن تنفسي فترة وجيزة حتى تقطع صلاتي به ، ورغم إيماني بأنني لست شيئاً منذ كوني لديه . ولكنه أوتى قوة غريبة . كانت تبعث السعادة حتى في الفترات الذي يتناثر من مائدته الدسمة ، وتبهج به الطيور الضالة القريبة من أمثالي . والواقع أن كلماته الأخيرة كانت بلسماً دلتني على أنه كان يعنى أهمية كبيرة على أن أذكره أولاً . ثم ها هو ذا يشير إلى (ثورنيلد) على أنه منزلي فياليت كان كذلك !

ولم يبارح السيد مكانه عند السلم ، ولم أجد في ميلاً إلى مغادرته ،

فأثله هل كان في لندن ، فأجاب : « نعم .. وأحبك استنجت هذا بثاقب فكرك ؟ »

— لقد أخبرني به مسز فيرفاكس في إحدى خطاباتها .

— وهل أخبرتك بسر سفرى ؟

— أوه . نعم يا سيدى ، فكل إنسان يعرف مهمتك .

— يجب أن تشاهدى العربة يا جين لثرى هل توأم مسز روشستر . وهلا تبدو فيها كالمملكة وهى تضطجع بين الوسائد الأرجوانية . كم أود يا جين أن أكون بمظهرى الخارجى نداءً لها . أخبرني يا ساحرة ، هل فى وسعك أن تزوديني بتعبئة أو بجهاز ترشيح ، أو أى شئ يعملنى رجلاً جميلاً !

— إن هذا فوق أية قوة ساحرة يا سيدى !

ثم قلت فى نفسى : « إن عين المحب هى كل السحر المشهود . فانت جميل فيها ، ولعبوسك فى نظرها قوة دونها قوة الجبال ! » .. وكانت لمستر روشستر القدرة على أن يقرأ أحياناً ما يدور بخاطرى ببراعة لا أستطيع إدراكها ، فلم يعن فى هذه المرة بالجواب الذى تعلق به لسانى ، بل ابتسم ابتسامة ذات معنى لم تكن تبدو على فمه إلا فيما ندر . وأخيراً أفسح لى الطريق قائلاً : « سيرى يا جانيت واصعدنى إلى المنزل ، وضعى قدمك المتعبة الصغيرة الجواله على عتبة قصر أحد أصدقائك ! »

■ ولم يكن فى وسعى إلا أن أطيعه فى صمت ، دون حاجة إلى مزيد من الكلام ، فعبرت السياج معتزلة أن أمضى فى طريقى ، ولكنى مرعان

ما استدبرت — أو بالأحرى أكرهتنى قوة قاهرة على أن أستدير — ثم نظرت إليه وقلت : « أشكرك يا مستر روشستر على عطفك . لئن فى متبى السعادة لعودنى إليك ، وإن دارى لى حيث توجد أنت .. دارى الوحيدة ! » .. ثم هرعت بسرعة ما كان ليستطيع معها أن يلحق لى لو أنه شاء .! وبحث (أدبل) الصغيرة عندما شاهدتنى ، واستقبلتنى مسز فيرفاكس بخفوتها المعتادة . الصادقة ، بئناً ابتسمت (لياها) ، وقالت فى صوفى : « طابت ليلىك » وهى بادية السرور .! كان ذلك ثمناً يدفعه ليجبة . إذ ليس ثمة سعادة أكبر من أن تكون محبوباً بمن زملاتك وأقرائك وأن تشعر بأن حضورك قد زادهم راحة وتسلية .

وفى ذلك المساء . أعجمت عيني حتى لا أرى المستقبل . وسددت أذنى عامدة كى لا أسمع الصوت الذى لم يكن ينفك يندرنى بالفراق القريب والأحزان القادمة . فجلست يعد تناول الشئ مع مسز فيرفاكس — وأدبل تلعب أمامنا — إلى أن دخل علينا مستر روشستر دون سابق إنذار . فلما رأنا على تلك الحال ، بدا عليه السرور . ورحبت بدورى أتوسل إلى الله أن لا يفرق بيننا بعد زواجه ، وأن تعيش معاً فى مكان واحد تحت رعايته وفى حمايته . ولا نحرم دونه وجوده معنا .

وانقضى على عودنى إلى (ثورنفلد هول) شهران كانا زائرين بالهدوء الحبيب المشوب بالغموض .. فلم نتحدث بشئ عن زواج سيد الدار . ولم أشهد أية استعدادات لخل هذه المناسبة .. ولم يكن بمضى يوم تقريباً دون أن أسأل مسز فيرفاكس عما إذا كانت قد سمعت شيئاً . فكانت تخجيني دائماً بالنفى .. بل لقد وجهت إليه المرأة سؤالاً صريحاً

عن موعد قدوم عروسه ، فلم يجيبها إلا بكلمة مازحة : وبإتسامة من
إتساماته الغامضة التي لا تدرك منها شيئاً على الإطلاق .. على أن شيئاً
واحداً في مسلكه أثار دهشاً بوجه خاص .. ذلك هو انقطاعه عن
الرحلات وعدم زيارته لقصر انجرام .. صحيح أن المسافة إلى ذلك القصر
لم تكن تقل عن عشرين ميلاً ، ولكن ما قيمتها في نظر العاشق ، وكيف
يتم رجل اشهر بركوب الخيل - مثل مستر روشستر - بمسافة كهذه ؟
لذلك أخذت تعيش في صدرى آمال ما كان من حق أن أنعم بها ! وخيل
إلى أن أحد الغريقيين أو كليهما قد عدل عن الزواج وغير رأيه . واعتدت
أن أتفرس في وجه غدودي أحياناً ، لعلني أقرأ فيه ما يدل على الحزن
أو الاكتئاب القاسي ، ولكنني لم أكن أذكر أن هذا الوجه بدا صافياً
يوماً من السحب أو مشاعر السوء ! وكنت إذا قضيت وتلميذتي لحظات
معه ، أشعر بأن قواي قد خارت : وبأنني غرقت في بحر من الاكتئاب :
فيصبح هو لهذه الظاهرة ثم راح يكثر من دعوتي إلى حضرتة - ويضفي
عليّ من حنانه - ولكن .. وأأسفاه ، إنني لم أحبه من قبل كما أصبحت
أحبه إذ ذاك !

* * *

الفصل الثالث والعشرون

● انصرفت الصيف في إنجلترا مشرقاً بسماء صافية : وشمس متألقة ،
ظلاً يقتابعان في توالٍ قليلاً - بل نادرًا - ما تحظى به بلادنا التي تطوقها
الأمواج . فكأنما وفدت من الجنوب زمرة من أيام إيطاليا ، كما يفند
سرب من الطيور الرحلة البديعة ، فيحط على قمم تلال (البيون) المشرفة
على البحار . وكانت التين قد نقلت إلى المخازن بعد الحصاد ، وازدهرت
الحقول حون (ثورنفلد) . وقد انبثت خضرة النباتات الجديدة في
جنتياتها .. وابتضت الطرق ولوحتها للشمس بحرارتها . وكانت الأشجار
في غفواتها . فبدا الفرق واضحاً بين السياج والغابة المورقة المزدهرة ،
وبين المراعي الخاوية : التي لفحتها الشمس حتى تشققت أرضها !

وكانت ادليل قد أوتت إلى غرائبها مع غروب الشمس في إحدى
أمسيات الصيف ، بعد أن نال منها التعب ، إذ ظلت نصف النهار تغلف
الثوب .. فغابت بها حتى استغرقت في النعاس ، ثم غادرتها وسعيت إلى
الحديقة .. وكانت تلك أحدى ساعات اليوم الأربع والعشرين ، إذ « غبت
نيران النهار المشوبة » ، وأخذ الندى يتساقط على السهول التي كان الحر
يخلق أنفاسها . وعلى القمم العالية التي حرقها الشمس .. وحيث غربت
الشمس في بساطة ، لا تشيعها مواكب السحب ، انتشرت أرجوانية
بديعة . تتألق بوميض كوميض جوهرة حرام ، وتتوهج كنار القرن
على قمة أحد التلال . ثم تمتد نحو السماء وفي الفضاء ، وهي ترق وتخف ،
حتى تمسكو نصف السماء .. وكان لشرق فنته هو الآخر .. فنته بديعة ،
داكنة الزرقة ، يشيع فيها تألق جوهرة متواضعة ، ويبرز خلالها نجم

وحید .. ولن یلبث أن یزدهی بالقمر .. ولكن القمر كان لا یزال .. فی تلك الساعة — محتججاً وراء الأفق !

وسرت برهة فی المسر المرصوف .. ثم شممت عبيراً مألوفاً .. دخان سيجار كان یبتسل من إحدى النوافذ .. ولخت نافذة المكتبة وقد فرق بین مصرعیهما فراغ یرض الکف .. فخشیت أن یرائی أحد من خلفها .. ومن ثم اختصرت الطریق إلى جوف البستان .. ولم تكن فی الضیعة بأسرها بقعة أكثر حمی وعزلة .. وأقرب إلى الجنة .. من هذه البتعة .. فقد كان یفصلها عن فناء القصر — من أحد الجوانب — جدار شاهق .. ویفصلها عن المروج — من جانب آخر — طریق نخف به أشجار الزان .. وفی أفضاها ، كان ثمة سیاح منخفض .. هو الفاصل الوحید بیننا و بین الختول الموحشة .. وفیما كنت أنتقل بین الزهور الباتعة .. تحت ضوء القمر وقد بزغ من ناحية الشرق .. توقفت ، لالائی رأیت أحداً أو سمعت صوتاً ، ولكن لائی شممت عبيراً لیبنی .. عبیراً طغی علی شذی الورد والیاسمین والقرنفل والزهور الیریه .. ولكنه لم یکن عبیر وود ولا عبیر زهور .. بل عرفت بجلاء أنه كان دخان سيجار مسر روشستر .. فوقفْتُ أتلفت حولی ، وأرہف السمع .. فلم أر غیر الأشجار الخاملة بنهارها ، ولم أسمع سوى تغرید الطیور .. لم أر جسماً يتحرك أو أسمع وقع قدمین ، ولكن رائحة الطباق كانت تشد .. فكان لا بد لی من أن أفر ! .. وبادرت إلى الباب المقضی إلى الأدغال .. فرأیت مسر روشستر قادماً ! .. ووقفت جانباً ، أحدث نفسي بأنه لن یلبث أن یرتد عائداً من حیث أتى .. وأنه لن یرائی إذا لم أتحرك من مکانی .. ولكن کلاً .. كان

قد وجدته علی فی السیاح مهتاً باعتباط وسرور ، ولم یکن تأثیر هذه الحديقة القديمة فی نفسه بأقل من تأثیرها فی نسیم .. فأخذ ینشی خطوة فخطوة ، وحوینقطع نارة إلى نمار الأشجار ، وتارة أخرى یقطف بعض الزهور .. إلى أن عثر علی قراشة كبيرة فاتحی فوقها لیأملها وهو یولیی ظهره : وإذا ذاك خطر لی أن أسئل بخطوات خفیفة لعل أستطیع الإفلات دون أن یرئی وهو مهتاً فی تأمل القراشة :

ومرت عن العشب خشية أن یقضضنی وقع حدائی علی الأرض المرصوفة بالخصی .. وكان السید واقفاً بین أحواض الزهور ، علی مسافة یردء أو اثنين من حیث كان یجب أن أجتاز الطریق .. ولكنی لم أكن أجتاز فله .. حتی خاطبنی بصوت هادئ دون أن ینظر إلی : « تعالی باحین فانظری إلى هذه القراشة ! .. » وصعیت کیف أحس فی مع أننی لم أحدث صوتاً .. فارتجفت فی البداية .. ولكنی تقدمت إلیه فقال : « انظری إلى جناحیه .. إنها تذكرنی بخشعة كبيرة فی جزر نهند الغربية .. وقلماً یرئی الإنسان بین هوام اللیل قراشة كهذه فی الخلقوا .. ها هی قد طارت .. » وحلقت القراشة بعبداً .. فأخذت بدوری أترجع مجنفة .. ولكن مسر روشستر تبعنی إلى أن بلغنا الباب فقال : « أرجعی فلا یحس أن یأوی الإنسان إلى المنزل فی مثل هذه الیلة الخفیه .. ولا شک فی أن أحداً لا یب أن یضی إلى قراشه فی وقت تغرب فیہ الشمس مع طلوع القمر ! .. »

* * *

● من العيوب التي أعترف بها ، عجزى عن الكلام ، إذ يصيبني العجز في وقت الحاجة . عن الرغم من زلاقة لسانى في بعض الأحيان . وهذا نغى لا يدعنى إلا حين تقع في مأزق أو أزمة ، وأغدو في حاجة إلى كلمة أو عبارة تخرجني منها .. ولقد كنت في ذلك الوقت زاهدة في الخشى مع ستر ووشتر في الحقيقة . في مثل تلك الساعة ، ولكنى لم أجد عذراً لمعادرتي وتركه ، فتيهته بفعولات ثقيلة ، بينما كانت أفكارى تعمل دابةً لعلها تهدي إلى وسيلة للخلاص : على أن الرجل كان في ساحة من نخسوء والرزاة أحيطنى من محالواتى .. وخاطبتنى قائلاً : « إن (تورنيلد) مكان يشرح المصادر ويهيج النفس في فصل الصيف . أليس كذلك يا جين ؟ » فقلت : « هو ذلك يا سيدى » ؟

— لاشك أنك تعالمت بثورنيلد بعض الشيء . وشرجعتى على هذا الاعتقاد ما أعرفه من حيث الطبيعة والجمال .

... الواقع أنى متعلقة بها .

.. وأرى كذلك أنك متعلقة بذلك الطفلة الرعناء أدبل والسيدة الطيبة القنب فيرفاكس .

نعم أحبهم ، يا سيدى .

هل يحزنك أن تفارقيهما ؟

نعم !

فتهد وقال : « واحمرناه ! » ثم سكنت برهة ، وعاد يقول :

هذه سنة الحياة دائماً ، فما أن يستقر بك المقام في مكان طيب ، حتى

يتناديك صوت إلى القيام واستئناف السير . لأن ساعة الراحة قد انتهت ! »



وسرت على العنكب خفية أن يفسخنى وقع
حذاءنى على الأرض المرصوفة بالحصى

— وهل لابد لي من استئذان السير ياسيدي ؟ .. هل لابد من مغادرة (ثورنيلد) ؟

— هذا ما أظنه يا جين ، وهو من دواعي أسنى . ولكن لا مفر منه . وكانت كلماته ضربة قاصمة . ولكني لم أدعها تسلبني قواي أو نهيم عزيمتي ، فقلت : « حسناً ياسيدي : سأكون مستعدة متأنية . متى صدرت الأوامر لي بالرحيل » .. فقال : « بل أن الأوامر . ويجب أن أصدر الأمر بذلك .. الليلة ! » .

— إذن فقد عولت على الزواج ؟

— تماماً .. بالضبط ! .. لقد أدركت الحقيقة بما عرف عنك من فطنة وذكاء .

— حالا ياسيدي ؟

— حالا يا .. آتية . إنك تذكرين أنني أشرت إلى رغبتني في أن أضرم عني في أنشودة الزواج المقدسة ، وأن أدخل في زيجة المتزوجين ، وأن أضرم إلى صابري مس الجرام .. وإنما لتتوق سعة الذراعين ، ولكن هذا خارج عن موضوعنا ، والإنسان لا يجد بكثرة مخلوقات في بياءه بلانش الحسنة . آه ، كنت أقول .. أصغى إلى يا جين ! .. أحب أن أذكرك بأنك أنت التي اقترحت أولاً — بما لك من فطنة أحترمها . وبيعد النظر . والحكمة » والنواضع .. التي تلائم مكانتك — أن ترحلي أنت وأدبل الصغيرة عن القصر إذا ما تزوجت من مس الجرام . وإلى لأعجاقو عما في اقتراحك من تعريض محبوبتي . ومن المؤكد أنني سأستاه عنهما تبعدين

جائيت عن القصر . ولين أذكر منه سوى ما انطوى عليه من حكمة تخلفها فتوناً تصرف بموجبه .. لابد من إحقاق أدبيل بمادسة .. أما أنت ياسيدي ، فلا بد لك من « مركز جديد ! »

قلت : « أجل ياسيدي .. سأعلن في الصباح فوراً عن وظيفة » وفي خلال ذلك أضح .. وهممت بأن أقول : « أظن أن يوسعي أن أقوم في القصر حتى أجد لنفسى مأوى أكثر » . ولكنني أمسكت ، ولم أقص في حديثي عشية أن يخونني صسوقي فلا أقوى على التعلق بعملية طويلاً كبهذه .. أعاد مسير ووشتر إلى حديثه فقال : « لاني أرجو أن أرف بعد شهر تقريباً . وفي هذه الأثناء . سأبحث لك عن عمل ومأوى » : — شكراً ياسيدي . ويوسفني أن أسبب لك ..

.. كذا . فإني أعتمد أن لمن تقوم مثلك بمساعها خير فية . حتى في أن تغلب العون من خدمتها في أمر بسيط كهذا . والواقع أنني سمعت من حاشي القادة الليدي الجرام عن وظيفة أظنها تلائمك ، وهي أن تسمى معلم خمس بنات لسر (ديونيسيونين أوجال) سيدة قصر (بيرت) بفاطحة (كوتوت) بأيرلندا .. وأعتقد أنك ستحبين أيرلندا ، إذ يقولون أن أهلها طيبون القلب .

قلت : « إنها بعيدة ياسيدي .. ولكنه قال : « لا بأس في ذلك ، فإن قارة رابحة العقل . مثلك لتعارض في السفر » . فقلت : « ليس السفر هو الذي يهمني . وإنما .. المسافة . ثم إن البحر يفصل .. » : وأمسكت

فقال : « يفضل ماذا؟ » .. قلت : « أيرلندا عن إنجلترا . وعن ثورنغفيلد . وعن .. » . فتساءل : « وماذا؟ » .. فقلت : « وعملك أنت ياسيدي ! » .

■ وفعلت بذلك على الرغم مني ، وطفرت الدموع من عيني دون إرادتي ، ولكنني لم أبك بصوت يسمع . بل نجيت النهاية .. كانت فكرة (مسز أوجال) و (بترت) قد أشاعت في قلبي برودة قارسة . وكانت فكرة الأمواج التي تفصل بيني وبين السيد الذي كنت أتمنى الآن إلى جانبه . أشد برودة . وعدت أقول : « إنها مسافة بعيدة ياسيدي » .

— لاشك في بعد المكان : وفوق هذا ، متى وصلت إلى هناك فإني لن أراك يا جين : هذه حقيقة لا ريب فيها لأنني لم أزر أيرلندا ولا أميل إلى الذهاب إليها . لقد كنا صديقين حميمين يا جين : أليس كذلك ؟

— نعم ياسيدي .

— ومتى كان الأصدقاء على وشك الفراق فإنهم يقضون معاً وداعاً وقتهم القصير الباقي . فتعالي نتكلم نحو نصف ساعة عن السفر وهما سوف يتلوه من فراق .. تعالي نستجلى هاتين هذه الكواكب التي شرعت تأتلق في السماء .. هاهي ذى شجرة البندق .. وهاهو ذا المقعد بجانب جذعها ، فتعالي تجلس البقلة في هدوء وسلام . فقد لايتاح لنا أن تجلس معاً مرة أخرى :

ثم أجلسني على المقعد وجلس بجانبني . ونستطرد يقول : « إن

المسافة إلى أيرلندا طويلة يا جين . وإنه ليحزني حقاً أن أبعد صديق الصغرة في هذه الرحلة الشاقة . ولكن إذا لم يكن في وسعي ما هو خير من ذلك . فما حياتي ؟ أعتقد أن بيني وبينك صلة من القرابة يا جين ؟ .. وكان قبي زائحاً بالأسي فلم أقو على الرد بكلمة واحدة . فقال : « ذلك لأنني أشعر أحياناً بشعور غريب نحوك ، لاسيما عندما تكونين قريبة مني مثل ما أنت الآن .. بل تخيل إلى أن تحت أضلعي اليسرى حيطاً رطباً وبارداً وليناً يغط بمائله مشدود إلى أضلعتك الصغيرة ، ولذلك أختي أن يتفجع هذا الرباط الوثيق إذا فصلت بيننا هذه المسافة الشاسعة . وعندما قد تدبم الآلام قلبي وتدبمه . أما أنت فسوف تنسيني .. فهنتف : من يكون هذا قد ياسيدي فلنك تعلم .. » . ولم أستطع المضى إلى أكثر من ذلك . فقال : « هل سمعين يا جين هذا البلبل الذي يغرد هنالك في الغابة ؟ أصغى إليه .. وفيها كنت أصغى . رحت أنشج بالبكاء ، لأنني لم أعد أحتمل أكثر من ذلك .. كنت مضطرة إلى الاستسلام لأحزاني فراحت تعصف بكياي من رأسي إلى أخمص قدمي . وأخيراً .. عندما استطلعت الكلام قلت : « ليتني لم أولد ولم تقع عيناى على ثورنغفيلد !! .. فسألني : « ذلك لأنك آسفة على فراقها ؟ »

واستبد في الانفعال الشديد . وقد أهاجه في نفسى الحزن والحب الذي كان بين جنبي يحاول أن يفرض سلطانه . ويناضل لكي تكون له السيطرة والغلبة . ولكي يعيش . وينبض . ويتحكم أخيراً .. ويتكلم ، فقلت : « يحزني أن أغادر ثورنغفيلد لأنني أحب ثورنغفيلد .. أحبها . لأنني عشت فيها عيشة راضية ممتعة .. في بعض الأحيان على الأقل ،

فلم یاسنی أحد ولم یرعنی مخلوق ، ولم أدق مع عقول وضيعته ، ولم
أحرم من التمتع بكل ما یأتلق ویسمو ، وفيها تعددت وحيا توجع مع من
أحبه وأجله وأجد فيه البهجة والسرور .. مع العقل الوثاب الأحویل
الواسع الأفق .. لقد عرفتك بامتیر روشستر .. فمن دواعی حزنی العیق
وجزعی الشدید أن أجدنی مضطرة إلى فراقك إلى الأبد .. بن إثنی ثری
الرحیل ضرورة .. ولأنها لتبدو محتومة كضرورة الموت ! .. فسألتنی
على الفور : « فیم تجادل هذه الضرورة ؟ » .. فقلت : « فیم ؟ .. إلیك
أنت المادی وضعتہا أمامی ریاسیدی » .

فتساءل : « فی ای شكل ؟ » .. وقت : « فی صورة من غیره » .
امرأة فیللة وجلیة .. عروسك ! » .

وهتف : « عروسی ؟ آی عروس ؟ ! أنا لا عروس .. فقلت :
« ولكنك لن تثبت أن تعطی بعروسی .. فصرخت ریاسیدی وقال :
« سأعطی .. أجل .. سأعطی ! » .. فقلت : « وإذن فلا بد أن أذهب ..
أفقد قلت ذلك بنفسك » .. فقال : « كلا .. بل يجب أن تلی .. أقسم لك
وسأبر بقسمی ! » .. فقلت والافعال بكاد یبترنی : « أقول لك يجب
أن أذهب .. أعتقد أن فی وسعی البقاء حتی لا أصبح شاة فی نظرتك ..
أنظرتی آله لا حس لها ولا شعور .. أنا حسنی أسبق أن یحطب خیزمی من
فی : « وأن تنسكب من وعائی قطرة حیاتی .. أو تعطين عذوبة بالارواح
ولا قلب ، لأننی فتاة فقيرة : نكرة .. خالیه من الجلال .. كلا ریاسیدی .
إنك تعطی فی ذلك : فإن فی روحی لا یقل عن روحك وقلیاً بحس كفتلك ..
ولو أن الله وهبنی شیئاً من الجلال ، وبعضاً من المال : فجعلتک تشعر

فراقی بمראה كتلك التي أشعر بها لفراقك .. إثنی لا أتحدث إلیك كما
یتقاضى العرف والتقالید المصطلح علیها . ولا عن طریق الجسد الفانی .
ولكنها روحی هي التي تخاطب روحك وكأنهما اجتازتا القبر ووقفتا
متساويتین عند قدمی الله .. كما هو الوضع الحقیقی ! » .. فكرر مسرر
روشستر قوی : « كما هو الوضع الحقیقی ! » .. ثم أضاف وهو یحتوی
بین ذواعیه ویضمنی إلى صدره ، ویضبط شفتیه علی شفתי : « هكذا ! » .
فقلت : « أجل .. هكذا ریاسیدی .. ومع ذلك .. فهو لیس كتلك ! ..
لأنك رجل متزوج أو فی حکم المتزوج ومخطوب لفتاة دونك شأناً ..
فتاة لا تعطف علیك . ولا أظنك تحبها حباً صادقاً : لأننی سمعتك ورببتك
تسخر منها . إثنی حنفر مثل هذه الرابطة ولذلك فأنا أفضل منك .. دعنی
أذهب ! » .

.. إلى أين یاجین ؟ إلى أیرلندا ؟

.. نعم إلى أیرلندا . فقد صارحتك بما فی نفسی . وفی وسعی الآن
أن أذهب إلى أي مكان .

.. حدثی روعك یاجین ولا تناضل هكذا . كطائر بری جن ذعراً
قراح یشد ریشه من یأسه !

.. لست طائراً . ولا توجد ثمة شبکة لاقتناصی ، وإنما أنا إنسانة
حرة . ذات إرادة مستقلة تفرض علیّ أن أتركك .

■ وبذلت مجهوداً آخر خلصني منه ، ثم وقفت أمامه منتصبية القائمة فقال : « إن إرادتك سوف تقر مصيرك ، وأنا أقدم لك قلبي ويدي وجزءاً من ممتلكاتي » .. فقلت : « هذه خدعة منك لا يسعني إلا أن أختر منها ! » .. فقال : « بل إنني أسألك أن تقضي حياتك إلى جانبي . وأن تكوني روعي الثانية وخير شريكة لي على الأرض » .. فقلت : « لقد اخترت فعلاً من يجعلها كذلك ، فعليك أن تحترم قراوك وتتسلك به ! » .. فهتف قائلاً : « اهبط قليلاً يا جين ، فإنك شديدة الانفعال ! » .. وهبت إذ ذاك ريح خفيفة على طريق أشجار الغار . فهزت غصون شجرة البندق ثم راحت تتعد وتبعد حتى تلاشت . فلم يبق غير صوت البابل ، ورحلت أبكي وأنا أصغي إليه ، بينما جلس مستر روشستر هادئاً ينظر إلى في رفق واهتمام . وانقضت فترة قبل أن يقول : « تعالى إلى جانبي يا جين ، تعالى نتصارع ليفهم كل منا الآخر ! » .. فقلت : « لن آتي إلى جانبك مرة أخرى . فقد انتزعت نفسي منك ولا أستطيع العودة » .. قال : « ولكنني أدعوك يا جين كزوجتي . لأنك أنت التي أعترز أن تزوج بها » .. فأخجلت لأصغى فلما مني أنه يسخر في ، ولكنه قال : « تعالى يا جين : تعالى هنا »

فقلت : « إن عروسلك تحول بيننا » .

وإذ ذاك غادر مقعده ، وبخطوة واحدة صار بجانبني . ثم جذبني إليه قائلاً : « إن عروسي هنا : شيدتي : هل تزوجيني ؟ » .. وكنت ما أزال في شك من قوله ، فبقيت على صمتي وأنا أحاول التخلص من قبضته : إلى أن قال : « هل ترنابين في يا جين ؟ » .. فقلت :

« كل لارتياح .. وسألتني : « ألا تثقين بي ؟ » .. فأجبت : « ولا انتقال فترة .. » .. وإذا ذلك قال مبتدئاً : « هل أنا كذاب في عينيك ؟ » .. لسوف تؤمنين بي باملحة ! .. أي حب أكنه في قلبي لمس الجرام ؟ .. لا شيء ، كما نعمين .. ثم أي حب تكنه هي لي في قلبها ؟ .. لا شيء ، ولقد نجشمت عناء إثبات ذلك ، فرحت أروج إشاعة باغت سامعها ، وفجواها أن الثروة التي أمتلكها لا تساوي ثلث قيمتها الظاهرية ، ثم لرتها بعد ذلك لأرى مبلغ أثر هذه الإشاعة على نفسها . فوجدت فتوراً منها ومن والدتها . أما أنت .. أنت أيها المخلوقة الغريبة العجيبة التي لا تمت إلى الأرض بصلة .. فإنني أحييت كما لو كنت من لحمي . إنك أنت .. أيها الغفيرة المغمورة الضميلة البسيطة .. أنت هي التي أنوسل إليها أن تقبلني زوجاً ؟ » .

فصمت وقد رأيت لهجة الجودي من سموت وآمنت بصنفة : « ماذا ! أنا ؟ أنا التي ليس لها صديق في العالم سواك ؟ » .. إذا كنت حديقاً لي فأعلم أنني لا أملك من المال إلا ما أعطيتني » .. فقال : « أنت يا جين التي يجب أن أحظى بها لنفسي .. لذلك . فهل تقبلين أن تكوني لي ؟ قولي نعم . بسرعة ! » .. فقلت : « دعني أنطلق إلى وجهك وامستر روشستر ، تحول نحو ضوء النمر ! » .. فتساءل : « لماذا ؟ » .. فقلت : « لأنني أريد أن أقرأ أساميرك .. استدر ! » .. واستدار نحو الضوء قائلاً : « إليك .. ولن تجدي على وجهي سوى صورة ليست أوضح من صفحة مخضنة مشوشة . مكتوبة بخط لا يقرأ .. هيا اقرئي ولكن أسرعى لأنني أتأم ! » .

ورأيت على وجهه المنضرج بحجرة الخيل آيات الاضطراب

والانفعال ، وشاهدت في عينيه برقاً عجباً . وسرعان ما صاح :
 « إنك تؤلميني يا جين ! .. إنك تعذبيني بهذه النظرة المنفضحة برغم
 إخلاصها وكرمها .. » فقلت : « كيف أقوى على أن أؤذيك ؟ .. إذا
 كنت صادقاً وجاداً في طلبك ، فإن شعوري الوحيد نحوك هو الامتنان
 والوله .. وليس في ذلك تعذيب لك أو إيذاء ! .. » فصاح ثائراً :
 « الامتنان ! .. أقبلي بسرعة يا جين ، وقولي : سوف أقربك بك
 يا إدوارد .. ناديني باسمي ! .. » فسألت : « أجاد أنت ؟ .. أتعني
 حقاً ؟ .. هل لك رغبة صادقة في أن أكون زوجتك ؟ .. »

كل الرغبة .. وإذا كانت هناك يمين تتعمك أقسمتها !
 — إذن سأزوجك ياسيدي .

.. ناديني باسمي « إدوارد » يلزومني الصغيرة .

فغمضت : « يا عزيزي إدوارد ! .. وإذ ذاك قال : « إذن تعالي
 إلي .. تعالي كلك إلي » .. ثم ضمني إلى صدره وهنس في أذني وقد
 الصق يده بخدي : « أسعديني ، وسأوفر لك سعادتك .. وما لبث
 أن هتف بعد فترة وجيزة : « عفوك يا إني ! .. انزع يدي من يتعطل
 علينا .. فتدلفرت بها .. وسوف أتشبث بها ! .. »
 .. ليس هناك من يتعطل علينا . فليس لي فأرب بدخلون في
 شؤنا .

— كلا .. وهذا غير ما هنالك .

ولو كان حبي له أضال ما كان يملأ قلبي . أرايت في هجته ومقنطره
 طرباً وحشياً عنيماً ؟ ولكنني كنت أجلس بجانبه . وقد انجذب عني

كايوس الفراق ، ودعيت إلى جنة الارتباط به . فلم أعد أفكر في غير
 كأس السعادة التي كنت أنشرها مترعة ، وراح يسألني مراراً : « هل
 أنت سعيدة يا جين ؟ .. فكنت أجيبه المرة بعد الأخرى : « نعم » ،
 فيغمغم بعدها قائلاً : « هذه هي النوبة .. لسوف تكون كفارة .. »
 ألم أجدتها نتيجة ، عديمة الصديق ، محرومة من الراحة .. ؟ ثم ، ألم
 أرهاها ، وأحبها ، وأواسيها ؟ .. ألا يملأ الحب قلبي ، والعزم الراسخ
 قراي ؟ .. إنها تكفير عن خطايائي « وسوف يتقبلها الله كفارة ، فأني
 أعلم عن يقين أن خالتي بتقبل أعمالي . أما حكم الدنيا على عملي : فأني
 أنقش يدي منه .. وأما رأي الإنسان : فأني أعدها ! .. »

■ ولكن ما الذي أصاب الليل ؟ .. لم يكن القمر قد اختفى بعد وراء
 الأفق ، ومع ذلك فقد تملأنا ظلام ، حتى كدت لا أتبين وجه سيدي
 برغم قربه مني .. وما الذي ألم بشجرة الهندق ؟ .. لقد راحت تتلوى
 وتثاوه ، بينما أخذت الرياح تترأرأ في الطريق التي تحف بها الأشجار ،
 ثم نهب علينا بجناحة .. وقال مستر روشستر : « يجب أن ندخل فقد
 انقلب الطقس .. لولا ذلك لجلست معك حتى الصباح يا جين ! .. »
 فقلت في نفسي : .. وأنا أيضاً .

ولعله كان يحسن أن أجيبه بهذا القول ، ولكن السماء سرعان
 ما أبرقت ، وأرعدت ، وأمطرت ، حتى اضطرت إلى إخضاع عيني
 للزائغتين في كتف مستر روشستر .. وتدفقت الأمطار . فادفعني مستر
 روشستر إلى الممر . ثم خلال الحديقة . إلى المنزل . وقبل أن نبلغ

الفصل الرابع والعشرون

● عندما نهضت من فراشى وارادت ملابسى : رحت أقلب الفكر
فيا وقع وأنسا : أكان حلماً من الأحلام ؟ ولم أستوثق من أنه حقيقة
حتى قابلت مستر روشستر ثانية وجمعت بتعدد لى حبه وعهوده .

وقيا كنت أنسى شعرى . تطلعت لى وجهى فى المرأة فشعرت
بأنه لم يعد خالياً من البهاء . إذ رأيت الأمل على محياه « والحياة على
صنفته . وخيل لى أن عيني قد رأتا تبع السعادة واستمدتا من أمواجه
الرقراقة المشرقة وميضهما المؤنق . ولقد طالما خفت أن أنطلع لى عيني
سيدة خشية ألا ترويه نظرك . أها الآن فلم يعد يساورنى شك فى أننى
أستطيع أن أرفع وجهى إليه دون أن يفتر حبه بما يراه على أساريه :
ثم ارتدبت ثوباً بسيطاً ، ولكنه خفيف وفاتح اللون . ويبدو أنه كان
أنسب ثوب لجسمى . لأننى لم ألبس غير هذه الفريحة وهذا الابتهاج .. ولم
أدهش .. عندما جريت هابطة لى البهو - من أن أرى أن صبايحاً مشرقاً ،
قد أعقب عواصف الليل . ومن أن أحس .. خلال الباب الزجاجى
بفتوح .. ينسيم منعش يعمل غير الزهور ، إذ أيقنت من أن الطبيعة
تشاطرنى معادنى .. وبحث امرأة متسولة تنبل فى الطريق مع طفل
صغير . وقد لاحا صاحبين . هزيلين : مهلولي الثياب ، فهرعت إليهما ،
ومنتحهما كل ما وجدت فى كيبسى « وكان حوالى ثلاثة أو أربعة
مثلثات .. وسواء قل هذا المبلغ أو كثر - فإنه كان كل ما معى . وقد
أحببت أن يشاركاني فرحتى ! وكانت الطيور تشفقن : والبالبل تغرد

عنيته ، كانت ملابسا قد ابتلت تماماً . وفيما كان ينتزع شالى فى البهو :
وبنفض الماء عن شعرى . أطلت مسر فيرفاكس من باب حجرتها .
فلم أرها فى البداية ولم يرها مستر روشستر كذلك . وكان المصباح مضاء
والساعة تدق الثانية عشرة فقال : « أسرعى لى خلع ملايسك المبالة .
وقبل أن تنهجي .. طابت ليلتك .. طابت ليلتك يا حبيبتى ! » .

ثم قبلى مرأوا . ولما استطعت أن أفلت من ذراعيه وأرفع عيني .
شاهدت المرأة الأرملة واقفة وعلى وجهها آيات الشحوب والتجهم
والدهش ، فلم أفعل سوى أن ابتسمت لها ، وبادرت أرقى الدرج وأنا
أقول فى نفسى : « أستطيع أن أوضح هذا الأمر فى وقت آخر ! » ..
ومع أننى لم أكد أبلغ حجرنى حتى شعرت بالألم للفكرة التى ستفسر بها
ماراته ، ولكن سرعان ما أتمحى كل شعور آخر أمام سعادتى وابتهاجى ..
وكانت الرياح تهب بقوة ، والرع يدقصف قريباً . عيمناً مدوياً ، والبرق
يومض فى حدة وبلا انقطاع ، والأمطار تهطل هادرة كالثلال أثناء
العاصفة التى دامت ساعتين . ومع ذلك ، لم يساورنى أنه خوف أو فرح
لأن مستر روشستر اقترب من بابى ثلاث مرات أثناء ذلك ليسألنى هل
أنا فى أمان وسلام وهدوء بال . فكان فى ذلك عزاء وقوة أواجه بهما
كل شيء !

وقبل أن أغادر فراشى فى الصباح التالى . قدمت أديل الصغيرة
مهيرة لتخبرنى بأن صاعقة انقضت خلال الليل على شجرة البندق
الكبيرة ، فى نهاية البستان ، فأطاحت بنصفها !

متهبة : ولكن شيئاً لم يكن يعادل قلبي في طريه وموسيقاه .. على أنني لم ألبث أن فوجئت بمنز فيرفاكس تظل من النافذة بأسارير واجهة : وقالت تخاطبني بلهجة جادة : « يا آنسة جين .. هل تفضلين بالبحر لتناول الإفطار ؟ » . وظلت أثناء الطعام صامتة . فترة . فلما أشأ أن أبدد ما بها : قلت - لنفسى - يجب أن أنتظر حتى يسطح هذا سيدي الأمر . ويجب أن تنتظر يدورها .. وتناولت ما استطعت من طعام . ثم أسرعرت إلى الطابق العلوي حيث التفت بأدب خارجة من غرفة الدراسة فسألها : « إلى أين أنت ذاهبة ؟ حان وقت الدرس » .

— أمرني مستر روشستر بالذهاب إلى غرفة الأطفال .

فسألت : « وأين هو ؟ » .. فأشارت إلى خجيرة التي خرجت منها وقالت : « هناك » .. ودخلت الغرفة فوجدته واقفاً . وبدأتني قائلاً : « تعالى حينئذ نحية الصباح ! » . فتقدمت مقبضة .. ولم يكن ما تلتقيه مجرد كلمة باردة : أو مصافحة باليد . وإنما كان عناقاً وحباً . ولاح لي أن من الطبيعي ، وأن من الميحب أن أحظى بحبه وعناقه . وقال : « إنك يا جين تبدين في هذا الصباح متأففة : بامعة .. جيت .. إنك حياة حقا في هذا الصباح .. أفهذه شيطانتي الشاحبة النذبة ؟ .. أخذت حوائث إلى هذا الوجه المشرق . والحمد لله الذين توسطهم غار ثائن . والشقيين اللورديتين . والشعر الكسثنائي الأملس ، والعينين اللسيتين المائلتين ؟ » . ولقد كانت عيني خضراوين ، ولكن . ليتجاوز نقاوى عن هذا الخطأ ، فقد لاحتا في نظره مصطبعتين بلون جديد !

— إنها جين إير ياسيدى .

— ستصبح عما قريب (جين روشستر) .. بعد أربعة أسابيع يا جانيت .. لا أكثر ! حل تسمعين ؟

أجل ، سمعت قوله وإن لم أقتد معناه . إذ شعرت برأسى يدور ، فإن الشعور الذى بعثه هذا القول في نفسى كان أقوى من التفرح والاعتباط .. كان شعوراً أذهلنى وكان يرسل الخوف إلى قلبي . فسألنى مستر روشستر : « لقد تضرع وجهك ثم امتنع : فلماذا يا جين ؟ » .

— لأنك أطلقت على اسماً جديداً له وقع عجيب في أذنى :

... نعم يامستر روشستر .. الصغيرة ! - عروس إدوارد روشستر .

— لن يكون هذا ياسيدى ولا يحتمل ، لأن البشر لا ينعمون بالسعادة الكاملة المطلقة في هذا العالم .. وأنا لم أولد ليكون حظى غائفاً لحفظه بنات جلدى .. إن مجرد تصور أنني سأصيب كل هذا الحظ ، يبدو لي أشبه بخرافة أو حلم يراودني في يقظتى .

.. ولكن في وصي أن أحققه وسأحققه ! .. وقد قطعت اليوم الخطوة الأولى . فكبت إلى وكيل أعمالى في لندن كي يبعث إلى بيعض لآئى يحتفظ بها .. إنها ميراث تتداوله سيدات (ثورنيلد) . وأمل أن ألقى به في حجرى . لأننى سأوليك كل اهتمام كنت خليقاً بأن أوليه أية فتاة كان يحتمل أن أتروجها من بنات النبلاء .

— أوه ياسيدى . دعك من الآله .. لا أريد أن سمع عنها شيئاً .

لأن المأكلة لجين إير شيء له في المصنع وقع غريب غير طبيعي : ولذلك
فأناست أريد لها !

— سوف أضع يدي عندك الماس حول جيك ، والأساور حول
هذين المعصمين ، وأزين هذه الأصابع الصغيرة بالخرق !

... كلا .. كلا .. ياسيدي .. فكر في موضوع آخر ونكلم في أمور
غير هذه الأمور ، ولا تخاطبني كما لو كنت حسانه .. لا تنس أنني
مربية بسيطة في خدمتك !

... إنك حسناء في عيني : حسناء يتمناها قلبي - رقيقة كالنسيم !
... ثافتها لا وزن لها .. هذا ما نغنيه ! أنت تعلم ياسيدي ، أو أنك
تسخر هي ؟ .. بالله لا تمن في همك !

* * *

■ ولكنه استرسل دون أن يعقل يقول : « ساحل العالم على أن يعترف
بملك أيضاً .. سأكسوك بالاندالا والحلير ، وستزينين شعرك بالورد
والزهور ، وسأعطي الرأس الذي أحبه بوشاح أميرة من الأميرات » :
وشعرت بأنه يعتمد أن يعثر في أو بنفسه فقلت : « إنك لن تعرفني إذ
ذاك .. لن أكون حينئذ » بل سأصبح قرودة ترتدي ثوب مهرج !
انني لا أدعي أنك جميل وإن كنت أحبك حباً طاعياً بمنعني من تملكك ،
فلا تصلفني ! .. ولكنه لم يعقل يقول : بل استطر داثالا : « سأرافقك
اليوم في العربة إلى (ميلكوت) لكي تختاري بعض ثياب لك ، فقد سبق
أن أخبرتك بأننا سوف نتزوج بعد أربعة أسابيع » وسيم زواجنا — في

الكنيسة القريية من هنا - في هدوء ، ثم تسافر فوراً إلى لندن ، وبمعاها بفترة وجيزة - سأحملك يادرفى إلى مناطق أقرب إلى الشمس . . إلى كروم قمرنا . ومهول إيطاليا . وسترين عندها كل ماذاغ ذكره فى التاريخ للتقديم . وكل ما عرف فى العصر الحديث . وسوف تذوق كذلك طعم الحياة فى المدن . وستعرف حين كيف تقدر قيمتها بمجرد مقارنة نفسها بالأخرى !

- حل ماسافر؟، ومعك أنت يا سيدی؟

ستضيق فترات في باريس وروما ونابلي وفلورنسا والبندقية
وفينا . كل أرض جهبا أنا . ستطيقها أنت بقديمك .. أينما حللت
ستذهبن ياملاكسي . لقد قررت إلى أوروبا منذ عشر سنوات ، ورحبت
أنفلس في أرجائها كالجنون . دون ما رقيق سوى ما كنت أحمله في فابي
من التهمة والكراهية والحق ، وسأعود الآن لزيارتها بقلب شقي وتطهر ،
ومعى (ملاك) حقيق يرفه عنى !

فصاحك منه وقلت : « لست من الملائكة ، ولن أكون حتى أموت .. لا تتوقع ولا تطالب مني شيئاً سلباً أو إيجاباً ، كما أتيتني .. لن أحصل عليه منك لو نشأته منك ! ! .. ولذلك خلست أتوقع منك أن تكون ملاكاً ! .. » فقال : « وماذا تتوقعين مني ؟ » .. قلت : « ربما ظلت كما أنت الآن لفترة قصيرة .. ثم لن تلبث أن يتوالد الغفور وتغدو متقبلاً .. ثم سلباً .. وعندئذ سأحاول ما استطعت أن أرضيك .. ومتى ألقى جداً فربما عدت قبيل إلى مرة أخرى .. » أقول : « قبل إلى » ، ولا أقول : « قبل من » ..

تجيبني « ، لأن حبك سوف يتغير بعد ستة أشهر أو أقل . فقد قرأت في الكتب التي ألفتها الرجال أن هذه الفترة هي أقصى مدة يبقى فيها الزوج على حبه .. ومع ذلك فإني أرجو - باعتباري صديقة سيدي ورفيقته - ألا تسأني وتغني إلى هذا الحد :

... أسأني !.. أميل إليك ثانية !.. لسوف أجعلك تعترفين بأنني لا أميل إليك ، وإنما أحبك حباً صادقاً عارماً .

— ومع ذلك ، أفلمت متقلب الأهواء ياسيدي ؟

— مع النساء اللاتي يرصني بوجوههن وجمالهن الظاهري فقط ::
إني أصبح شيطاناً عندما أكتشف أنهن بلا أرواح أو قلوب ، وعندما يظهرون لي السخف والتفاهة وربما الغباء والفظاظة وسوء الطبع . ولكنني محب حنون « صادق : للمعين الصافية واللسان الفصيح والروح المتأججة والطبع الذي يلين ولكنه لا ينكسر .. فهو تارة مرن متلواع . وتارة صلب يابس !

.. هل صادفت مثل هذا الطبع ياسيدي ؟.. هل أحبيت في حياتك واحدة من هذا الصنف ؟

فهيف : « إني أحبا الآن » . ياقلت : « أعني قبلي ، إذا كنت أنا قد بلغت حقاً ذلك المستوى الشاق الذي تشده .. » فقال : « لم أصادف مثيلاً لك من قبل يا جين . إنك تبعين الغبطة في نفسي وتسيطرين عليّ . إنك تظهرين بمظهر الخضوع والامثال ، فأحب قبلك هذا اللين : وعندما أداعب جدائل شعرك الناعم بأصابعي تسري النشوة إلى قلبي .

لقد غلبت على أمري وقهرت ، ومع ذلك فإني أشعرك اندحاري بخلاوة يعجز لسانك عن الإغصاح عنها ، وألمس في قهري نذرة دوتها أعظم ظفر وانتصار . لماذا تبسمين يا جين ؟ .. ما معنى هذه الصورة المبهمة الساذجة التي أراها على وجهك وسحتك ؟ » .

— كنت أفكر (وأغفر في التكررة لأنني لم أتعمدها) في هرقل وشيئون وساحرتيهما .

— وهكذا أيها الشيطانة الصغيرة ؟

— صد يا سيدي فلنك لا نتحدث الآن بحكمة تفوق ما أبداه كل من هذين الرجلين في أعمالهما . ومع ذلك فلو أنهما كانا متزوجين لعوضا بقسوتهما كزوجين . ما أبداه من رفق وحنان كعاشقين ، وهو ما أخشى أن تفعله .. وإلى الأمام بماذا تجبني إذا جئتك بعد عام وسألتك أن تسدي إليّ معروفاً ليس من مصلحتك أن تسديه ؟

قال : « سألني الآن ما شئت يا جين ! » « فقلت : « سأفعل ياسيدي ، فانوقع أنني أعددت ملتصقي » .

— تحدثي !.. أما إذا رفعت عينيك وابتسمت بهذه الأسرار ، فسوف أقسم أن أجيئك قبل أن أعرف سؤالك .. وفي هذا ما يجعلني أحمق !

— عفواً ياسيدي .. إنما أطلب إليك ألا ترسل إلي عميلك في طلب اللاتكس ، وألا تتوج رأسي بالورد والزهود ، وإلا وجب أيضاً أن تضع شريطاً من الدانتلا الذهبية على طرف منديلك هذا البسيط !

.. وفي وسعي كذلك أن أطيء الذهب النقي بطبقه أخرى من الذهب
إذا طلبت !.. إن طلبك عجيب إذن في الوقت الراهن . وسأرسل إلى
وكيلي أحب أوامري الأولى .. ولكنك لم تطلب شيئاً حتى الآن . بعد أن
توسلت لي أن أحب الهدية التي أردت تقديمها إليك . هيا جري ثانية !
.. إذن تكرم علي يا سيدي بمنحة أخرى .. أريد الوقوف على أمر
يرجع بالي .

فتبدي على وجهه القلق ثم قال من فوره : ماذا ؟ ماذا ؟ إن هذا
القماش خطير ، وكان يتبدل ألا أقطع على نفسي عهداً بأن أجيب كل
ما تطلبين ؟ .. فقلت : ليس في إجابة طلب أي خطر يا سيدي .
.. إذن قولي ماذا تريدين ؟ .. إنني أوتر أن تطلبني نصف مقاطعتي
على أن تسأليني عن سر من الأسرار .

.. ماذا أعمل بنصف ما تمتلك ؟ .. إنني أوتر الظفر بفتلك . ترى هل
تقضي عن فتلك إذا فتحت لي مغاليق قلبك ؟

.. أهلا بك موضعاً للفتي الثامة فيما يستحق باجبن ، ولكن لا تطلبني
لنفسك بالله عبثاً ثقيلاً ، ولا تنلهني على السم . ولا تتحولني على بدني إلى
مجرد امرأة .. حواء !

.. لم لا يا سيدي ؟ .. لقد أخبرتني نوك بأنك تحب كثيراً أن تفهر
وتبذل لذة في الإلحاح والإغراء . فهلا ترى جذبي أن أفيد من هذا
الاعتراف . فأشعر في التزلف والتضرع . بل وفي البكاء والغضب
عند الزوم لتوطيد سلطانتي ؟

.. إنني أشفق عليك من مثل هذه التجربة .. جاوزي حدك ..
سترملي وسوف تنالين بغيتك !

.. أحياناً يا سيدي ؟ .. أنتسلم على الفور ؟ .. ما أشد عبوسك الآن ؟
لقد أصبح حاجبك في كثافة لإصبعي ، وغدا جبينك .. على حد قول
الشعراء .. « كعاصفة مدحمة » ! .. وهكذا سيكون مظهرك بعد الزواج ..
أليس كذلك يا سيدي ؟

.. إذا كان هذا سيغدو مظهرك أنت الأخرى بعد الزواج ! ولكن
ماذا تريدين أن تسأليني .. هيا أفصحيني أيها المخلوقة !

.. إنك تنقص الآن من ظرفك ولطفك ، ولكنني أوتر الخشونة
كثيراً على نلق .. ولذلك أفضل أن أكون « مجرد مخلوقة » ، على أن
أكون « ملائكة » ! أما سؤالي فهو : لماذا كبادت نفسك العناية لتحملني
على الاعتقاد بأنك تريد الزواج من مس انجرام ؟

فتبني : « أحدا كل شيء ؟ .. أحد الله على أنه لم يكن أسوأ من
ذلك ! .. وانيسطت أسأريه ثم نظر لي باسماء ، وأخذ يداعب شعري ،
وكأنما سره أن يفلت من خطر كان يتهدده . ثم استرسل يقول : « أظن
من واجبي أن أعترف لك ، وإن كان في اعترافي ما قد يثير غضبك بعض
الشيء يا جين ، بعد أن تبينت أية روح متقدة تتملكك عندما تقضين ..
فقد انشدت غضباً في ضوء القمر في الليلة الماضية . عندما تمردت على
القدر وطلبت بأن تكوني نداءً في مركزي . وعلى ذكر هذا أقول إنك
أنت التي تقدمت بهذا العرض يا جانيب .. فقلت : « هو ذلك فعلاً ،

ولكن لا تخرج عن الموضوع ياسيدى . أرجوك . ماذا لديك عن مس
انجرام ؟ .. وإذ ذاك قال : « حسن . لقد تظاهرت بمغازلة مس انجرام
رغبة منى فى أن أجعلك تبتلين بى . كما أنا مجنون بحبك . وكنت أعلم
أن الغيرة خير حليف أستطيع اللجوء إليه حتى أصل إلى ما أحذف إليه ! »

.. مدهش ! .. إنك الآن تنضال حتى لا تدعو قلامة ظفرى !
والحق أن تصرفك كان يدعو للفرى والفضيحة .. ألم تفكر فى شعور
مس انجرام يا سيدى ؟

.. كان شعورها مركزاً فى شيء واحد . هو الكبرياء .. وهو
ما يجب إزالته . هل أحسست بالغيرة يا جين ؟

.. دعنا من هذا بامستر وروشستر . فإنه لا ينعيك فى شيء . وأجبنى
الآن فى صدق وأمانة للمرة الثانية : ألا تعتقد أن مس انجرام لن تتألم
لنفضلت عهدا ولغزلك غير الصادق ؟ ألا تشعر المسكينة بأنها مهجورة
منبوذة ؟

.. مستحيل ! لقد أخبرتك بأنها هى التى هجرتنى ونبلتني .. فى
لحظة واحدة .. بعد أن أخذت تارها فكرة إعسارى وإفلاسى !

.. إن لك بامستر وروشستر عقلية غريبة .. وأخشى أن تكون مبادلك
فى بعض الأمور شاذة كل الشذوذ .

.. إن مبادئ لم تهذب ولم تطبق بعد يا جين . ولعلها تنحرف فى
بعض الأحيان نتيجة افتقارها إلى الرعاية والعناية .

.. أخبرنى مرة أخرى بيد وصدق : هل فى وسعى أن أنعم بالخير
لجميع الذى أعدهته على . دون أن أخشى أن يقاسى غيرى الألم المرير
الذى قاسينته منذ قليل .

.. انصتى إليها الفتاة الصغيرة الطيبة ، فليس فى العالم إنسان آخر
يحمل لى فى فيه حياً خفياً مثل حبك .. لأننى أبسط على روحى ذلك
اليلمع الناعم . وأعني به الإيمان بحبك !

فحاولت شفى إلى اليد التى وضعها على كتفى وقبلتها بدافع من حب
كنت أعجز عن تصديقه ، وتعجز الكلمات عن وصفه . وما لبث أن
قال : « اسألى ليزيد . فإنه يلذ لى أن أتقبل السؤال فأطيع » .. فتأهبت
مرة أخرى لسؤاله . وفات : « أرجو أن تبلغ ممز فىر فاكس ما استمر
عليه وأريك ياسيدى . فندرتنى بالأمس فى البهو معك ، فيها ما رأته ! ..
فسر لها موقفنا قبل أن أراها ثانية ، لأنه يؤلمنى أن تظن فى الظنون سيده
صالحة مثلاً ! ..

.. اذهبي إلى غرفتك وضعي قبعتك على رأسك ، لأننى أريد
أن أرافقك إلى (ميلكوت) فى هذا الصباح . وسأنتز فرصة استعدادك
للخروج . فأذهب نقابتها وأشرح لها الأمر . أثرينها يا جانيت تعتقد أنك
بعت الدنيا من أجل الحب ؟

.. بل أعتقد أنها حسبتى قد نسيت مركزى ومركزك ياسيدى .
.. مركزك ! مركزك ! .. إن مركزك فى قلبى وعلى أعناق من
يتيتونك الآن أو فيما بعد .. هيا !

■ وسرعان ما ارتديت ملابسى . وعندما جمعت مستر روشستر يغادر حجرة مستر فيرفاكس ، هبطت إليها بسرعة . فلذا السيدة العجوز تقرأ درسها اليومى فى كتاب الصلاة . لأن الدوراة كان مفتوحاً أمامها . وعليه نظارتها . وكانت قد توقفت عن قراءتها بعد زيارة مستر روشستر . وأخذت تمسك شاردة اللب فى الجدار المقابل ، وقد بدت عليها الدهشة التى أثارها الأنباء غير المتوقعة . فلما رأى . أفادت من تأملاتها . وحاولت أن تبسم . ثم غسفت ببعض كلمات هتافى بها . ولكن الإيقامة ما لبثت أن غاضت . وجفت الكلمات . ثم وضعت نظارتها على عينيها وضوت الكتاب . ودفعت مقعدها إلى الخلف بعيداً عن المنضلة وخاطبت قائلة : « لئن أشعر بالدهشة . ولا أكاد أدرى ما ينبغى أن أقوله لك يا مس إير ١.. لا شك فى أننى كنت أحلم . أليس كذلك ؟.. لقد تأخنت أحياناً مدة من النوم ، فأتصور أشياء لم تحدث على الإطلاق . وكما خيل لى فى غفواتى أن زوجى العزيز - الذى قضى منذ خمسة عشر عاماً - قد جاء وجلس بجانبى ، وأخذ ينادى بى باسمى (آليس) : كما اعتاد أن يفعل ، فهل فى وسعك الآن أن تؤكد لى أن مستر روشستر طلب الزواج منك ؟.. لاتضحكى منى ، لأننى واثقة من أنه جاء فى فعلا منذ خمس دقائق وأخبرنى أنك سوف تصيحين زوجته بعد شهر واحد !.. فأجبته : « لقد قال لى نفس الشيء !.. فهنت : « حقاً ؟.. وهل تصدقينه ؟.. وهل قبلت ؟.. » .. وإذ قلت : « نعم » . نظرت لى فى عجب وحيرة ، وقالت : « لم يخطر لى ذلك ببال . لأنه رجل متكبر ككل آل روشستر ، ولأن أباه على الأقل كان محباً للجمال .. ثم إنه يوصف

دائماً بالدقة والحذر ، فهل يقصد فعلاً أن يتزوجك ! »

— هذا ما يقوله .

وراحت تتأملنى : فقرأت فى عينيها أنها لا تجد فى فتنة تكنى لتبرير هذا اللغز .. ثم استرسلت تقول : « هذا ما لا أتصوره ! ولكن لاشك فى صحة الخبر لأنك تؤيدته .. أما كيف يكون هذا : فليست أدرى ، ولا أستطيع أن أجزم ، لأن من الأمور التى يحيدها الناس فى مثل هذه الأحوال : المساواة فى المركز والثراء .. ثم إن هناك عشرين عاماً بينك وبينه . فهو أجدر بأن يكون لك بمثابة الأب ! .. فصصحت مستاءة : « كلا يا مس فيرفاكس .. إنه لا يكبرنى إلى الدرجة التى تجعله بمثابة الأب . ولا يخطر هذا برأس من يرانا معاً ، بل إنه يبدو كشاب فى الخامسة والعشرين » .

فسألتنى : « أهو الحب الذى جعله يقدم على الزواج منك حقاً ؟ » . وتأملت لبرودها وشكوكها ، فاعروقت عينى بالدموع .. واسترسلت الأرملة تقول : « يؤسفنى أن أكدر خاطرك ، ولكنك صغيرة قليلة الخبرة بالرجال ، فأردت أن أحذرك ، لأن المثل القديم يقول : (ما كل لامع بذهب) . وأخشى فى هذه الحالة أن يوجد شئ . يختلف عما تتوقعينه وأتوقعه » .. فسألت متألماً : « ولماذا ؟.. هل أنا غريبة الخلق ؟ هل يستحيل أن يشعر نحوى مستر روشستر بحب خالص ؟.. ففانت : « لا .. أنت على غير حال ، بل إنك تحسنت كثيراً فى المدة الأخيرة . وأعتقد أن مستر روشستر مغرم بك ، إذ طالما خظت أنه يدلك : وقد مرت فى أوقات ساوونى فيها الفلق بسبب

إيثاره إليك : وأحببت أن أحذرك ، ولكني لم أشأ أن أفترض احتمال وقوع أي شيء ، كما كنت أعلم أن مثل هذه الفكرة قد تغضبك .. ونظراً لما أعهدك فيك من التبصر بالأمور ، وشدة الحياء والحساسية .. فقد ساورني الأمل في أنك ستعرفين كيف تصونين نفسك . إنني لا أستطيع أن أحسب لك ما فاسفته ليلة أمس من الآلام عندما بحث في جميع أرجاء القصر فلم أجدها ولم أجده السيد .. وأخيراً رأيتك قادمة معه في منتصف الليل ! .

فقاطعتها بصبر نافذ : « لا تبالي هذا الآن .. بكثيفك أن تعلمي أن كل شيء سار في طريق سليمة » .. فقالت : « وأمل أن ينتهي أيضاً نهاية سليمة . ولكن .. تأكدتي أنك لست تستطيعين أن تكوني مفرطة في الحذر والانتباه . حاولي أن تقصي عنك مستر روشستر ولا تنقي بنفسك ولا به ، لأن السادة الذين في مثل مركزه لا يتزوجون عادة من مربيات أطفالهم » : والحق أنني ازدددت سخطاً وانزعاجاً ، ولكن (أدبل) أقبلت إذ ذاك - لحسن الحظ - وهي تسيح : « دعيني أذهب .. دعيني أذهب أنا كذلك إلى (ميلكوت) . إن مستر روشستر لا ينبغي مع أن بالعربة الجديدة فراغاً فسيحاً .. توسلي إليه أن يدعني أذهب يا آنسة ! .. فقلت متلطفة : « سأفعل يا أدبل .. ثم أسرعت معها وقد ابتهجت لتخليصني من ذلك الوحش الكتيب . وكانت العربة قد أعدت ، واقتيدت لتقف أمام المدخل : بينما كان السيد يلوح الأفريز ومن خلفه كلبه بايلوت يسير معه هنا وهناك ، فقلت أسأله : « تستطيع أدبل أن ترافقت .. أنيس

كذلك يا سيدي ؟ » . فصاح : « قلت لها : كلا .. لست أريد ثمرات ، وإنما أريدك أنت فقط » .

.. دعها تذهب معنا يا مستر روشستر ، أرجوك .. يعن ذلك .. كلا .. سوف تضطروننا إلى أن نلزم الحذر والتحفظ .

وكان غابة في الحزم سواء في نظره أو لهجته . واستبدت بي تعذيرات مسز فيرفاكس وشكوكها ، فشعرت بشيء من التلقى يخالب آمالي ، وأحسست بأنني قدقدت نصف نفوذتي عليه ، وأني أكاد أخضع برغبتي لإرادته .. ولكنه نظر إلى وجهي عندما ساعدني على ركوب العربة وسألني : « ما الذي جرى ؟ .. لقد تبدد منك إشرافك ، فهل حقاً تريدن هذه الثروة معنا ؟ » .. فقلت : « أوثر أن تأتي معنا يا سيدي » : فصاح يخاطب أدبل : « إذن أسرعى وهاقي قبعتك بسرعة البرق ! .. فأنطاعته بأقصى سرعتها .. بينما قال يحدثنني : « لا بأس من أن نجد من يعكر علينا صفونا في هذا الصباح ، ما دمت سأحظى بك عن قريب .. بك وبأفكارك وأحاديثك ورفقتك .. طيلة العمر ! » .

ولما عادت أدبل واستقلت العربة ، جعلت تقبلي اعترافاً بجميل ، ولكن مستر روشستر أجلسها بجانبه من الناحية الأخرى ، فلم تجرؤ على التكلم أو مطالبة بشيء .. بيد أنها أخذت تسترق النظر إلى حيث جلست ، وهي متبرمة بجوارها المنجهم ، فقلت أصرع إليه : « دعها تأتي إلى حتى لا تزعجك يا سيدي ، وهنا في هذه الناحية متسع » فرفعها ونالني إياها كأنها جرو صغير ثم قال وهو يبتسم : « هل ألقها بمدرسة ؟ .. وسمعت أدبل ، فقلت : أنتذهب بدون الآتسة . وكان جوابه : « نعم بدون الآتسة

لأنني سأأخذها إلى القمر حيث أبحث عن كهف في واد من الأودية البيضاء بين قمم البراكين . وهناك ستعيش الآتسة معي وحدي ! »

فاترضت الصغيرة قائلة : « إنك لن تجد ما تأكله وسوف تقتله جوعاً » .. فقال : « بل سأجمع لها المن في الصباح والمساء ، لأن السهول وسفوح التلال في القمر زاهرة بالمن يا أدبل »

— إنها ستحتاج إلى أن تدفئ نفسها .. فمن أين تأتي لها بالنار ؟
— تخرج النار من جبال القمر . فإذا شعرت بالبرد حملتها إلى قمة عالية . ووضعتها على حافة فوهته .

— سنسوء حالها لقلة الراحة ، وسوف تبلى ملابسها . فمن أين تأتي بغيرها ؟

وتجملت على مستر روشستر الحيرة فسلم وقال : « ماذا كنت تصنعين أنت يا أدبل ؟ ففكرى جيداً : هل تنفع سحابة بيضاء أو قرنفلية لعمل جلاب ؟ .. وهل يمكن صنع وشاح جميل من قوس قزح ؟ .. »
فأجابته بعد تفكير : « إنها أحسن حالاً كثيراً : في وضعها الراهن . وفوق ذلك فلنأخذ لن تلبث أن نمل الحياة مملك وحذك في القمر : ولو كنت في مكانها لما رضيت بالذهاب مملك ! » .. قال : « ولكنها رضية وقد عاهدتني على ذلك » :

ولكنك لا تستطيع أنأخذها إلى القمر ، لأنه لا يوجد طريق إلى هناك ، كما أنك لا تستطيعان الطيران ؟

وكانت العربة قد خرجت من بوابات (ثور نفيلد) ومبارت خفيفة في الطريق المرصوف إلى (ميلكوت) ، حيث تراكبت الأخرى بعد

العاجنة . وبدأت الأشجار الشاخنة على الجانبين لامعة خضراء وقد أنعشها المطر . فقال مستر روشستر : « انظري إلى هذا الحقل يا أدبل ، لقد كنت أتمشى فيه ذات مساء منذ أسبوعين ، عندما تولاني التعب ، فجلست أستريح على السياج . وهناك أخرجت دفتراً صغيراً وقلماً ثم أخذت أكتب عن حادث سبي أصابني منذ زمن بعيد ، وعن رغبتني في التمتع بأيام سعيدة مقبلة .. وفيها كنت أكتب بسرعة — وعلى الرغم من الظلام — : آيت غارقة تتفأ أمأى على بعد خطوتين ! .. ونظرت إليها قرأتها ضئيلة الجسم ، وقد أسدلت على وجهها خماراً ! .. وأشارت إليها أن تتقدم فتعلمت ، ووقفت على الفور عند ركبتي .. ولم أنكلم معها قط . ولا تحدثت حي إلى بصوت مسموع ، ولكنني قرأت كلامها في عينها كما قرأت في حديثي في عيني .. وكان مضمون حديثنا باللغة المألوفة هو : « كانت جنية قدمت من أرض الأقزام . وكانت مهمتها أن تسعدني . ومهمتي أن أذهب بها بعيداً عن العالم الأرضي إلى مكان منعزل كالقمر مثلاً . فأومات برأسها نحو التل ، ثم حدثتني عن الكهف المرمرى والوادي الفضى اللذين نستطيع الإقامة فيهما ، فقلت إنني أود الذهاب ، ولكنني ذكرتها — كما ذكرتني الآن يا أدبل — بأنني لم أوت أجنحة أطير بها . فقالت الجنية :

— أوه . هذا لا يهم ! هالك تعويذة تزيل كل العقبات .

و ثم ناولتني خاتماً يديعاً من الذهب وقالت : « وضعه في سبابة يسراك تحديق ملكاً لك وتصبح ملكاً لي ! وسوف تغادر الأرض وتقيم في جنتنا بعيداً عن هنا ! » .

« ثم أومأت نحو القمر مرة أخرى .. وهذا الخاتم يا أدبل في جيب سترتي متكرراً في صورة جنبه ذهبي ، ولكنني أعترم حالاً أن أحوله إلى خاتم مرة أخرى » .. قالت الصغيرة :

« ولكن ما شأن الآتسة بذلك ؟ لا يهين أمر الجنية .. فقد قلت إنها هي التي ترغب في أن تأخذها إلى القمر ! » . فقال وهو يهمس همساً يؤثر فضول الفتاة : « الآتسة جنية ! » .

* * *

● ودعوت أدبل إذ ذاك إلى ألا تعير مزاحه أخمية . بينما أظهرت هي من جانبها ذخيرة من التشكك ، ودعمت مستر روشستر بأنه « كذاب حقيقي ! » ، وأكدت له أنها لا تبالى بقصصه عن العقارب ، وأنه لا وجود للعقارب الآن على الأقل ، وأنها واثقة من أنهم لا يمكن أن يظهروا أو أن يعطوه خواتم ، أو يعرضوا عليه أن يعيش معهم في القمر . وكانت الساعة التي قضيتها في (ميلكوت) مضجرة بالنسبة لي ، إذ أكرهني مستر روشستر على أن أختار ستة (فساتين) .. وهي مهمة أكرهها . فتوسلت إليه أن يعفني منها ، ولكنه أبى إلا أن ينتهي من ذلك قوياً . على أنني استطعت بتوسلات هامة أن أنقص العدد إلى اثنين أقسم أن يختارهما بنفسه . ورحمت أرقبه في قلبي وهو يتقلب بعينيه في المتاجر . إلى أن وقع اختياره على ثوبين . ولكنني وجدت لونيهما زاهياً لامعاً إلى درجة لا أجد معها على ارتدائهما . وبعد عناء شديد استطعت أن أغريه على أن يستبدل بهما ثوباً أسود من الحرير ، وآخر فضياً في لون اللآلئ .

وسررت عندما غادرت متجر الملابس ثم حمل المجوهرات بعد ذلك . وكان وجهي يتضرج بحمرة الحق والمذلة كلما ابتاع لي شيئاً ، حتى عدت إلى العربية واتخذت فيها مكاناً كالمحمومة المنهكة « فتذكرت - وسط دوامة الأحداث قائمها ومشرقها - أنني نسيت خطاب نحاسي إلى مسز ريد واعتزامه أن يبتاعني ويبيعني ورشته ، وقلت أحدث نفسي : « سيكون في ذلك عزاء لي في الواقع ، فلو أن لدى شيئاً من الاستقلال ، لما قبلت أن يلبسني مستر روشستر كما لو كنت دمية ! » . واعدت العزم على أن أكتب إلى (ماديرا) بمجرد عودتي إلى القصر ، فأزف ثنائي خبر زواجي القريب .. ولما كان من المحتمل أن يصبح مستر روشستر وريثاً لبعض ثروتي القادمة ، فقد رأيت أن أتركه الآن ينقذ على . وبهذه الفكرة ارتحت نفساً . وجسرت على أن أقابل نظرات سيدي وحبيبي التي كانت تبحث دائماً عن نظرائ ، في حين أنني كنت دائماً أتحاشي وجهه وعينه ! . وابتسم فخيل لي أنها ابتسامة سلطان يلقبها على جارية أعقد عليها ذهبه ومجوهراته . فشددت على يده بكل قوتي .. وكانت دائماً تبحث عن يدي . ثم دفعها إليه وقد بدت عليها آثار ضغطتي الشديد المنفعل ، وقالت : « ليس ثمة ما يدعوك إلى النظر إلي هكذا . وإذا فعلت فلن أرتدي إلى النهاية غير ثوبي الذي كنت أرتديه في (لو وود) ، ولن أتزوج إلا مرتدية هذا الثوب المصنوع من النيل الأبيض . أما أنت فلي وسعك أن تصنع نفسك جليلاً من الثوب الفضى وعدد لا حصر له من المصنوعات من الذهب الخيري الأسود ! » .. فتهنقه عالياً وفرك يديه ثم صاح : « ها . ها . ها ! أجل أن أراك وأن أسمعك ! .. إنك شاذة

الأطوار ، لاذعة اللسان ، ولكنني أورك على جواوي السلطان من الخور ذوات العيون الغزلانية » .

وآلتي هذه الإشارة للشرق مرة أخرى فقلت : « أنا لا أحتمل قط أن تشبهني بحريم السلطان ، وإذا كانت لديك شهوة من هذا القبيل فلنذهب ياسيدي إلى أسواق (استامبول) فوراً ولن دفع لأحد تجار الرقيق جانباً من أموالك التي لا تدري قيم تنفقها هنا ! » .

— وماذا تفعلين يا جانيت عندما أسألك في شراء مثل هذه القناطر العديدة من اللحم ، ومن هذه العيون النجل ؟

— أعد نفسي لسفر مبشرة بالحرية بين من وقعن أسيرات في أغلال الرق ، بما فيهن جواريتك ياسيدي ، وسأعرف كيف أصل إليهن وأشعل في صدورهن نار الثورة ، وأبث في قلوبهن روح العصيان . فلا تلبث أن تجد نفسك رازحاً بين أيدينا في الأصفاة والأغلال ، أما أنا فلن أرضى بتعطيم قيودك حتى توقع عهداً . يصبح أعظم عهد وقعه حاكم مستبد من حيث الكرم والسخاء والتساهل .

— يرضيني أن أكون تحت رحمتك يا جين .

— لن أعرف معنى للرحمة والشفقة مادمت تنظر إلى هذه العين .. ومادامت هذه نظرتك « فلا شك عندي في أن أول ما سوف تفعله بعد إطلاق سراحك هو نقض العهد الذي قطعته مكرهاً على نفسك !

— ما هذا يا جين ؟ .. أخشى أن تضطرينني إلى القيام بمغلة زواج

خاصة غير تلك التي تقام عادة أمام المذابح ! .. أراك ترمين إلى شروط خاصة غريبة ، فما هي ؟

— لا أطعم في غير راحة اليان ياسيدي .. لا أريد أن ترهقني بالالتزامات المتعددة . هل تذكر ماقلته عن (سيلين فارنس) ..؟ عن الثلاث والكشمير وغير ذلك مما كنت تقدمه عليها ؟ لن أكون (سيلين) الثانية . بل أفضل أن أظل معلمة لأدبل وأن أكتسب بذلك طعامي ومسكني وثلاثين جنياً في السنة . وأن أشتري من هذا المارتب ما أريد من ثياب . أما أنت فلا أطعم منك في غير

في غير ماذا ؟

— في غير الاحترام .. وإذا منحتك احترام في مقابل احترامك لي . فلن يبقى أحد منا مديناً للآخر بشيء .

فقال مستر روبرت : « ليس لك مشيل في فطنتك الباردة المعتدة ، وفي كبريائك الغريزية المفضة .

وكنا قد اقترنا إذ ذاك من ثور نفيلد . فسألني : « هل يسرك أن نتناول العشاء معي الليلة ؟ » .

— كلا .. شكراً ياسيدي .

— هل لي أن أسألك عن معنى « كلا .. شكراً يا سيدي » ؟

— لم أتناول معك طعام العشاء من قبل ياسيدي . ولا أرى الآن ما يدعوني إلى ذلك حتى ..

— حتى ماذا ؟ إنه يسرك دائماً أن تنطق بالجمل ناقصة !

— حتى يصبح هذا أمراً شتوماً علي !

— أنسين أنني أتهم طعامي كالغول . وتخشين مشاركتي في تناول الطعام .

لم أكون بعد فكرة ما في هذا الشأن يا سيدي ، ولكني أريد أن أظل على طريقي المألوفة لشهر آخر .

.. بل ستحورين من عبودية تربية الأطفال في الحال .

— معذرة يا سيدي . الواقع أنني لن أفعل . بل سوف أستمري في عملي ، وسأعاشي طريقي طوال المساء كما دني . ولك أن ترسل في طلبني في المساء إذا ما كنت في تنسك رغبة في مقابلتي . وعندئذ سأتي حالا ولكنني لن أفعل أكثر من ذلك !

— أما في حاجة إلى التدخين أو إلى قليل من السعوط باجبن لتهدئة خواطري أمام كل هذا ، ولكنني للأسف لا أحمل معي سيجار أو سعوطاً فأصغي إلى . هذا وقتك أيها الطاغية الصغيرة ، ولكن سوف لا تنقضي فترة وجيزة حتى يكون الأمر أمري ، ومتى قبضت على زمامك فسوف أشدك بسلسلة كهذه — وأشار إلى سلسلة ساعته — نعم سألبسك في صدرى مخافة أن تضيق جوهرك !

قال ذلك وهو يساعدي على مغادرة العربة . وفيما كان متشغلاً مع أديل ، انتهزت الفرصة وأسرعت إلى حجرتي . وعندما جاء المساء أرسل يدعوني ، وكنت قد أعددت له ما يشغله ، إذ اعتزمت ألا أقضي معه الوقت كله في حديث مقصور علينا نحن الاثنين فقط . ولقد تذكرت صوته الرخيم ، وكنت أعرف أنه يجب أن يغني ، شأنه في ذلك شأن من يجيد الغناء . ولم أكن ذات صوت جميل ، كما أنني كنت — في حكمة

القاضي . لا أجيد الموسيقى ، ولكنني كنت أغتبط بسماع الصوت الرخيم . لذلك لم تكذب الخلفة ترنحاً أستاذها في ذلك المساء . حتى نهضت من مكاني وفتحت الباب . ثم توسلت إليه أن يغني . فقال لي إنني ساحرة مأكورة ، ووعدني بالغناء في فرصة أخرى ، ولكنني أكدت له أن إبت هناك فرصة أكثر ملاءمة من الوقت الحاضر . فسألني هل أحب صوته ؟ . وكنت غير مشغوفة بإشباع زهوة المفرط ، ولكنني رضيت لمرة واحدة . تمشياً مع مقتضيات المناسبة — أن أتملى غروره — بل أن أثيره فقلت : « أحبه جداً » . وإذ ذاك قال : « إذن عليك أن تعزفي في مصاحبي » . فقلت : « حسناً يا سيدي .. سأحاول ! » .

وفعلاً حاولت . ولكنه سرعان ما دفعني عن مقعدي في غير لطف أو دماثة . واغتصب مكاني — وهذا ما كنت أرغب فيه — ثم راح يعزف لنفسه . لأنه كان ماهراً في العزف مهارته في الغناء . بينما بادرت أنا إلى فراغ النافذة . وفيما كنت جالسة هناك أطل على الأشجار الساكنة والمروج المظلمة . تسمع بغني المقطوعة التالية بصوت رخم وأنغام حلوة :

إن تخلص الحب الذي يمس سويداء القلب المتفردة .. قد سرى مني في كل شريان .. وانطلق مسرعاً .. يتدفق في مجرى الحياة !
كان قدومها أملي في كل يوم .. وكان فراقها مبعث آلام .. فإذا تمهلت في خطوها .. فكأنما اللجج يعزف في عروقي ويهدئ هواجسي !
حطمت بآتي أعيش في نعيم مقيم .. وبمثل ما أحببت أردت أن أكون محبوباً .. وبهذا الأمل الحلو أسرعت .. في لغة الأعشى ونشوته .

■ ثم نهض وتقدم نحوى . فأريت وجهه متقدماً وعليه تلمعان ، وقد ارتسم الختان والوجد على كل أساوره . فأجفلت لأول وهلة ، ثم استجمعت قواى ووجدتني إزاء مشهد رائع ، وعرض غرامى جرى لم تكن أحبه . فقلت لنفسى : يجب أن أحيى وسيلة للدفاع . وكان أن تحدثت لسانى . حتى إذا اقترب منى سألته فى حدة وخشونة : من هى هذه التى يعتزم أن يتزوجها الآن ؟ فقال : يا له من سؤال عجيب .. من حبيبى جين !

— حقاً ! إننى أعتبره سؤالاً طبعياً وضرورياً بعد أن تكلم الشاعر عن زوجته المستقبلية التى ستموت معه ، فماذا يعنى بهذه الشكرة الوثنية ؟
إننى لا أعترم الموت معه ، وله أن (يتأكد) من ذلك !

فقال إن كل ما كان يشده ويصل من أجله : هو أن أحيأ معه . لأن الموت لبس مما يرمى بخلوقة مثلى . فقلت : « بل إن الموت حق على » ، كما هو حق عليه . حتى حانت المني . ولكنى لا أتعيجله ، بل أرتقبه على مهل ، :: فسألنى أن أصمخ عن فكرته الأنانية ، وأن أؤكد غفرانى بقبلة ، ولكنى رفضت . وسألته أن يعفنى .. وإذ ذاك . سمعت نفسى ترمينى بالقسوة والجمود . وتقول إن أية امرأة أخرى فى مثل هذا الموقف كانت تتلوب وجداً أمام هذا الإطئاب والإطراء ! .. ورحمت أؤكد له أننى جامدة بطبعى . وأنه سوف يعانى على هذا الطبع فى كثير من الأوقات . والواقع أننى قررت أن أبدى له — فى طباعى — كثيراً من المواضيع الخشنة . قبل أن تنتهى الأسابيع الأربعة . كى يعرف جيداً

ولكن الشقة بين حياتنا كانت واسعة وعرة المسالك .. خطيرة خطورة الأمواج المزبدية .. فى المحيط الثائر . وكانت هذه الشقة بيننا .. كطريق يعيث فيها اللصوص .. لا يدعون منها ببداء ولا غاية .. فقد كانت تحول بين دوحينا : القوة والشرعية والويل والثبور !

فأقمحت الأحوال وتخرت بالعقبات .. وتحديث نذر السحر .. بل حيث تكن الأخطار والمضايقات . وبأبغى الحذر .. كنت أمضى متهوراً . وطرت كأثنى فى حلم .. نحو قوس قرعى المندفع فى سرعة البرق .. حتى تجلى لناظرى فى أبهى صوره .. هذا القوس : وليد البرق والمطر ! وعلى سحب الظلام المدممة .. ظل يأتلق السرور الرقيق .. فلم أعد أحفل بمدى تكاثف وقنم .. المصائب المتجمعة ! ولم أعد أبالى فى هذه اللحظة الحلوة .. بأن كل ما اجتحتته وغلبته .. لن يأتى أن يأتى على جناح الطير قوياً مسرعاً .. ينشد الثائر الفرع ! وإذا كانت بفضاء التعالى صرعتى :: وإلى محكمة الحق قدمتنى .. ثم بقواها العالحة العابسة هدنتى .. بالعداوة الأزلية إلى الأبد . فقد وضعت حبيبى يدها الصغيرة :: فى يدى بإخلاص نبيل .. وأقسمت على أن رابطة قدسية لا تنفد :: سوف تربط بين دوحينا ! وقد أقسمت حبيبى وهى تختم حبها بقبلة :: أن تعيش معى وموت معى .. وبذلك نعمت أخيراً بالفردوس المقيم .. لأن حبها لى لم يكن أقل من حبى لها !

* * *

أية صفة كان مقدماً عليها . قبل أن يتم إبرامها - لعله أن يرجع عنها .. ولكنه ما لبث أن سألني : « هل ألتزم الهدوء وأتكلم بالتحكم والحكمة ؟ » .
 حينئذ لو أردت الهدوء .. أما من ناحية التكلم بالحكمة ، فإني
 أطرى نفسي ، لأنني فعلت ذلك .

فأرغى وأزهد ! .. وقالت لنفسى : « حسناً .. لك أن تتعدل وأن
 تبرم كما تشاء - ولكن هاه - كما أعلم - خير وسيلة أسلكها معك -
 فإني أحبك فوق ما يقوى لسانى على التعبير - ولكنى لا أريد أنفرق في
 بحر المواقف - وأريد بهذا الوضع أن أبعد بك عن شفا الهوة - وأجعل
 بينى وبينك حداً قاصداً لغيرى وخيرك ! » .. وبهذه الطريقة أخذت أثير
 من جل الغضب في نفسه .. في النهاية التالية - فكان يسير إلى نهاية الحجرة ..
 وإذ ذاك كنت أنهض وأقول بلهجتى الطليعية الأخيرة بالاحترام :
 « طابت ليلتك ياسيدي ! » .. ثم أنسل من باب الحجرة الجانبى وأنصرف .
 وسلكت هذه الحطة طوال مدة الشجيرة وفترة الاختيار - فوفقت
 فيها كل التوفيق ، وكنت أراه يخضب ويتكدر - ولكنه كان يجتهد في
 ذلك المدة - بوجه عام - إذ كان يرضيه أن ألقى جبروته بودة الحمل
 وهدوء الحمايم .. وكنت .. في حضرة الغير - أبديو كالعادة : شديدة
 الاحترام والهدوء . فلم أكن أعارضه لو أعاكسه إلا في أحاديثنا الليلية ،
 إذ ظل يستدعيني عندما تدق الساعة السابعة من كل مساء . ولم يكن
 يستغنى بالفاظ الحب والتدليل . وإنما كان يدعوني بالدمية المشردة
 والشيطانة المنقابة وغير ذلك من الألفاظ - كما كان يدللتى يستجهم من
 وجهه بدل الابتسام - وبضغظ يدي أو بقرص ذراعى . أو عرك أذنى .

بدلاً من أن يطبع قبلة على وجنتى ! .. والواقع أنني فضلت هذه الحمايمات
 الخشنة على غيرها في فترة الاختيار . كما لاحظت أن مسز فيرفاكس قد
 رتاحت هذه الحطة . وأن قلقها من ناحيتى قد تبدد : فأدركت أنني
 أسلك سبيل الصواب .. في حين كان مسز ووشستر يؤكد لى أنني
 أضايقه - وراح يتهددنى بالانتقام الذريع في أقرب فرصة ، لسلوكى هذا
 فكنت أضاحك من تهديداته وأقول في نفسي : « لقد أمكننى أن أوقفك
 الآن عند حدك . وفي وسعى ذلك فيما بعد ! وإذا أعجزتني هذه الحيلة
 عدت إلى غيرها ! » .

ومع ذلك فإن منعتى لم تكن سهلة ميسورة ، إذ كنت أؤثر في بعض
 الأحيان أن أرضيه بدلاً من أن أغضبه ، فقد أصبح زوجى المرتقب أعلى
 عندي من العالم بأجمعه - بل صار كل أملى في الحياة !

الفصل الخامس والعشرون

■ انتهى شهر مطارحة الغرام ، وكنا قد أخذنا نعد ساعاته الباقية على الأصابع . ولم نرجح ما يستلزمه اليوم السابق للزفاف من استعدادات لمقدمه . ولم يكن لدى — أنا على الأقل — ما أعله بعد أن ملأت الخائب ونحزمتها وأغلقتها بالمفتاح ثم ربطتها بالحبال وصنعتها في خط طويل بجانب جدار حجري في الصغيرة ، لتكون في مثل تلك الساعة من اليوم التالي في طريقها إلى لندن ، وكذلك أنا بمشيئة الله ، أو على الأصح (جين روشتر) التي لم أعرفها بعد !... ولم تكن البطاقات التي تحمل عنواني قد لصنت بعد على صناديق السفر الأربعة . بل ظلت في الدرج .. وكان مستر روشتر قد كتب على كل منها بخط يده : (مسز روشتر بفندق .. لندن) . ولم أستطع أن أغرى نفسي على لصقتها أو تكليف أحد آخر بذلك ، فإن مسز روشتر لم تكن موجودة بعد ، وما كانت ستولد قبل الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ، ومن ثم كان من الواجب أن أنتظر ريثما أستوثق من أنها قد أتت إلى العالم حية قبل أن أعزو إليها كل هذه الأمتعة ! كان يكتفى أن أرى أمانى صوان الملابس وقد اكتظت بتياب لها ، حلت محل ثوبي الأسود — الذي كنت أفتنه من (لو وود) وقلنسوة من القش . وكان بين تلك الملابس ثوب العرس : (فستان) في لون اللآلئ ، وخمار في كثافة البخار .. ووجدتني أغلق الصوان لأحجب عن عيني هذا (الجهاز) الذي بدا لي في هذه الساعة — التاسعة مساءً — غريباً تشع منه خلال عتمة الحجرة ظلال كالأشباح ! . وقتلت

نفسى : سادعتك وشأنك أيها الحلم الأغبر ، فإني عمومة ! إني أسمع الرياح تهب وتغوى . وسأخرج لأحس بها ! .

لم أكن عمومة لمجرد العجلة في ترتيب المعدات اللازمة ، ولا لجرد ترقب الانقلاب الكبير — وهو الحياة الجديدة التي ستبدأ غداً — . وإن كان للظرفين نصيبهما بلا ريب في اضطرابي وثورتي التي جعلتني أسرع في تلك الساعة المتأخرة إلى الحديقة المظلمة .. ولكن كان هناك سبب ثالث أثر في نفسي تأثيراً أكبر : كانت في قلبي فكرة عجيبة قلقة ! ولم يكن أحد غيري قد علم أو رأى هذا الحادث الذي وقع في الليلة الماضية . فقد كان مستر روشتر غائباً في تلك الليلة عن القصر . ولم يكن قد عاد بعد من ضيعة صغيرة — تتألف من مزرعتين أو ثلاث — على مسافة ثلاثين ميلاً ، ذهب إليها ليسوى بنفسه بعض الأمور قبل سفره من إنجلترا .. وفيما كنت أترقب عودته لأقضى إليه بما أثقل قلبي وأسأله أيضاً عن الغز الذي يبلبل أفكارى . ولكن : انتظر أيها القارئ حتى يأتي ، ومتى كشفت له عن سرى . شاطرنا إياه .. وتعال أروك للحادث !

فصعدت إلى البستان تدفعني إلى الاحتفاء به الرياح التي كانت تهب شديدة طوال النهار من الجنوب دون أن تحمل قطرة واحدة من الأمطار . ويدلأ من أن تبدأ هذه الرياح مع اقتراب الليل ، زادت في حدتها ، وتضاعف زفيرها . وظلت الأشجار تميل في اتجاه واحد ، ولا تكاد تطوح بأغصانها إلى غيره مرة واحدة ، بل ظلت منحنية الرعوس نحو الشمال ، بينما كانت السحب تنتقل متتابعة متراكضة ، كتلة إثر أخرى ،

بحيث لم تكن تبدو من السماء الزرقاء رقعة صغيرة في ذلك اليوم من أيام شهر يوليو .. ولم يكن قلمي خلواً من السرور والاعتباط عندما جريت أمام الرياح لكي أسلم أفكاري المكثورة الهواء المدهوي حولي في القضاء وهبعت الممر الذي تحوطه الأشجار ، لأواجه حطام شجرة البندق .. وفيما كنت أتأمل جذعها الأسود المشقوق ، شاهدت العصور قد جف في جوفه ، والقروع مترامية على الجانبين ميتة .. وكان من المؤكد أن عواصف الشتاء القادم ستدفع ببعض بذور الشجرة إلى الأرض ، فلا تلبث أن تنمو شجرة جديدة .. على أنها بوضعها الراهن كانت هالكة . فقلت لأحاطليها وكأنها تسمعي : « لقد أحسنت بتماسكك ، ويبدو لي برغم ما أصابك أن بك قسماً من الحياة بفضل الجذور الأمانة ، وإن كنت ستحرمين الأوراق الخضراء ، ولن ترى الطيور تمشي بينك أو تغني على منابر .. ولكنك لست في وحشة ، لأن لكل من غصونك رقيقاً يواسيه في محنته ! » .

وعندما رفعت رأسي إلى الفروع ، ظهر القمر في تلك البقعة من السماء وقد احمر قرصه وكأنه كان يلقى على نظرة حارة موحشة . ثم اخفي ثانية وراء عصابة قاتمة .. وكانت الرياح قد سكنت حول (ثورفيلد) بضع لحظات ، ولكنها كانت تعول بعداً فوق الغابات والأعطار بصوت حزين مروع لم يسعني أن أصغى إليه ، فأطلقت لساق العنان مرة أخرى .. وروح أجوب أنحاء البستان أجمع النضج المتساقط من أشجاره فوق الحشائش الكثيفة ، ثم انهمكت في قوز الناضج منه وحلت ما جمعه إلى مخزن القصر . وما لبثت أن مضيت إلى

الكنيسة . لأجد النار مشتعلة في المدفأة ، فوضعت المقعد الكبير ذا المستدين بجانبها ، ثم جذبت المنضدة ، وأسدت النار ، وأعددت الشموع للإضاءة .

بعد أني . عندما أعمت هذه الترتيبات - وجدني أزداد قلقاً بحيث لم أعد أطيق الإخلاد إلى الجلوس في هدوء ، ولا البقاء في المنزل ودقت الساعة الصغيرة في الحجرة ، كما دقت الساعة العتيقة في اليهو ، عثر دقات ، فقلت لنفسى : « كم يمن الليل في سيره ! سأنزّل إلى البوابات الخارجية . فإن القمر يظهر بين النبتة والأخرى بحيث أستطيع أن تبين جزءاً كبيراً من الطريق . ولعلني أرى مستر روشتر قادماً في هذه الآونة ، فأقابله خارج القصر لأوفر على نفسي بعض لحظات من الانتظار ! » .

وكانت الأمطار قد انقطعت ، ولكن الرياح ظلت تزار عالياً بين الأشجار الضخمة التي تظلل البوابات . أما الطريق - على مدى ما تيسره . فكان ساكناً ، وحشاً ، لا تشاهد على يمينه وعلى يساره غير ظلال السحب التي كانت تعنازه من وقت إلى آخر ، كلما أطل القمر من خلالها .. وفيما كنت أنطلع حوالى ، ترقرقت في عيني دموع ضخمة .. دموع اليأس ونفاد الصبر .. فخرجت وجففتها ، وأخذت أنسجم في الطريق إلى أن احجب القمر تحت ستار من السحب الكثيفة ، واشتدت ظلمة الليل ، وبدأت الأمطار تهطل ثانية والمعاصفة تموقها أمامها بقوة وسرعة . فهضت وقد استبدتني الوسواس السوداء : « ألا ليته يأتي ! »

ليته يأتى ! .. لقد كنت أرثقب وصوله قبيل موعد الشاي . وما هو
ذا الظلام قد أرخى سدوله ، فما الذى حاك دون عودته ؟ .. هل أسايه
حادث ؟ .. وتذكرت حادث الليلة الماضية ، ففسرته بأنه نذير لمصيبة
أو كارثة . وخشيت أن تكون آمالى أكبر من أن تتحقق ، فقد حظيت
أخيراً بنعم كبير ، حتى خيل لى أن سعادتي قد بلغت ذروتها ووجب
أن تأخذ في الأفول .

وقلت لنفسي : « لن أستطيع العودة إلى المنزل ولا الجلوس بجوار
المدفأة ، وهو ما يزال في الخارج في هذا الطقس القاسي .. يجب أن
أنطلق لألقاه ! » .. وسرت بسرعة . ولكن دون أن أعتد كثيراً .
ولم أكد أقطع ربع ميل حتى سمعت وقع حوافر . ورأيت فارساً يعلو
بكل قوته وإلى جانبه يجرى كلب ، فقلت : « لتذهبي عني أمها
الوساوس ! .. ها هو ذا على ظهر جواده (مسرور) يتبعه كلبه
(بابلوت) .. وشاهدني - لأن القمر كان قد شق لنفسه ثغرة زرقاء
بين السحب - قرفع قبعته ثم لوح بها حول رأسه ، فأسرعت لمقابله ..
ومد يده وانحنى على السرج وهو يقول : « ها أنتادي ترين أن لا غنى
لك عني ! .. هذا واضح ! ضعي قدمك الصغيرة على طرف حذائي
وأعطني يديك .. اصعدي ! » .. فأطعته وقد استخفني الترحح . ثم
وثبت إلى ظهر الجواد أمامه ، فحياني بقبلة حارة وبضع كلمات تم
عن فوزه المزمو . احتملتها قلبي ما استطعت . إلى أن سألتني وسط
مظاهر فرحته : « ماذا حدث يا جين حتى تأتي لمقابلتي في مثل هذه
الساعة ؟ هل جرى شيء ؟ » .. فقلت : « كلا . وإنما خيل لي أنك لن

تأتي أبداً : فلم أقو على احتمال انتظارك في المنزل وخاصة مع هذا المطر
وحدة الريح ! » .

.. مطر ورياح .. آه ، حقاً ! .. أجبل . إنك تقطرين مساء
كمحورية البحر . اتى عباتي حوالك .. ولكنني أراك محمولة يا جين
وفد التهاب عذاك ويداك . ولذلك أسألك مرة أخرى : « ماذا حدث ؟ »
فقلت : « لا شيء الآن ، فليست خائفة أو تعسة ! » .

.. إذن فقد كنت كذلك ؟

.. تقريباً .. ولكنني سأقص عليك الأمر شيئاً فشيئاً يا سيدي .
وأنتك متفصحك من أسباب ما يؤلني !

.. سأضحك منك من كل قلبي ، بعد أن ينتهي الغد بخير ، أما قبل
ذلك فلا أجرو ، لأن مكافأتي لم تنقرر بعد .. أنت ، أنت التي ظلمت
طوال الشهر الماضي تزلزتين من يدي مثل السمكة ، وتخزيفني بشوكة
كالكوردة . فلا أضع يدي على جزء من جسمك حتى تدميني لمرك !
أما الآن فيخيل لي أنني أحمل بين يدي حملاً شادراً من الحملان الوادعة .
هل غادرت حظيرتك لتقابل راعيكم يا جين ؟

.. كنت مشوقة إليك . فلا تباهي ولا تزدعي ! .. ها قد بلغنا
(ثور نقيلا) فدعني أهيط .

* * *

■ وتزلت على الممر المرصوف . وعندما تناول منه جون عشان
جواده ، تبعتني إلى البهو وأمرني بأن أسرع فأرتدي ملابس جافة ، ثم

أعود إليه في المكتبة : وقبل أن أبلغ الدرج : استمهلني وطلب مني ألا أبطل في العسودة . ولم أبطل فقد رجعت بعد خمس دقائق لأجسده يتناول العشاء . فقال : « اجلسي واحتملي رفقتي يا جين . شكر الله على أن هذه ستكون الأكلة الأخيرة لك في (ثورنفلد) لمدة طويلة . فجلست بالقرب منه وأخبرته بأنني لا أستطيع أن أتناول طعاماً . فقال : « وهل ذلك لأنك مأخوذة بما أمامك من أمل في الرجيسل يا جين ؟ » وهل التفكير في السفر إلى لندن هو الذي انتزع منك شهوة الأكل ؟ »

.. إن آمالي ليست واضحة لعيني الليلة . ولا أكاد أدري ماذا يدور في رأسي من أفكار ، إذ يغفل لي أن كل ما في هذه الحياة باطل زائف .

.. ما عداي .. أنا مادي ملموس .. المسكين يملك !

.. بل أنت أقرب ما في الحياة كلها للوهم يا سيدي .. أنت مجرد حلم !

فلوح بيده قرب عيني وقال : « أحذه حلم ؟ » .. وأقصبت يده عن وجهي وقلت : « إنها حلم برغم أنني مستهتة .. هل فرغت من عشائك يا سيدي ؟ » .. وإذ أجاب : « نعم يا جين » .. دقت الجرس وأمرت بحمل الصينية .. حتى إذا عدنا وحيدتين ، حركت نيران المدفأة . ثم تناولت مقعداً خفيضاً ، وجلست عند ركبة سيدي . ثم قلت : « أكاد الليل ينتصف ! » .. فقال : « نعم ، ولكن تذكرى يا جين أنك

وعدتني بأن تظلي ساهرة معي طوال الليلة السابقة الزفاف » .. فقلت : « فعلا ، وسأفي بوعدى لساعة أو اثنتين على الأقل » إذ لا رغبة لي الآن في النوم .

.. هل فرغت من جميع ترتيباتك ؟

.. جميعها يا سيدي .

.. وأنا الآخر أعددت كل شيء . وسنغادر (ثورنفلد) غداً بعد نصف ساعة من عودتنا من الكنيسة ..

.. حسناً يا سيدي .

.. يا لها من اقسامة عجيبة هذه التي اقترنت بقولك « حسناً » .. وبالبقعة الحمراء اللامعة التي تخضب خديك ! .. وما هذا البريق الغريب الذي تألق به عيناك ؟ هل أنت بخير ؟ .. أظنني كذلك .

.. تظنين ؟ ماذا جرى ! خبريني ، بماذا تشعرين ؟

.. لا أستطيع يا سيدي . ليست هناك كلمات تستطيع التعبير لك عما أشعر به . بودي ألا تنتهي هذه الساعة ، فن يدري ماذا يأتي به القادر في الساعة التالية ؟

.. هذه وسالوس يا جين ، فقد نال منك الإفراط في الانفعالات

والمتاعب .

.. أشعر يا سيدي بأنك هادئ وسعيد ؟

.. هادئ ؟ .. كلا ، ولكنني سعيد .. كل السعادة ؟

وتطلعت إلى وجهه لأقرأ فيه آيات النعم التي كانت تنعكس عليه فوجدته جاراً متورداً .

ثم قال : « امنحني ثقتك يا جين . وأقصى عن رأسك هذا العبء الذي يرهقه بأن تفضي إلى بما يتبعك . ماذا تخشين ؟ ألا أكون زوجاً طيباً ؟ .. قلت : « هذه أبعد فكرة عن رأسي ! .. فماد يسأل : « إذن ، فهل تخشين الدنيا الجديدة التي أنت مقبلة عليها ؟ أو تخشين الحياة الجديدة التي تنتقلين إليها ؟ .. قلت : « كلا ؟ .. وعندئذ هتف : « إنك تحيريني يا جين ! إن منظرَكَ وطمحتك يمان عن حزن واضح يربكني ويؤلمني ، فأفصحني ! » :

— إذن أضغ إلى ياسيدي .. أما كنت بعيداً عن القصر في الليلة الماضية ؟

— نعم كنت .. وقد سمعتك منذ هنية تشيرين إلى أن أمراً وقع في غيابي . وربما كان أمراً لا أهمية له ، ولكنه — بالاختصار — أزعجك فأخبريني به .. هل قالت لك مزر فيرفاكس شيئاً ؟ .. سمعت الخدم يتحدثون عن شيء ؟ .. أو هل جرح أحد كرامتك المرهقة ؟

فأجبت قائلة : « كلا ياسيدي .. وفي تلك اللحظة ، شرعت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة . فانتظرت حتى فرغت من دقاتها ثم مضيت أقول : « كنت منهمكة طوال نهار أمس في عمل متصل ، ولكنني كنت غاية في السعادة . لأنني لم أكن أختشي دنياي الجديدة أو غيرها ، بل كنت أشعر بمتهى الهناء في مجرد الأمل في أن أحيا معك

لأنني أحبك ! .. كلا ياسيدي . لا تفازلني الآن . بل دعني أتكلم دون مقاطعة .. لقد أحسنت الظن في أمسي بالاعتدال ، واعتصمت أن الظروف تحالفني وتحالفك . وكان يوماً هادئاً جميلاً — إن كنت تذكر — بما أقصى عن رأسي كل خوف عليك أو على سلامتك في رحلتك . فأخذت أتمشي قليلاً في الدرب المرسوف بالحديقة بعد أن تناولت الشاي ، وأنا أفكر فيك وأراك في خيالي قريباً مني بحيث لا أفتقد وجودك فعلاً بخائبي .. ثم فكرت في الحياة المائلة أمامي .. حياتك ياسيدي ! .. إنها دنيا تفوق دنياي في اتساعها وإثارتها . وفي عمق غورها . حتى تبدو مسالكها الضحلة أعرق كثيرًا من أغوار البحر الذي نصب فيه الأنهار . وإنني لأعجب كيف يشبه كتاب الأخلاق عالمنا بالبداء الموحشة . في حين أنني أراه في عيني وردة متفتحة ؟ .. ثم غربت الشمس فبرد الهواء وتلبدت السماء . وعندئذ أسرعرت إلى القصر وإذا بصوفي تتوقفتني لتدعوني لمشاهدة ثوب الزفاف .. ورأيت تحتها في الصندوق هديتك .. هذا الخمار الذي دفعك لتبذيرك الشديد إلى أن ترسل في طلبه من لندن . لأنك — فيما يبدو — قررت أن تعزفني بهذه الهدية الغالية بعد أن رفضت قبول الجواهرات ! .. وفيها كنت أبسط هذا الخمار أمامي . ابسمت لأنني أزمعت أن أدايعك من ناحية ذوقك الارستقراطي وفي محاولتك إظهار عروسك الفتية بمظهر النبيلات .. فكرت في أن أضغ على رأسي القماش البسيط غير المزركش الذي كنت قد أعددتَه لنفسى كفتاة متواضعة الأصل ، ثم أذهب إليك وأسألك :

و ألا يكني ذلك لامرأة لا تستطيع أن تأتي زوجها برفق أو جمال

أو جاء ٢٠٠ . وتصور منظر كذا إذ ذاك وسمعت ردودك الصارمة ،
وتصلك في كبرياء من أية حاجة بك إلى زيادة ثروتك أو رفع مستواك
بالزواج من فتاة موسرة أو كريمة الحسب والنسب .

■ وهذا قاطعني مستر روشستر قائلا : « كيف تقرئين أفكاري
يا ساحرة ؟ .. ولكن ماذا وجدت في الخمار غير نظريته ؟ ترى هل
عثرت على سم أو خنجر حتى تتجلى عليك أمارات الحزن والألم
هكذا ؟ .. قلت : « كلا يا سيدي ، فإنني لم أجد فوق رقة الصناعة
وجملها ، سوى ما ينم على كبرياء آل روشستر .. وهذا شيء اعتدته
ولم يعد يروغني ، ولكن يا سيدي .. عندما اشتدت الظلمة ، هبت
الرياح .. ولكنها لم تكن كما هي الآن ، صاخبة مهتاجة .. وإنما كانت
(تنوح وتئن) بشكل يثير الفزع ، فتمنيت أن تكون بالمثل - وجئت
إلى هذه الحجرة ، فلما وجدت مقعدك خالياً ، انتابني رجفة .. وما لبثت
أن أويت إلى فراشي ، ولكنني لم أستطع أن أغمض عيني ، إذ تملكني
قلق غريب ! .. وكانت الرياح ما تزال تعصف بصوت خيل إلى أنه
صراخ مكنوم حزين ، سواء في القصر أو خارجه . وأخيراً تبينت أن
الصوت كان عواء كلب بعيد . وما لبث أن انقطع فاستراحت نفسي !
ولما استغرقت في النوم ، استرسلت في أحلام دارت حول الليلة
الرهيبية ، ثم ما لبثت أن انتقلت إلى التفكير فيك ، والرغبة في أن أكون
معك ، وأحسست إحساساً عجباً بأن هناك شيئاً ما يحول بيننا .. وكنت

في المرحلة الأولى من نومي أسير في طريق مجهول ، كثير الثنايا والتعاريج
تحيط به بقاع موحشة ، وتنقاط عليه أمطار غزيرة .. وكنت أحمل
بين ذراعي طفلاً صغيراً - جد ضئيل - لا يقوى على المشي ، وقد
أخذ يرتجف مولولاً بصوت حزين كان يفرق أذني . وخلصت يا سيدي
في الطريق أمامي ، فاستجمعت قواي لألحق بك ، وبذلت الجهد تلو
الجهد كي أناديك وأضرع إليك أن تقف ، ولكن حركاتي كانت
مقيدة .. وتلاشي صوتي بينما أحسست بأنك تمنعني في الابتعاد عني
في كل لحظة !

— وهل ما زالت هذه الأحلام تضايقك وتثقل عليك يا جين ،
وأنا على مقربة منك ؟ .. يالك من مخلوقة عصبية صغيرة ! .. أنسى
هذا ألم الموهوم ولا تفكري في غير السعادة الحقيقية ! .. تقولين إنك
تخبئني يا جين .. نعم لن أنسى ذلك ولا يسعك إنكاره .. لأن هذه
الكلمات لم تمت على شفئك ، ولكنني سمعتها واضحة ، ناعمة ، في
حلاوة الموسيقى ، عندما قلت : « أعتقد أنه شيء رائع أن أتمنى الحياة
معك يا إدوارد لأنني أحبك ! » .. أنخبئني يا جين ؟ .. أعيدني ذلك
هل سمعي ؟

— أحبك يا سيدي .. أحبك من كل قلبي .

فقال : « حسناً » واستطرد بعد صمت دام لحظات : « هذا
غريب ، ولكن الجملة اخترقت صدري في إيلام . لماذا ؟ .. لأنك
— فيما أعتقد — قلتما بصوت حاد ، وفي خمسين المتعبد ، ولأن في

نظرتك الآن إلى ، روح الصديق والحق والتفاني .. وهو كثير جداً ، حتى أنني لأخجل أن روحاً يخافني لا إنسانة ، فانظري إلى نظرة خيثة يا جين ، وارسمي على وجهك ابتسامات قاسية حية مثيرة ، وقولي إنك تكرهيني .. عاكسيني .. كدريتي ! .. افعل كل شيء يحركني ويثيرني ، فإني أؤمن أن تغيبيني وتثيريني على أن تملي نفسي بالحزن والأسى !

سأرضيك بما شئت من معاكسة وإثارة بعد أن أفرغ من قصتي ، فاجعلها إلى النهاية .

ظننتك قد فرغت من قصتك كلها يا جين ، وحسبت أنني اهتديت إلى مبعث الحزن في أحلامك !

وإذ هزرت رأسي ، قال منسائلا : « ماذا ؟ .. ألدبك المزيد ؟ .. ولكنني لن أعتقد أنه على شيء من الأهمية .. وأنبهك مقدماً إلى أنني لن أصدق منه شيئاً .. استمري ! » .. وأذهشني قلقة الواضح ، وما بدا عليه من نفاذ الصبر ، ولكنني استرسلت أقول : « رأيت حلماً آخر ياسيدي .. شاهدت قصر (ثورنفلد) طلالاً موحشة ينعق فيها اليوم والخفاش .. ولم يبق من واجهته النخمة سوى جدار واحد عال متصدع ، فأخذت أتجول - في ليلة مقمرة - وسط الحشائش التي نبتت بداخله ، وإذا بقدي تتعمران في حافة زخامية ناتئة .. جزء من أطلال سياج .. وكنت أتلفع بشالي - وأحمل الطفل المجهول بين ذراعي ، فلم ألقه رغم تعبي ونقله الذي كان يعرقل سيرى . وما لبثت أن

سمعت جواداً يركض من بعيد ، فأيقنت أنك أنت القادم ، لأنك كنت قد رحلت منذ زمن بعيد ، فأسرعت أتسلق الجدار بأمل أن ألتصق من قته ، وإذا بالأحجار تنهار تحت قدمي ، وإذا بالأغصان تلتوي بعد أن تعلقنت بها ، ولف الطفل ذراعيه حول عنقي حتى كاد يخنقني ، ولكنني وصلت في النهاية إلى القمة ، ورأيتك أشبه بنقطة بيضاء تزداد تضاملاً في كل لحظة .. ثم اشتدت الرياح ، فلم أعد أستطيع الوقوف ، وجلسمت فوق قمة الجدار . ورحت أهدئي من روع الطفل الخائف في حجرى ، وإذا بك تدور حول منحرج في الطريق .. وانحنيت إلى الإمام لأنني عليك نظرة أخيرة ، ففقدت توازني وسقطت . ثم صحوت من نومي !

— ولكن الحلم قد انقضى وتبدد !

— بل هذه هي المقدمة فقط ياسيدي ، وستأتي القصة بعد ذلك !

فا أن استيقظت حتى بهر عيني نور ، فخيل إلى أن النهار قد أقبل .. ولكنني كنت مخطئة ، إذ لم يكن النور سوى لهب شمع . وحدثت أن (صوفي) وقفت على الغرفة .. وكانت ثمة شمع على مائدة الزينة « كما كان باب الخزانة - التي علق فيها ثوب الزفاف والخمار قبل أن آوى إلى فراشي - مفتوحاً .. وسمعت خفيفاً بداخلها ، فقلت : « ماذا تفعلين يا صوفي ؟ .. ولم يجبني أحد ، وإنما مرق شخص من الخزانة . فتناول الضوء ورفعته عالياً ، وراح يتأمل الثياب المعلقة .. وصبرخت مرة أخرى : « صوفي ! صوفي ! » ، ولكن الشخص ظل صامتاً .. وكنت قد استويت جالسة في سريري ، فلبت إلى الإمام .. ودهشت في البداية ، ثم امتولت على الخيرة والخوف .. ثم حمداً للدم في عروقي .

لم يكن الشخص (صوفى) .. ولا (لياح) .. ولا (مسز فيراكس) ..
لا ، لم يكن أيًا منهم ، وإنى لمأكلدة من هذا .. ثم ، وفوق كل هذا ،
لم يكن كذلك تلك المرأة الغريبة الأطوار .. جريس بول ! :
إذن ، فمن كان ذلك الشخص ؟ .. أكان إنساناً أم شبحاً ؟ ؟
رجلا أم امرأة ؟ .. وما سر وجوده في مخدع جين إير ؟ .. بل ماهي
الأسرار والألغاز التي كانت تكتنف ردهات قصر (ثورنفلد)
وأبهاءه ؟ .. وأخيراً هل تزوج روثستر من جين إير وتمت سعادتها ،
أم أن الأحداث فرقّت بينهما ؟ !

اقرأ التفاصيل الشائقة لتلك الأحداث كلها في الجزء الثالث
والأخير من هذه القصة الخالدة .

صدر من هذه السلسلة

- | | |
|--------------------------|-----------------------------|
| ١ - وجوه الحب السبعة . | ٢٣ - الجريمة لا تفيده . |
| ٢ - الحب الاول . | ٢٤ - نساء ومآسي في |
| ٣ - جريمة حب . | ساحة العدالة . |
| ٤ - أنسا كارثينا . | ٢٥ - الحرب والسلام ، ج ٤ |
| ٥ - الحرب والسلام ، ج ١ | ٢٦ - تعلم كيف تسترخي . |
| ٦ - الحرب والسلام ، ج ٢ | ٢٧ - مركب النقص . |
| ٧ - الخاطنة . | ٢٨ - غرام سوان ، ج ١ |
| ٨ - اليوساء ، ج ١ | ٢٩ - غرام سوان ، ج ٢ |
| ٩ - مدام بونفاري ، ج ١ | ٣٠ - كيف نجحوا في الحياة ؟ |
| ١٠ - مدام بونفاري ، ج ٢ | ٣١ - كيف تحصل على الثروة ؟ |
| ١١ - اليوساء ، ج ٢ | ٣٢ - غرام سوان ، ج ٣ |
| ١٢ - الخليفة الاولى . | ٣٣ - لماذا أنت عصبي ؟ |
| ١٣ - المفتون . | ٣٤ - عش بحكمة تعيش سليماً |
| ١٤ - الحب هو الكفر . | ٣٥ - زواج الحب . |
| ١٥ - فن الحياة . | ٣٦ - التحليل النفسي للأحلام |
| ١٦ - د . زيفاجو ، ج ١ | ٣٧ - حذار من الشفقة . |
| ١٧ - د . زيفاجو ، ج ٢ | ٣٨ - امر الانتقام . |
| ١٨ - د . زيفاجو ، ج ٣ | ٣٩ - اعترافات جان روسو ، |
| ١٩ - د . زيفاجو ، ج ٤ | ج ١ |
| ٢٠ - اليوساء ، ج ٣ | ٤٠ - اعترافات جان روسو ، |
| ٢١ - الحرب والسلام ، ج ٣ | ج ٢ |
| ٢٢ - محاكمة سقراط . | ٤١ - اعترافات جان روسو ، |
| | ج ٤ |



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شىء تقريباً : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت . . . وهكذا اقترن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن «آن برونتى» من هذا الإنتاج رواية (أجنسى جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذريرج) . أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قصص على ثلاثهن بالتعاقب - وهو مرض السيل أو التدرد الرئوى - فماتت به «شارلوت» فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ - ١٨٥٥) ، وماتت به «إميلي» فى سن الثلاثين (١٨١٨ - ١٨٤٨) . . ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ - ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لا تنفك عند هذا الحد ، وتعلل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجوع القائم الذى تنسم به رواياتهن جميعاً ، فقد كانت أسرة «برونتى» تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بالجنوب . . . وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : مازيا ، و إليزابيث ، و شارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلي ، وأخيراً «آن» .

وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «مازيا» فى سن السابعة ، والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «مازيا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين ! وبعد أربع سنوات أخق الأب ابنتيه الكبيرتين «مازيا» و «إليزابيث» بمدرسة داخلية - هى المدرسة الفريسية التى بنيت بها «شارلوت» فى رواية (جين إير) باسم «لوود» .